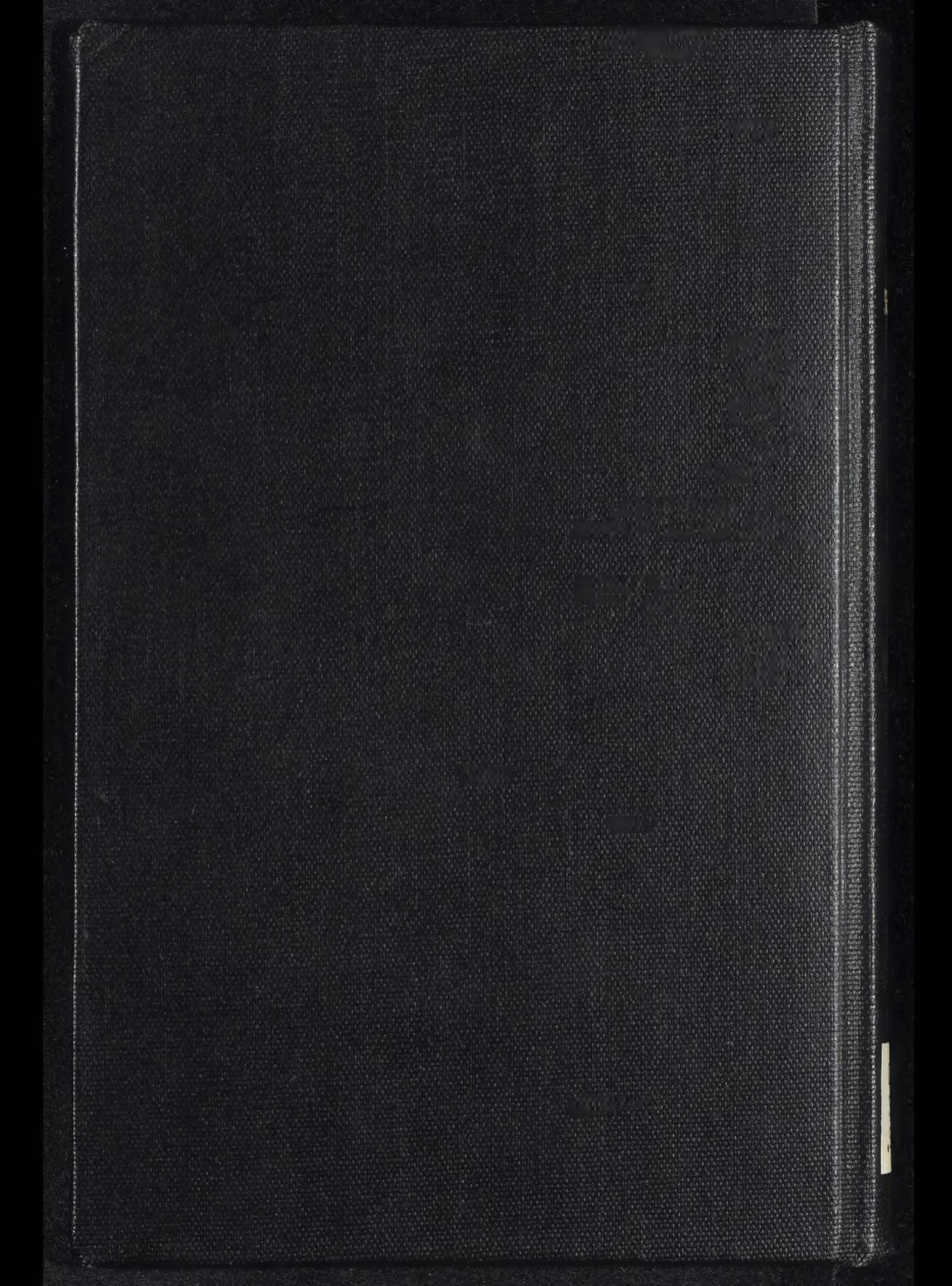
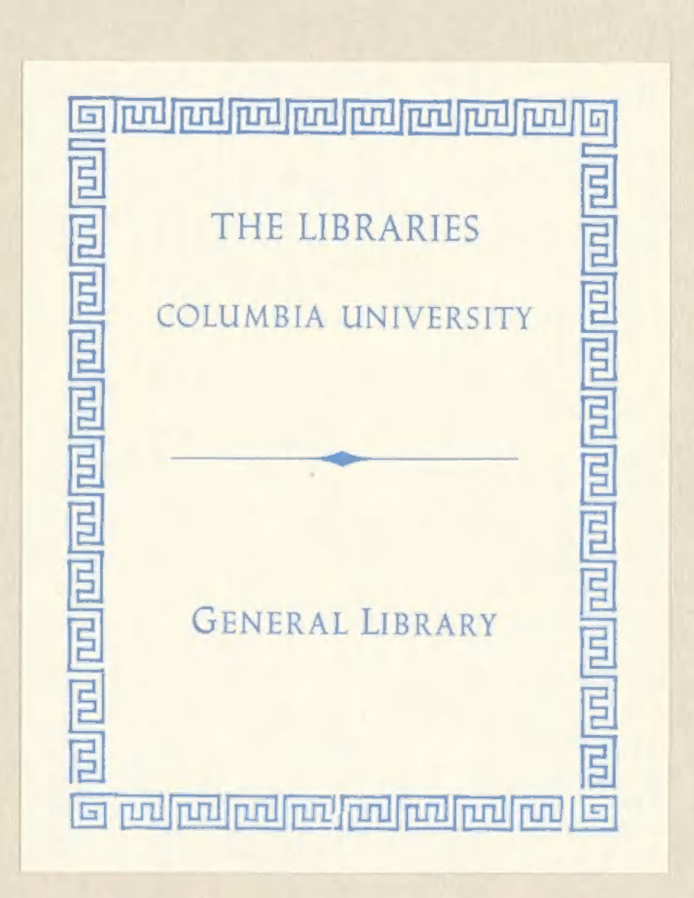
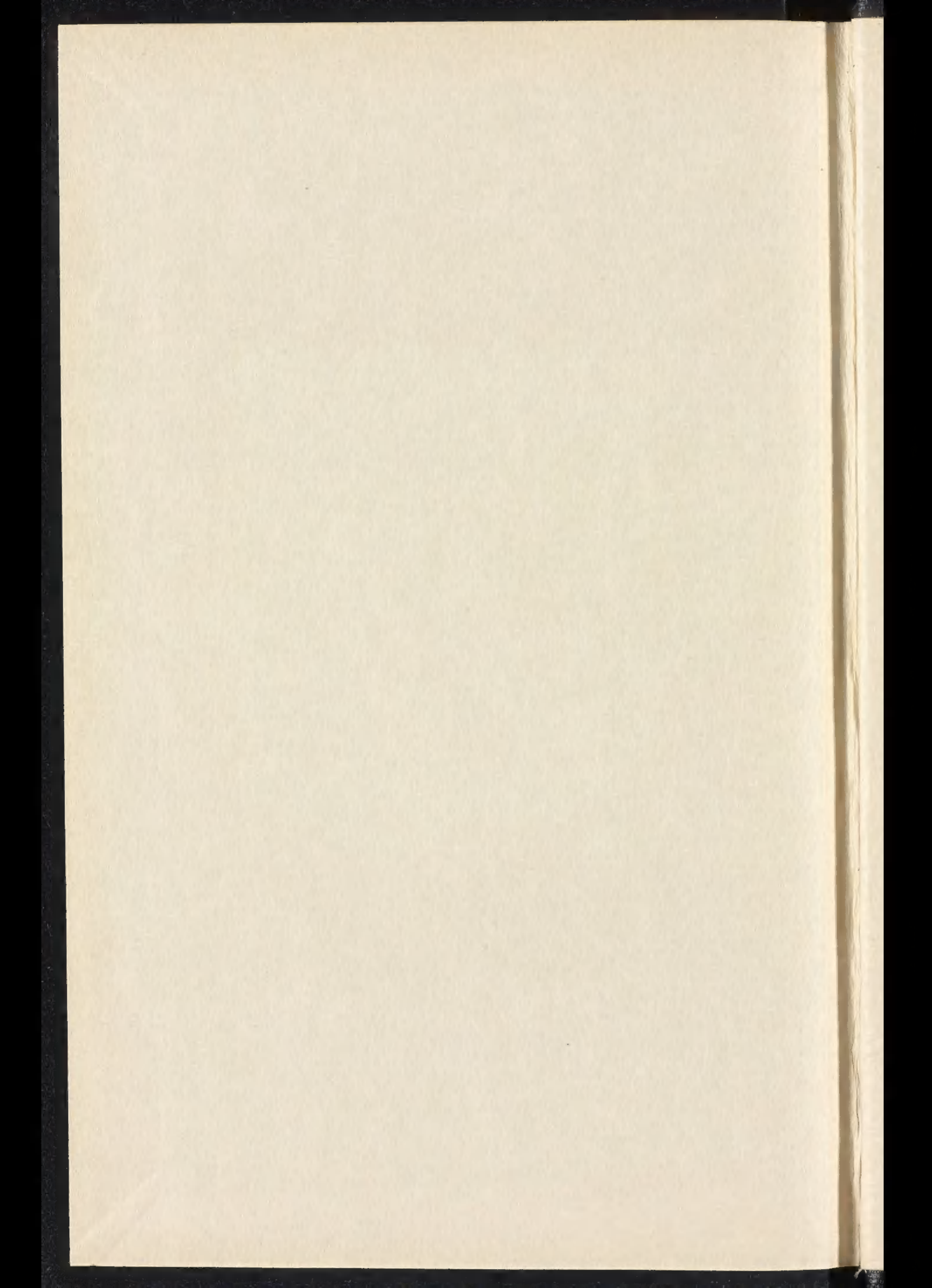
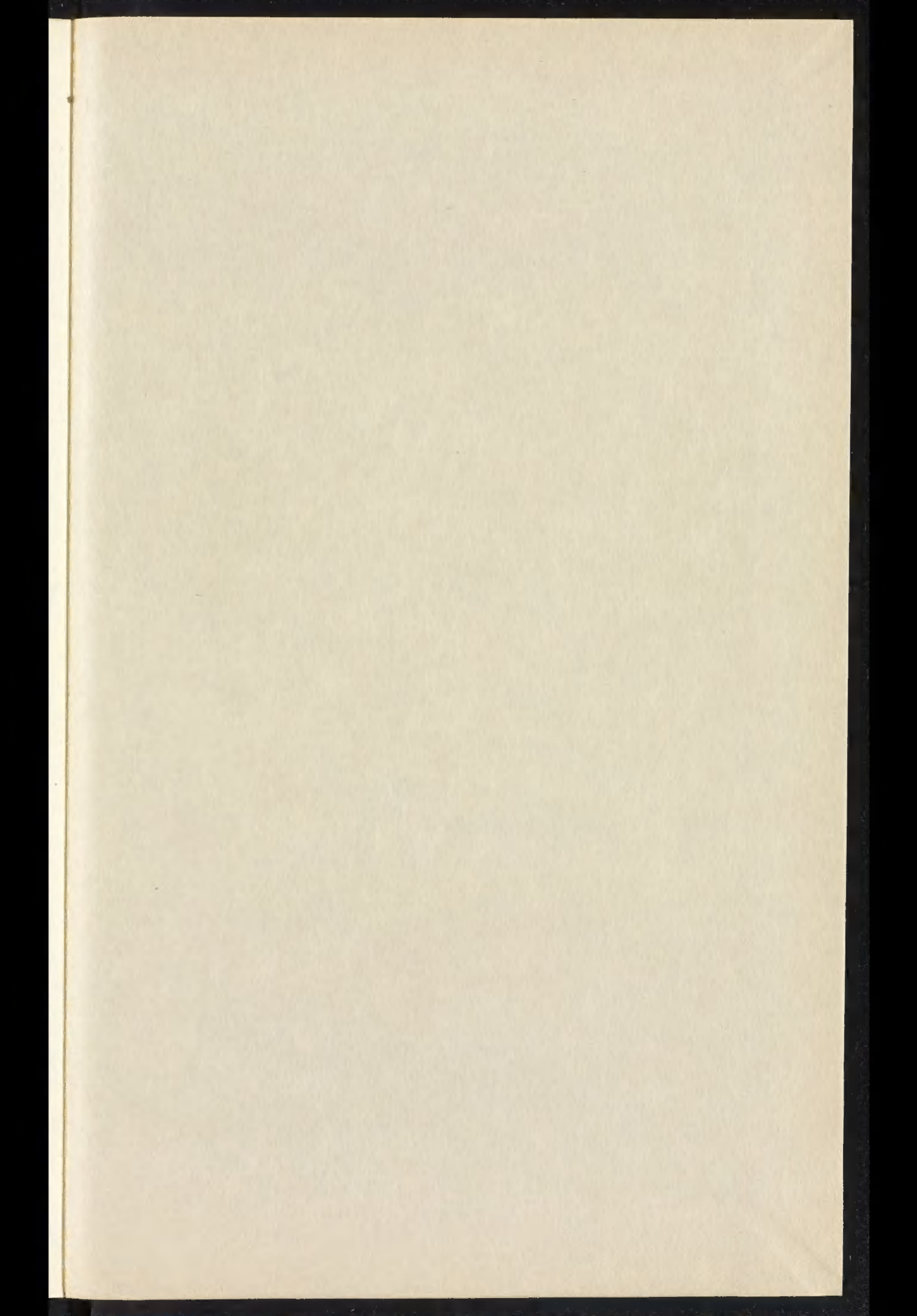
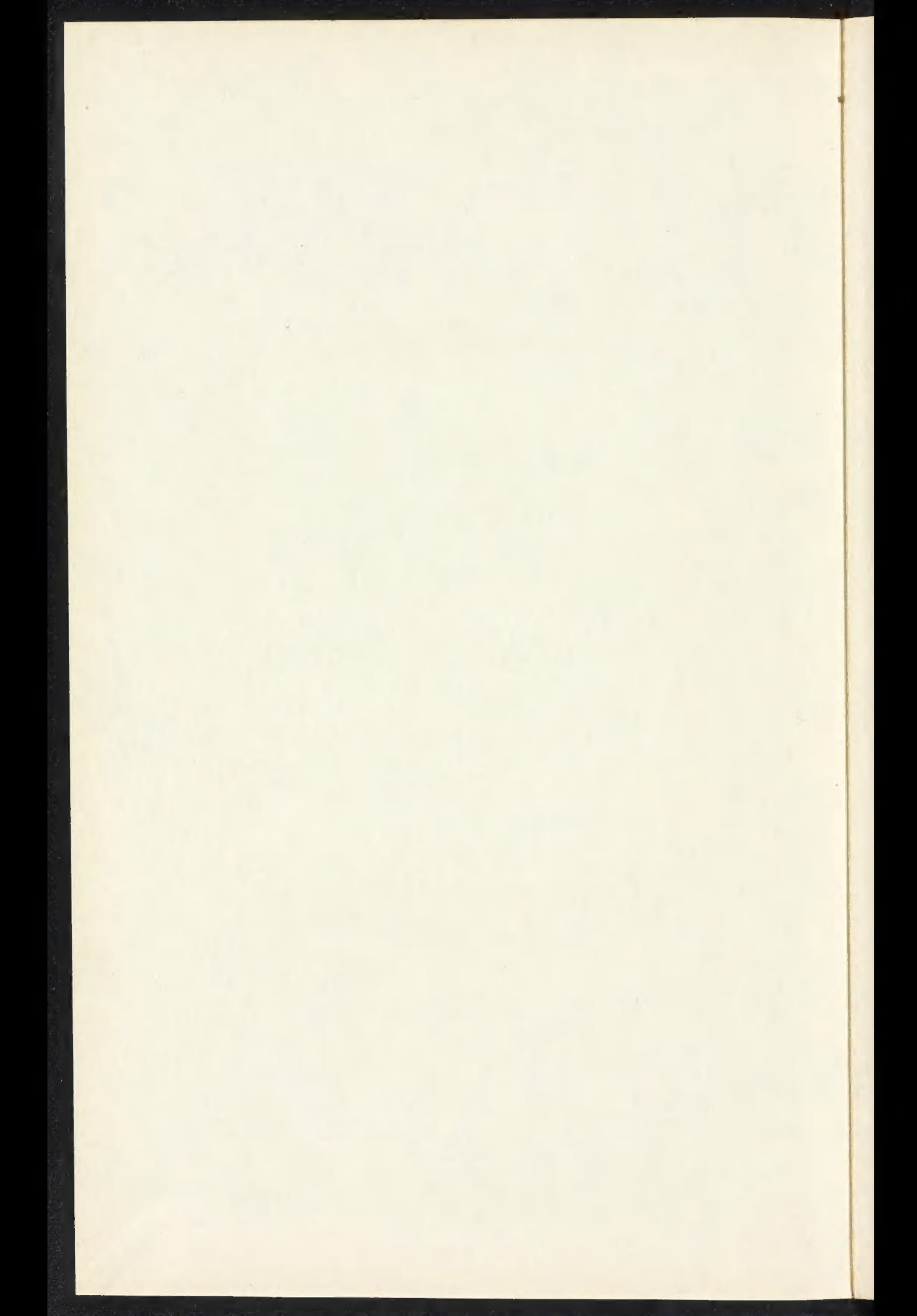
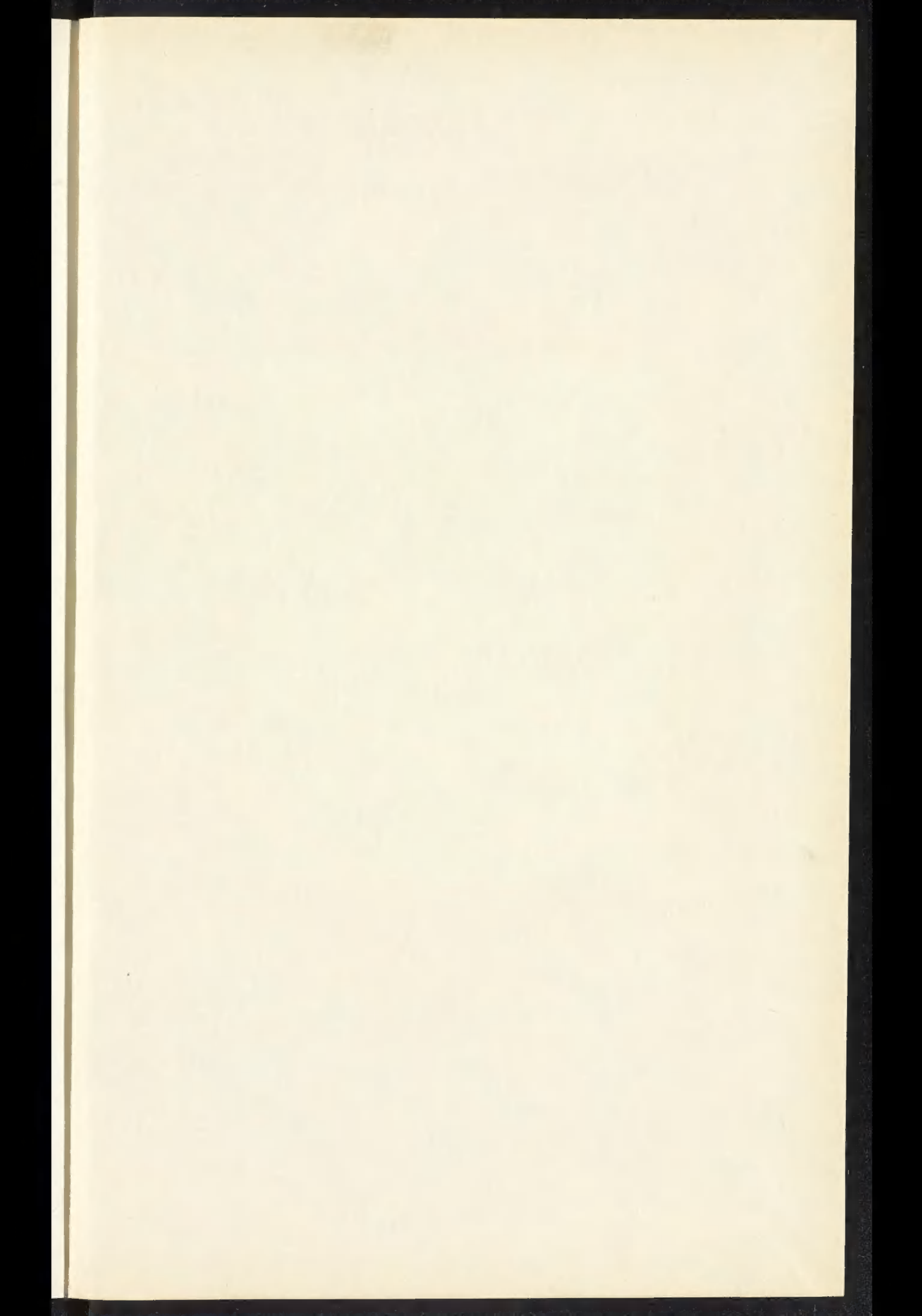






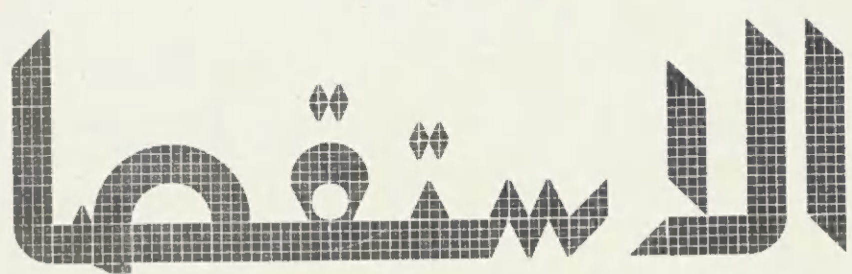






الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولتان المرابطية والموحدية

الجزء الثاني

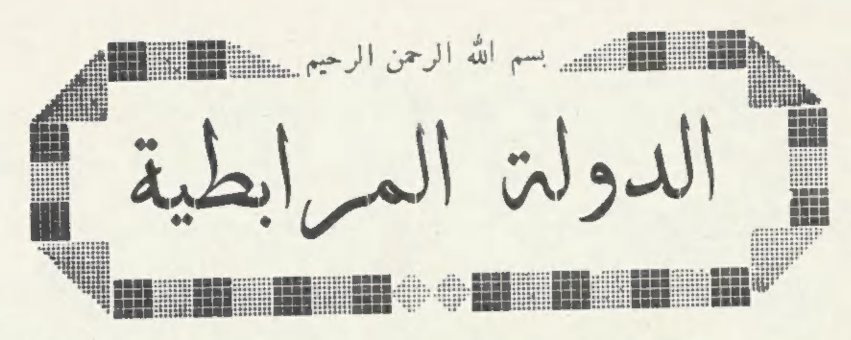
تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

مطبعة دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٤



الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة احدى قبائل البرانس من البربر ، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب ، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط ، حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر .

وتقدم لنا أن النسابين من العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير ، حلفهم الملك أفريقيش بالمغرب ،فاستحالت لغتهم الى البربرية .والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر ، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهى الى السبعين ، منهم : لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك ، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر .

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان احداهما : دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين بافريقية ، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والاخرى : دولة الملثمين بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس كما سيأتى .

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان ، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولا فى أربعة عرضا ، وفيهم قوما لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة ، وانما أموالهم الانعام وعيشهم اللحم واللبن ، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا الا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق ، وانما قيل لهم الملثمون لانهم يتلثمون ، ولا يكشفون وجوههم أصلا .

قال ابن خلكان : «اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم . وقيل كان سببه أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ، ويقعدوا هم فى البيوت متلثمين فى زى النساء . فاذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم . ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا به بما حصل لهم من الظفر بالعدو » .

وقال عز الدين ابن الاثير فى كامله ما مثاله : وقيل ان سبب تلثمهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ، ولم يكن بها الا المشايخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا وقالوا : هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، والرأى أن نسوق النعم ونمضى فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم ، فبينماهم فى جمع النعم من المراعى اذ أقبل رجال الحى ، فبقى العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو خلقا كثيرا وكان من قتل النساء أكثر ، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ، ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا .

وفى ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب :

قوم لهم شرف العلا من حمير ... واذا انتموا صنهاجة ، فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم ، فتلثموا

وقال ابن خلدون : « كان دين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة المغرب ، ولم يزالوا مستقرين بتلك المفالات الصحراوية حتى كان

اسلامهم بعد فتح الاندلس ، وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق (١) لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية الى الاندلس ، توارثه ملوك منهم من بنى ورتنطو (٢) وطالت أعمارهم فيه الى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية ، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم ، ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعا ، واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة ، الى أن قام فيهم الامير أبو عبد الله محمد ابن تيفاوت المعروف بتاسرت (٣) اللمتونى فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايعوه ، وكان من أهل لفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد فى بعض غزواته .»

الخبر عن رياسة يحيى بن ابراهيم الكدالي

وما كان من أمره مع الشيخ أبى عمران الفاسى رحمهما الله

لما توفى أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة من بعده يحيى ابن ابراهيم الكدالى ، ـ وكدالة ولمتونة أخوان يجتمعان فى أب واحد ؛ وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التى تلى بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط ـ فاستمر الامير يحيى بن ابراهيم على رياسة صنهاجة وحربهم لاعدائهم الى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة ،

(١) راجع نص ابن خلدون فى صحيفة ٢٣٥ من الجزء الاول طبع الجزائر ففيه بعض تقديم وتأخير وزيادة بيان .

(٢) الذى فى نسخ ابن خلدون انه ورتنطق بالقاف .

(٣) الذى فى ابن خلدون صحيفة ٢٣٦ طبع الجزائر جزء أول انه تارشت ونسخة مطبعة مصر صحيفة ١٨٢ من الجزء السادس انه تاشرت وفى القرطاس طبع فاس تارشنا اوتارشت .

فاستخلف على صنهاجة ابنه ابراهيم بن يحيى وارتحل الى المشرق برسم الحج . فلما قضى حجه وزيارته قفل الى بلاده ، فمر في عوده بالقيروان فلقى بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسى ، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه ، فرآه الشيخ أبو عمران محبا فى الخير فأعجبه حاله ، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق ، فقال له الشيخ : « وما ينتحلون من المذاهب ؟ » قال : « انهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم ! » فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئا ! الا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة ! فقال له الشيخ : « وما يمنعك من تعلم العلم ؟ » فقال : « ياسيدى عدم وجود عالم بأرضى ، وليس فى بلادى من يقرأ القرآن فضلا عن العلم ! ومع ذلك فأهل أرضى يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ، ويدرس لهم العلم ويفقههم فى دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الاسلام ، فلو رغبت فى الثواب من الله تعالى لبعثت معى بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين فينتفعون به ويكون لك وله الاجر العظيم عند الله تعالى اذ كنت سبب هدايتهم » فندب الشيخ أبو عمران تلامذته الى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها ، فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن ابراهيم : « انى أعرف ببلد نفيس (١) من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا أخذ عنى علما كثيرا ـ واسمه واجاج بن زلو اللمطى من أهل السوس الاقصى ـ اكتب اليه كتابا لينظر فى تلامذته من يبعثه معك فسر اليه لعلك تجد حاجتك عنده » فكتب اليه الشيخ أبو عمران كتابا يقول فيه : « أما بعد اذا وصلك حامل كتابى هذا وهو : يحيى بن ابراهيم الكدالى فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه

---

١) بلد نفيس قرب أغمات كانت موجودة زمان الكبرى وقد ذكرها فى مسالكه فراجع ما ذكره فى حقها فى صحيفة ١٦٠ طبع الجزائر وراجع ما كتب عليها فى الجزء الاول من هذه الطبعة صحيفة ١٥٣ تعليق عدد ٢ .

وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم فى دين الله ، ولك وله فى ذلك الثواب والاجر العظيم ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .»

وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه : « ومنهم واجج ابن زلو اللمطى من أهل السوس الاقصى رحل الى القيروان ، وأخذ عن أبى عمران الفاسى ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا أصابهم قحط استسقوا به » اه

فسار يحيى بن ابراهيم بكتاب الشيخ أبى عمران حتى وصل الى الفقيه واجاج بمدينة نفيس ، فسلم عليه ودفع اليه الكتاب ، وكان ذلك فى رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج فى الكتاب ، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران ، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولى ، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة ، مشاركا فى العلوم ، فخرج مع يحيى ابن ابراهيم الى الصحراء ، وكان من أمره ما نقصه عليك .

الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

ولما انتهى يحيى بن ابراهيم الى بلاده ـ ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى ـ تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما ، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا فى اكرامه وبره ، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع ، وألفاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر ، فقال لهم: «ليس هذا من السنة، وانما سنة الاسلام أن يجمع الرجل بين اربع نسوة حرائر فقط ، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة »

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وكبحهم عن كثير من

مألوفاتهم الفاسدة وشدد فى ذلك ، فأطرحوه واستصعبوا علمه ، وتركوا الاخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف .

فلما رأى عبد الله بن ياسين اعراضهم عنه واتباعهم لاهوائهم عزم على الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا فى دين الاسلام يومئذ ، فلم يتركه يحيى بن ابراهيم لذلك ، وقال له : انما أتيت بك لانتفع بعلمك فى خاصة نفسى وما على فيمن ضل من قومى . وكان قومه ليس عندهم من الاسلام الا الشهادة دون ما عداها من أركان الاسلام وشرائعه .

ثم قال يحيى بن ابراهيم لعبد الله بن ياسين : «هل لك فى رأى أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة ؟» قال : «وما هو ؟» قال : «ان ههنا جزيرة فى البحر » . قال ابن خلدون : «هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاحا فى المصيف يخاض بالاقدام وغمرا فى الشتاء يعبر بالزوارق» قال يحيى بن ابراهيم : وفيها الحلال المحض من سجر البرية وصيد البر والبحر ، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت » . فقال عبد الله بن ياسين : «ان هذا الرأى حسن ! فهلم بنا فلندخلها على اسم الله ! فدخلها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة ، وابتنى عبد الله رابطة هناك ، وأقام فى اصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر ؛ فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار ! فكثر الواردون عليهم ، والتوابون لديهم ، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم الى الخير ، ويرغبهم فى ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم ، فلم تمر عليه الا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل ! وكان من أمرهم ما تسمعه عن قريب .

شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد
واعلانه بالدعوة وما كان من أمره فى ذلك

لما اجتمع الى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم : المرابطين للزومهم رابطته .

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم الى الجنة وخوفهم من النار ، وأمرهم بتقوى الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأخبرهم بما فى ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه ، ثم ندبهم الى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم : « معشر المرابطين ، انكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل ! ولن يغلب ألف من قلة ! وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى الله حق جهاده ! » فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك امرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ! ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ! » فقال لهم: اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته فان تابوا فخلوا سبيلهم وان أبوا من ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .» فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته . فوعظهم وأنذرهم ودعاهم الى الاقلاع عماهم بسبيله ، فلم يرفعوا بذلك رأسا .

فخرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله ! ودعاهم الى التوبة ! ورغبهم فى الجنة ، وخوفهم من النار ، وأقام ينذرهم سبعة أيام ! وهم فى ذلك كله لا يلتفتون الى قوله ! ولا يزدادون الا فسادا ! فلما يئس منهم قال لاصحابه : « قد أبلغنا فى

الحجة ، وأنذرنا وأعذرنا ، وقد وجب علينا الآن جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله » فبدأ أولا بقبيلة كدالة فغزاهم فى ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه ، وقتل منهم خلقا كثيرا . وأسلم الباقون اسلاما جديدا ، وحسنت حالهم ، وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم ، وكان ذلك فى صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة .

ثم سار الى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم ، وأذعنوا الى الطاعة ، وبايعوه على اقامة الكتاب والسنة .

ثم سار الى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له ، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة .

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا الى التوبة والمبايعة ، وأقروا له بالسمع والطاعة . فكان كل من أتاه تائبا منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الاسلام ، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر ، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع اليه من ذلك .

ثم أخذ فى اشتراء السلاح واركاب الجيوش من ذلك المال ، وجعل يغزوا القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها .

ثم جمع أسلاب القتلى فى تلك المغازى وجعلها فيئا للمرابطين وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والاعشار والاخماس الى طلبة العلم ببلاد المصامدة ، فاشتهر أمره فى جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب ، وأنه قام رجل بكدالة يدعوا الى الله تعالى والى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله ، وأنه متواضع زاهد فى الدنيا ، وطار له ذكر فى العالم ، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس .

ثم توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى على اثر ذلك ، وحكى ابن خلدون أن وفاة يحيى بن ابراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه فى الجزيرة . والله أعلم .

الخبر عن رياسة يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى

لما توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين فى حربهم وجهادهم لعدوهم .

وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا ، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم ، وذلك لما أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق ، فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتونى — وعبد الله بن ياسين هو الامير على الحقيقة لانه هو الذى يأمر وينهى ويعطى ويمنع ، وعن رأيه يصدرون — فكان يحيى بن عمر يتولى النظر فى أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر فى أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والاعشار .

وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، واقفا عند أمره ونهيه ومن حسن طاعته له انه قال له يوما : « قد وجب عليك أدب » قال يحيى : « فيماذا ياسيدى ؟ » قال : « لا أعرفك به حتى آخذه منك ! فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطا ! ثم قال له : « انما ضربتك لانك باشرت القتال ! واصطليت بنار الحرب بنفسك ! وذلك خطأ منك ! فان الامير لا يقاتل ، وانما يقف ويحرض الناس ، ويقوى نفوسهم ، فان حياة الجند بحياة أميره ، وهلاكه بهلاكه . »

واستقام الامر ليحيى بن عمر ، وملك جميع بلاد الصحراء ، وغزا بلاد السودان ففتح كثيرا منها ، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح .

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بنى مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة أن انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوى ، وأنه زحف الى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة ، وبرز اليه صاحبها أبو محمد المعتز بالله – آخر ملوك بنى مدرار الصفرية – فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته ، وبعث برأسه الى قرطبة – وكان ذلك لاول حجابة المنصور بن أبى عامر – واستمر خزرون بن فلفل واليا على سجلماسة الى أن هلك وولى بعده ابنه وانودين بن خزرون الى أن هلك أيضا وولى ابنه مسعود بن وانودين .

ولما انقرضت الدولة الاموية بالاندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف ، استبد امراء الاطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما فى يده ، وعدم الوازع وتصرفوا فى الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاسا وأعمالها من جور بنى عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل ، ونال أهل سجلماسة ودرعة من بنى خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر .

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة – وقد انتشر ذكر عبد الله ابن ياسين وأصحابه المرابطين فى العالم – اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا الى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون اليهم فى الوصول الى بلادهم ، ليطهروها مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف من الامراء ، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوى .

فلما وصل الكتاب الى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم فى الامر . فقالوا : «أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ! وسر بنا على بركة الله» فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد .

وخرج بهم فى عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة فى جيش كثيف من المرابطين ـ وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمائة ـ فسار حتى وصل الى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها ، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور ـ وكانت ترعى فى حمى حماه لها هنالك ـ فاكتسحها عبد الله بن ياسين . واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه ، فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة . فكانت بينهما حرب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة ، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون .

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الابل التى كان اكتسحها فى درعة ، فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الاربعة أخماس على المرابطين .

وارتحل من فوره الى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التى كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه . واستعمل على سجلماسة عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء .

ثم توفى الامير أبو زكرياء يحيى بن عمر فى بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

الخبر عن رياسة أبي بكر بن عمر اللمتونى وفتح بلاد السوس

لما توفى الامير يحيى بن عمر اللمتونى ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر ، وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين الى غزو بلاد السوس والمصامدة . فزحف اليها فى جيش عظيم فى ربيع الثانى من السنة المذكورة.

وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا ورعا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ثم سار حتى انتهى الى بلاد السوس . فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة(١)وتارودانت ـ قاعدة بلاد السوس ـ وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية (٢) نسبة الى على بن عبد الله البجلى الرافضى ـ كان سقط الى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعى بافريقية ـ فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلا بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق الا ما فى يدهم . فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقى منهم الى مذهب السنة والجماعة .

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فيئا وأظهر الله المرابطين على من عداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله ، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم باقامة العدل واظهار السنة وأخذ الزكوات والاعشار واسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة
وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين الى بلاد المصامدة ففتح جبل درن ، وبلاد رودة ، ومدينة شفشاوة بالسيف . ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوه ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه . ثم ارتحل الى مدينة أغمات

---

(١) مدينة ماسة ذكرها البكرى فى مسالكه فقال انها قرب السوس ويضاف اليها الوادى المنصب فى المحيط صحيفة ١٦١ طبع الجزائر .

(٢) انظر بسط الكلام على البجليين فى مسالك البكرى صفحة ١٦٢ طبع الجزائر وراجع القرطاس ايضا .

ـ وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوى ـ فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا .

ولما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلا هو وجميع حشمه الى تادلا فاستجار ببني يفرن ملوك سلا وتادلا .

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند ، ثم خرج الى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بنى يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوى فقتله .

وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت اسحق النفزاوية . قال ابن خلدون : وكانت من احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن على بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوى خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت اسحق المذكورة الى أن كان من أمرها ما نذكره .

ثم تقدم عبد الله بن ياسين الى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بأن بساحل تامسنا قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم .

ولنذكر هنا كلاما ملخصا فى برغواطة ودولتهم ثم نرجع الى ما نحن بصدده فنقول : اختلف الناس فى نسب برغواطة هؤلاء الى أى شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول فى متنبئهم صالح بن طريف البرغواطى: انه يهودى الاصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط ـ حصن من عمل شدونة من بلاد الاندلس ـ ثم رحل الى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلى . واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا . فوجد بها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنير نجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآنا ـ حسبما تقدم الخبرعنه مستوفى ـ فكان يقال لمن تبعه ودخل فى دينه برباطى ثم عربته العرب فقالوا برغواطى فسموا برغواطة .

قال ابن خلدون : «وهذا من الاغاليط البينة !» وصحح ان القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار وغير ذلك . والتحقيق أن برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وانما هم أخلاط من البربر اجتمعوا الى صالح ابن طريف الذى ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لاتباعه الديانة التى أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغرى كبير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال انه ادعى النبوة أيضا وشرع لقومه الشرائع ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة ، وقام بأمره ابنه صالح بن طريف المذكور فعفت مخارقه على مخارق أبيه ! وكان أولا من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحناه قبل نسى ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى على المغرب .

ثم خرج صالح بن طريف الى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم انه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بشريعته الى ابنه الياس بن صالح . ولم يزل الياس مظهرا للاسلام مصرا على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهرا بالعفاف والزهد الى أن هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضى خمسين سنة من ولايته. ثم ولى من بعده ابنه يونس بن الياس فأظهر دينهم ودعا الى كفرهم، وقتل من لم يدخل فى أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال انه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم اياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات (وهو حجر عال نابت وسط الطريق) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفسا .

قال زمور بن صالح(١): ثم رحل يونس بن الياس الى المشرق وحج،

---

١) الذى فى النسخة المطبوعة بمدينة الجزائر أبو صالح زمور بن موسى ابن هشام صفحة ١٦٤ مسالك البكرى

ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده . وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لاربع وأربعين سنة من ملكه . وانتقل الامر عن بنيه الى غيرهم من قرابته ، فولى أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار الى شىء منها سعيد بن هشام المصمودى فى أبيات منها قوله :

وهذى أمة هلكوا وضلوا * وعاروا ، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غفير * فأخزى الله أم الكاذبينا
سيعلم أهل تامسنا اذا ما * أتوا يوم القيامة مقطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه * يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين ـ لانهم يبيحون فى دياناتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ـ وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر . وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه.

ثم ولى بعده ابنه أبو الانصار عبد الله بن أبى غفير فاقتفى سننه ،وكان كبير الدعوة مهيبا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة ، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يعتم أحد فى بلاده الا الغرباء ، وكان حافظا للجار وافيا للعهد ، وتوفى سنة احدى وأربعين وثلاثمائة لاربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره .

وولى بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبى الانصار ـ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ـ فسار سيرة آبائه وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه ، ودانت له قبائل المغرب قال زمور بن صالح : «كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم »

وقد كان لملوك العدوتين فى غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الادارسة والاموية والشيعة وغيرهم

ولما زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الى المغرب زحفه

المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا الى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم الى جهاد برغواطة، فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبى الانصار ، وبعث بسبيهم الى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة

ثم حاربتهم أيضا جنود المنصور بن أبى عامر لما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة ، فعظم أثره فيهم بالقتل والسبى .

ثم حاربهم أيضا بنو يفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيرى بن عطية المغراوى صاحب فاس .

وكان لابى الكمال تميم بن زيرى اليفرنى فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه وذلك أعوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبيا وقتلا

ثم تراجعوا من بعده الى أن جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا ، فأخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم وأنهم مجوس أهل ضلالة وكفر ، وأخبر بما تمسكوا به من دياناتهم الخبيثة. وقيل له ان برغواطة قبائل كثيرة وأخلاط شتى ، اجتمعوا فى أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبىء الكذاب ، واستمر حالهم على الضلالة والكفر الى الان .فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار اليهم فى جيوش المرابطين - والامير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبى منصور عيسى بن أبى الانصار عبد الله بن أبى غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف - فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام ، مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى - مهدى المرابطين - فكان فيها شهادته رحمه الله

ولما حضرته الوفاة قال لهم: «يامعشر المرابطين انى ميت من يومى هذا لامحالة!

وأنكم فى بلاد عدوكم فاياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعوانا على الحق واخوانا فى ذات الله ، واياكم والتحاسد على الرياسة فان الله يؤتى ملكه من يشاء من خلقه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده » فى كلام غير هذا

وتوفى عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم ، وهو يوم الاحد الرابع والعشرين من جمادى الاولى سنة احدى وخمسين وأربعمائة ، ودفن بموضع يعرف بكريفلة ، وبنى على قبره مسجد وهو مشهور بها الى الآن .

وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع فى المطعم والمشرب انما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئا من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة اقامته فيهم .

وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج فى كل شهر عددا من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة الا خطبها . ومن حسن سياسته أنه أقام فى صنهاجة السنة والجماعة حتى أنه ألزمهم أن من فاتته صلاة فى جماعة ضرب عشرين سوطا ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط .

ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه فى بعض غزواته ببلاد السودان فنفد ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم : احفروا تحت مصلاى هذا ! » فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الارض عذبا باردا ! فشربوا واستقوا وملاوا أوعيتهم . ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائما من يوم دخل بلاد صنهاجة الى أن توفى رحمه الله .

واستمر الامير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله بن ياسين، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه اياه ودفنه أن زحف الى برغواطة مصمما فى حربهم ، متوكلا على الله فى جهادهم ، فأثخن فيهم قتلا وسبيا حتى تفرقوا فى المكامن والغياض ، واستأصل شافتهم وأسلم الباقون اسلاما جديدا ، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد الى مدينة أغمات .

غزو أبى بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه اياها

لما استقر الامير أبو بكر بن عمر بأغمات ، أقام بها الى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة . وخرج غازيا بلاد المغرب فى أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة . ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقا كثيرا من بنى يفرن وخربها فلم تعمر بعد الى الآن .

وكان تخريبه اياها فى آخر يوم من ربيع الثانى من السنة المذكورة ثم رجع الى مدينة أغمات .

■

عود أبى بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك

كان الامير أبو بكر بن عمر اللمتونى قد تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأى متين ومعرفة بادارة الامور حتى كان يقال لها الساحرة ، فأقام الامير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر ، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء ، ووقوع الخلاف بين أهلها .

وكان الامير أبو بكر رجلا متورعا فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضا ، وهو قادر على كفهم ، ولم ير أنه فى سعة من ذلك وهو متولى أمرهم ومسؤول عنهم ، فعزم على الخروج الى بلاد الصحراء ليصلح أمرها ، ويقيم رسم الجهاد بها .

ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه اياها :

«يازينب انى ذاهب الى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها ! وانى مطلقك ، فاذا انقضت عدتك فانكحى ابن عمى يوسف بن تاشفين فهو خليفتى على بلاد المغرب !» فطلقها ، ثم سافر عن اغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا ، حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياما حتى أصلح أحوالها ثم سافر الى الصحراء

ونقل ابن خلكان عن كتاب «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» فى سبب رجوع الامير أبى بكر بن عمر الى الصحراء ما مثاله قال : «كان أبو بكر ابن عمر رجلا ساذجا خير الطباع مؤثرا لبلاده على بلاد المغرب غير ميال الى الرفاهية . وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط . فلما حصلت البلاد لابى بكر بن عمر سمع أن عجوزا فى الصحراء ذهبت لها ناقة فى غداة فبكت وقالت : ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله الى بلاد المغرب ! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف ابن تاشفين ! ورجع الى بلاده الجنوبية ! » اه

وكان سفر أبى بكر بن عمر الى الصحراء فى ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، ولما وصل اليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة .

وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضا بالمغرب ، واستولى على أكثر بلاده . فلما سمع الامير أبو بكر بن عمر بما آل اليه أمر يوسف ابن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله . ويقال انه كان مضمرا لعزله وتولية غيره . فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت اسحق ـ وكان قد تزوجها بعد أبى بكر بن عمر ـ فقالت له : «ان ابن عمك متورع عن سفك الدماء . فاذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الادب والتواضع معه ! وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له ، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الاموال والخلع وسائر طرف

المغرب واستكثر من ذلك ، فانه بأرض صحراء وكل مـا جلب اليه من هنا فهو مستطرف لديه»

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج اليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد ، وسلم عليه وهو راكب سلاما مختصرا . ولم ينزل له ولا تأدب معه الادب المعتاد ! فنظر أبو بكر الى كثرة جيوشه فقال له : «يايوسف ما تصنع بهذه الجيوش ؟» قال : «أستعين بهـا على من خالفنى !» فارتاب أبو بكر به ثم نظر الى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال :« مـا هذه الابل الموقرة ؟» قال :«أيها الامير انى قد جئتك بكل ما معى من مال وأثاث وطعام وادام لتستعين به على بلاد الصحراء !» فازداد أبو بكر تعرفا من حاله وعلم أنه لايتخلى له عن الامر فقال له يابن عم : «أنزل أوصيـك » فنزلا معا وجلسا فقال أبو بكر :«انى قد وليتك هذا الامر وانى مسؤول عنه فاتق الله تعالى فى المسلمين واعتقنى واعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنه . والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل فى رعيتك وهو خليفتى عليك وعليهم » ثم ودعه وانصرف الى الصحراء فأقام بها مواظبا على الجهاد فى كفار السودان الى أن استشهد من سهم مسموم أصابه فى شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام لـه أمر الصحراء كافة الى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره .

الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى

لما عزم الامير أبو بكر بن عمر على السفر الى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن ابراهيم اللمتونى ، فعقد لـه على بلاد المغرب وفوض اليه أمره وأمره بالرجوع الى قتال من به من مغراوة وبنى يفرن

وسائر زناتة والبربر . واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لمـا يعلمون من فضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيـه ويمن نقيبته . فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبى بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين الى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفا من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهـم سير بـن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفـى ، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف مـن قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة وبنـى يفرن وسائر قبائـل البربر القائمين به . ثم سار هو فى أثرهم يتقرى المغرب بلدا بلدا ويتتبـع أهله قبيلة قبيلة ، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم ، وقوم يفرون بـين يديه ، وقـوم يلقون اليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب . ثـم سار حتى دخل مدينة أغمات. ولما استقر بها تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية ـ التى كانت تحت أبى بكر بن عمر ـ فكانت عنوان سعـده ، والقائمة بملكه ، والمدبرة لامره ، والفاتحة عليه بحسن سياستها لاكثر بلاد المغرب ، ومـن ذلك اشارتها عليه فى أمر أبى بكر بـن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفا . وهكذا كان أمرها فى كل ما تحاوله رحمها الله .

ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الاثير فى كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال : «كان حسن السيرة خيرا عادلا يميل الى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم فى بلاده ، ويصدر عن رأيهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام ؛ مـن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها ، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لامير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته ـ وكانت من أحسن النساء ولها الحكم فى بلاده ـ فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمنى المال ألف دينـار ، واستعمل الآخر وقال للذى تمنى زوجته : «ياجاهل ! ما حملك عـلى هذا الذى لا تصل

اليه !؟» ثم أرسله الى زوجته فتركته فى خيمة ثلاثة أيام ، ثم أمرت بأن يحمل اليه فى كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت له : «ما أكلت فى هذه الثلاثة الايام ؟» قال : «طعاما واحدا» فقالت له : «كل النساء شيء واحد !» وأمرت له بمال وكسوة وسرحته الى حال سبيله وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة

بناء مدينة مراكش

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدا ورسخت قدمه فى الملك وعظم صيته فسمت همته الى بناء مدينة يأوى اليها بحشمه وجنده ، وتكون حصنا له ولارباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة . وقال صاحب المعرب : «كان ملكا لعجوز منهم» ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبنى مسجدا لصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سورا ». وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب النبراس : «ان موضع مدينة مراكش كان مزرعة لاهل نفيس فاشتراه يوسف منهم بماله الذى خرج به من الصحراء ». وفى كتاب المعرب : «ان يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ـ ومعناه بلغة المصامدة أمش مسرعا ـ وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الالف كاف مكسورة ثم شين معجمة (١) ويقال

١) كذا ضبطها صاحب كشف الظنون الامام القسطنطيني رحمه الله .

كان فى موضعها قرية صغيرة فى غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختطها يوسف، وبنى بها القصور والمساكن الانيقة . وهى فى مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها ، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذى يعدل مزاجها وحرها . »

وقال ابن خلدون : «اتخذ يوسف بن تشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة القيمة بمواطنهم منها فى جبل درن ، اذ لم يكن فى قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعا » وفى القرطاس : « لما شرع يوسف بن تاشفين فى بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه لله تعالى » قال : « والذى بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفا من جامع الكتبيين منها ، ويعرف اليوم بالسجينة . ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آبارا فظهر لهم الماء على قرب فستوطنوها وبنوا بها » قالوا : ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها الى أن توفى يوسف بن تاشفين رحمه الله وولى بعده ابنه على بن يوسف ومضى معظم دولته ، فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة يقال كان ذلك باشارة القاضى أبى الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور . فانه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عندما نبغ محمد بن تومرت مهدى الموحدين بجبال المصامدة .

وكانت مدة البناء ثمانية أشهر ، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار ، وبنى على بن يوسف أيضا الجامع الاعظم المنسوب اليه اليوم والمنار الذى عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى .

ورأيت فى كتاب ابن عبد العظيم الازمورى الموضوع فى مناقب بنى أمغار رضى الله عنهم أن أمير المسلمين على بن يوسف اللمتونى لما عزم على ادارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير فى ذلك فمنهم من ثبطه ، ومنهم من ندبه اليه ، وكان من جملة من ندبه القاضى أبو الوليد

ابن رشد . ثم شاور أبا عبد الله محمد بن اسحق المعروف بأمغار - صاحب عين الفطر - فأشار ببنائه وبعث اه من ماله الحلال وأمره أن يجعله فـــي صندوق صائر البناء ويتولى الانفاق فى ذلـك رجل فاضـل فقبل السلطـــان اشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء .

ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل فى تشييدها وبالغ فى تنميق مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه فى محله ان شاء الله

ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائـر أيامهـــم .

ثم لما جاءت دولة بنى مرين من بعدهم اتخذوا كرسى مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء .

ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسى الى مراكش وبنو بها قصر البديع المشهور .

ثـم جـاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى اسمعيل بن الشريف كرسى ملكه بمكناسة «الزيتون» واحتفل فى بنائها احتفالا عظيماً على ما نذكره ان شاء الله .

ثم لما كانت دولة المولى محمد بـــن عبد الله رد كرسى الملـك الى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسيا لمملكتهم الى الآن .

وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما مـــا اشتملت عليه مـن مزارات الاولياء ومدافن الصلحاء الكبار والائمة الاخيار ، حتى قال الوزير ابن الخطيب فى مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش :« هى تربة الولى وحضرة الملك الاولى» وعبر عنها أبو العباس المقرى فى نفح الطيب (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان ، وطوارق الحدثان .

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الاجناد ، واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ الطبول والبنود ؛ ورتب العمال وكتب العهود ، وجعل فى جيشه الاغزاز (١) والرماة كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش فى تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والاغزاز والرماة ، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدراتة ومغيلة وبهلوله ومديونة وغيرهم فى خلق عظيم ، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه ، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها ، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف .

ثم رحل الى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة . وقال ابن خلدون : « ان يوسف بن تاشفين نازل أولا قلعة فازاز وبها مهدى بن تولى اليحفشى ـ وبنو يحفش بطن من زناتة ـ وكان أبوه تولى صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدى بن يوسف الكزنائى صاحب مكناسة لانه كان عدو المعنصر المغراوى صاحب فاس فزحف فى عساكر المرابطين الى فاس وجمع اليه معنصر ففض جموعه » اه والله أعلم

ثم أقام يوسف على فاس أياما فظفر بعاملها بكار بن ابراهيم فقتله وارتحل عنها الى مدينة صفرو . فدخلها من يومه عنوة ، وقتل ملوكها أولاد

١) الاغزاز جمع غز جنس من الترك كما فى القاموس ، وهم هنا قسم من جيش المرتزقة وقد عدهم صاحب صبح الاعشى من جملة طوائف الاجناد انظر صحيفة ٤٨٢ منه فى الجزء الثالث المطبوع بالمطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ .

مسعود بن وانودين المغراوى صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها .

ثم رجع يوسف الى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الاول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فأقام بها أياما واستعمل عليها عاملا من لتونة وخرج الى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذ الحاجب سكوت البرغواطى من موالى بنى حمود .

ثم رجع الى منازلة قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوى الى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذى كان بها .

وكان مهدى بن يوسف الكزنائى – صاحب بلاد مكناسة – قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل فى طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب ، فجمع مهدى بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر القلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوى صاحب فاس فعاجله فى أنجاد مغراوة وقبائل زناتة وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله ، وبعث برأسه الى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة .

ولما قتل مهدى بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة الى ابن تاشفين بالخبر وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم .

ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغارات والنهب ، واشتد عليه الحصار وعدمت الاقوات بفاس ، فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة وبنى يفرن وخرج اليهم لاحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة ، فقتل تميم وجماعة من عشيرته ، وتقدم مكانه بفاس القاسم ابن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبى العافية المكناسى ، فجمع قبائل زناتة وخرج بهم الى المرابطين فالتقى معهم على وادى صيفير ، فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم

واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها

وخلف جيشا من المرابطين لحصارها فأقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحا سنة خمس وستين وأربعمائة .

ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار الى بني مراسن – وأميرهم يومئذ يعلى بن يوسف – فغزاهم وقتل منهم خلق وفتح بلادهم . ثم سار الى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات . ثم سار منها الى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف الى طنجة

وفي سنة اثنتين وستين أقبل الى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة ، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الاندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف ! وفر من بقي منهم الى أحواز تلمسان . وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفي هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه في أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبي زرع « وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الاسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الاندلس وصيرهما مصرا واحدا وحصنها وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والارحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها الى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم خرج الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاط .

وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه وكساهم ووصلهم بالاموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد

أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها - وهم في صحبته - فصلح على يده الكثير من أمور النـاس .

وفي سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة مـن بـلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان .

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة فتح يوسف جبال غياثة وبني مكـود وبني رهينة وقتل منهم خلقا كثيرا . وفيها فرق عماله عـلى بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاثة وفازاز ، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها ، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة ، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش واغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا ، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره .

فتح سبتة (١) وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالاندلس

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الادريسيين من لدن دولـة الامويين . ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتـة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة ولم يزل أمر المدينتـين الى نظـر هؤلاء النواب واحدا بعـد واحـد الى أن استقـل بهما الحـاجب سكـوت البرغـواطي .

وكان عبدا لشيخ حداد من موالي الحموديين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم ، ثم صار الى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعيه الى أن استقل بالامر واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبتة ، وأطاعته قبائـل

١) لم يذكر المؤلف داخل هذه الترجمة فتح سبتة وساقه في الترجمة الموالية لها .

غمارة ، واتصلت أيام ولايته الى أن كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب، ونازل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكّوت الى مظاهرته عليهم ، فهم بالاجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأى .

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه الى الحاجب سكوت .

وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية قد كتب الى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله : «لا يمكنني ذلك الا اذا ملكت طنجة وسبتة !» فراجعه ابن عباد يشير عليه بأن يسير هو اليها بعساكره فى البر فينازلها ويبعث ابن عباد قطائعه فى البحر فينازلوها أيضا حتى يتملكها . فأخذ يوسف فى محاولة ذلك وصرف عزمه اليه ، ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز اليها قائده صالح بن عمران فى اثنى عشر الف فارس من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز اليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال : « والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتونى وأنا حى أبدا ! » فالتقى الجمعان بوادى منى من أحواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون الى طنجة فدخلوها واستولوا عليها .

ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح الى يوسف .

وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلى بن تيلكان اللمتونى لغزو تلمسان والمغرب الاوسط فسار اليها فى عشرين ألفا من المرابطين . وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختى (١) من

---

١) الذى فى النسخة الصحيحة من ابن خلدون المطبوعة بالجزائر سنة ١٨٤٧ ميلادية فى صحيفة ٢٤٢ من الجزء الاول أنه يحيى بالياء والحاء المهملة .

ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوى فدخلوا المغرب الاوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى بن الامير العباس ابن بختى فقتلوه وانكفأوا راجعين الى يوسف بن تاشفين فالفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاثة وسبعين فيها غير يوسف بن تاشفين السكةفى جميع عمله وكتب عليهااسمه.

وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين الى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بنى يزناسن وما والاها . ثم سار الى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختى المغراوى ، وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسوفى فى عساكر المرابطين فصارت ثغرا لمملكته ، واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته - وهو اسم المحلة بلسان البربر - ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف الى الجزائر وانكفأ راجعا الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الاندلس وما آل اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة فأجابه يوسف بقوله : « اذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدى فى جهاد العدو ! » وكان الفنش قد تحرك فى هذه السنة فى جيوش لا تحصى من الافرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الاندلس يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ثم يرتحل الى غيرها ونزل على اشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب وكذلك فعل فى شدونة وأحوازها ، وخرب بشرق الاندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال : « هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته ! » ثم رجع الى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لايرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها ، وأراد

أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل اليه أميرها المستعين بن هود مالا عظيما فلم يقبله منه وقال « المال والبلاد لى ! » وبعث الى كل قاعدة من قواعد الاندلس جيشا لحصارها والتضيق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذى النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فكان ذلك من أقوى الاسباب المحركة لعزائم المسلمين بالاندلس والمغرب على الجهاد .

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الاندلس

لما انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد ، وقتال منهم عريض مديد ، وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الاندلس مملكتها ، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال الى ما قال ابن الخطيب :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعا والاثر
قام بكل بقعة مليك !   وصاح فوق كل غصن ديك !

فوجد العدو السبيل الى الاستيلاء على ثغور المسلمين ، وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها واغراء بعضهم بعض ، وكان منهم ابن عباد باشبيلية ، وابن الافطس ببطليوس ؛ وابن ذى النون بطليطلة ؛ وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامرى بدانية ؛ وغير هؤلاء. وكلهم يدارى الطاغية ويتقيه بالجزية الى أن كان من أمر الاذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين ، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره اياها سبع سنين ، ثم حصاره سرقسطة .

فلما رأى رؤساء الاندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين ، واستطالته على ثغور المسلمين ، أجمع رأيهم على اجازة يوسف بن تاشفين فكاتبه أهل الاندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه فى تنفيس العدو عن مختنقهم ، ويكونوا معه يدا واحدة عليه .

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف فى عساكر المرابطين الى سبتة فرضة المجاز فنازلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا فاقتحموها عنوة فى ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطى وجيء به الى المعز أسيرا فقتله صبرا ، وبعث بكتاب الفتح الى أبيه وهو بفاس ينظر فى أمر الجهاد ويستعد له ، ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصدا نحوها ليعبر منها الى الاندلس .

ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر الى المغرب لاستنفار يوسف الى الجهاد ، فلقيه مقبلا ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة ، وقال ابن خلدون : « لقيه بفاس ، فأخبره بحال الاندلس وما هى عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب ، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والاسر والحصار كل يوم » . فقال له يوسف : «ارجع الى بلادك وخذ فى أمرك فانى على اثرك » فرجع ابن عباد الى الاندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ، ودخل يوسف سبتة فنظر فى أمرها وأصلح سفنها ، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب ، فشرع فى اجازتها الى الاندلس .

ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو فى اثرها فى موكب عظيم من قواد المرابطين وانجادهم وصلحائهم ، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال : « اللهم ان كنت تعلم أن فى جوازنا هذا صلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره » فسهل الله عليهم العبور فى أسرع وقت . وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال ، منتصف ربيع الاول سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية وابن الافطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الاندلس .

واتصل الخبر بالادفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد

نحو أمير المسلمين ، وبعث الى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبـار النصرانية ، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين لـه من أمـم النصرانية ، فاجتمع لـه منهم مـا يفوت الحصر وصمد الى ابـن تاشفـين والمسلمين . هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبى زرع وغيرهـما .

وساقها ابن الاثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميرى مساقا غـير هذا . ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول : لما ملك يوسف بن تاشفـين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديـدة ، وأطاعتـه البربر مـع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الاقطار العريضة المديـدة ، تاقت نفسه الى العبـور لجزيرة الاندلس فهم بذلك وأخذ فى انشاء السفن والمراكب ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الاندلس كرهوا المامه بجزيرتهم ، وأعدوا لـه العـدة والعدد الا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته ، وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج عن شمالهم ، والملثمين عن جنوبهم . وكانت الفرنـج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شىء معلوم كل سنة ياخذونه من المسلمين ، والفرنج مع ذلـك ترهب جانب ملـك المغرب يوسف بن تاشفين اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفـاذ أمـره ونقله دولة زناتة وملك المغرب اليه فى أسرع وقت ، مع مـا ظهر لابطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى تقد الفارس ، والطعنات التى تنظم الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتـالهـم .

وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظل يوسف ويحذرونه خوفا عـلى ملكهم مهما عبر اليهم وعاين بلادهم ، فلما رأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره ، وكان فزعهم فى ذلك الى المعتمد ابن عباد لانه أشجع القوم وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبته — وقد تحققوا انه يقصدهم — يسألونه الاعراض عنهم وأنهم تحت طاعته ،

فكتب عنهم كاتب من أهل الاندلس يقول :

«أما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ولم تنسب الى عجز ، وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهن ، وقد اخترنا لانفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ! فانك بالمحل الذى لا يجوز أن نسبق فيه الى مكرمة ! وان فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ! والسلام . » فوصله الكتاب مع تحف وهدايا ـ وكان يوسف لا يعرف اللسان العربى لكنه كان ذكى الطبع يجيد فهم المقاصد ـ وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له : « أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم فى منزلة الاعادى فانهم مسلمون ! وهم من ذوى البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من ورائهم من الاعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فاعرض عنهم اعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » فقال يوسف ابن تاشفين لكاتبه : « فما ترى أنت ؟ » فقال : «أيها الملك أعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذى لا يرد بأنه خليق بما حصل فى يده من الملك أن يعفوا اذا استعفى وأن يهب اذا استوهب وكلما وهب جزيلا كان أعظم لقدره ! فاذا عظم قدره تأصل ملكه واذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ! واذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة اليهم ! وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته ! واعلم أن بعض الملوك الاكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال : « من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ، ! » فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : « أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقرأ على كتابك » فكتب الكاتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . تحية من سالمكم وسلم اليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم ، وانكم مما بأيديكم من الملك فى أوسع اباحة ، مخصوصون منا بأكرم ايثار وسماحة ! فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح

اخائكم !والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام . » فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط مما لا يكون الا فى بلاده ، وأنفذ ذلك اليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظموه واعتزوا بولايته ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج ، وأزمعوا ان رأوا من الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا اليه يوسف بن تاشفين ، ويكونوا من أعوانه عليه ، فتأتى ليوسف بن تاشفين برأى وزيره ما أراد من محبة أهل الاندلس له وكفاه حربهم .

وقال ابن الاثير فى الكامل : « كان المعتمد ابن عباد أعظم ملوك الاندلس ومتملكا لاكبر بلادها مثل قرطبة واشبيلية ، وكان مع ذلك يؤدى الضريبة الى الادفونش كل سنة فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد الضريبة على عادته ، فردها عليه ولم يقبلها منه ، ثم أرسل اليه يتهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة وتملكها من يده الا أن يسلم اليه جميع الحصون التى فى الجبل ويبقى السهل للمسلمين . وكان الرسول فى جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر القواد أن يقتل كل منهم من عنده ، وأحضر الرسول فصفعه حتى برزت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا الى الاذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها الى قرطبة ليحاصرها ، فلما بلغه هذا الخبر رجع الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويستعد استعدادا غير الذى سبق . وعاد المعتمد الى اشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها .

وقال ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار ما ملخصه :
« ان المعتمد بن عباد أخر فى سنة من السنين الضريبة التى كان يدفعها للاذفونش عن وقتها ، ثم أرسلها اليه بعد ، فغضب الاذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن فى التجنى ، حتى طلب أن تأتى زوجته الى الجامع الاعظم بقرطبة فتلد فيه اذ كانت حاملا ، وكان بالجانب الغربى من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه الاطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها بمدينة

الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع فى تشييدها وتنجيدها ؛ وتتردد المرأة مع ذلك الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول فى ذلك يهوديا وكان وزيرا للاذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودى وأغلظ له فى القول ولسعه بكلمة آسفته ! فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى فأنزل دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة !

ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودى ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة فى ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل اذ ليس له ذلك ! وقال للفقهاء : « انما بادرت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل فى عزيمته للمسلمين خيرا . »

وبلغ الاذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بآلهته ليغزونه باشبيلية وليحاصرنه فى قصره ، ثم زحف فى عسكرين أحدهما عليه والاخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الاعظم باشبيلية قبالة قصر ابن عباد. وفى ايام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زاريا عليه : «كثر بطول مقامى فى مجلسى هذا على الذباب ، واشتد الحر فأتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى ! » فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة : « قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك فى مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك ان شاء الله ! » فلما وصلت رسالة ابن عباد الاذفونش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال ، وفشا فى الاندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على اجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك ، وانفتحت لهم أبواب الآمال .

وأما ملوك طوائف الاندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه فى ذلك اهتموا منه ، فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه ، وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له : « الملك عقيم ! والسيفان لا يجتمعان فى غمد ! »

فأجابهم ابن عباد بكلمته التى صارت مثلا : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير ! » ومعناه ان كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله فى الصحراء خير من كونه ممزقا للاذفونش أسيرا له يرعى خنازيره وقال لمن لامه : « ياقوم انى من أمرى على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولابد لى من احداهما ، أما حالة الشك فانى ان استندت الى ابن تاشفين ، أو الى الاذفونش ، ففى الممكن أن يفى لى ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك . وأما حالة اليقين فانى ان استندت الى ابن تاشفين فانى أرضى الله ! وان استندت الى الاذفونش اسخطت الله ! فاذا كانت حالة الشك فيهما عارضة ، فلاى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه !؟ » فحينئذ أقصر أصحابه عن لومه .

ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكل على الله عمر ابن الافطس وصاحب غرناطة عبد الله بن جبوس الصنهاجى ، أن يبعث اليه كل منهما قاضى حضرته ففعلا ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن ادهم — وكان أعقل أهل زمانه . فلما اجتمع عندابن عباد القضاة باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد ، وأسند الى الوزير مالابد منه من ابرام العقود السلطانية .

وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفودثغور الاندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والاسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيسمع اليهم ويصغى لقولهم وترق نفسه لهم .

ولما انتهت الرسل الى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم ، وجرت بينه وبينهم مراوضات ، ثم انصرفوا الى مرسلهم .

ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج اليه أهلها بما عندهم من الاقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقا جلبوا اليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة فى دخول البلد والتصرف فيها ،

فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوعة وتواصوا بهم خيرا » هذا مساق صاحب الروض المعطــار .

وقال ابن الاثير : «لما رجع المعتمد بن عبــاد الى اشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عبــاد لليهودى ، ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج عــلى بعض اجتمعوا وقالوا : «هذه بلاد الاندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها الا القليل ، وان استمرت الاحوال على ما نرى عــادت نصرانية كمــا كانت» وساروا الى القاضى أبى بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : « الا تنظر الى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها ! وقد رأينا رأيا نعرضه عليك » قال : «ما هو ؟» قالــوا : «نكتب الى عرب افريقية ونشترط لهم اذا وصلوا الينا قاسمناهم أمــوالنا وخرجنا معهم مجاهدين فى سبيل الله !» قال : «أخاف اذا وصلوا الينــا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ! ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا ! والمرابطون أصلح منهم وأقرب الينا !» قالوا له : «فكاتب يوسف بن تاشفــين وارغب اليــه فى العبور الينا أو يرسل بعض قواده .»

وبينما هم يتفاوضون اذ قدم عليهم ابن عباد ـ وهم فى ذلك ـ فعرض عليه القاضى ابن أدهم ما كانوا فيه . فقال له ابن عباد: «أنت رسولى اليه فى ذلك !» فامتنع القاضى ـ وانما أراد أن يبرىء نفسه من تهمة تلحقه ـ فألح عليه المعتمد ، فعبر القاضى البحر الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الادفونش ـ وكــان أمير المسلمين يومئذ بمدينة سبتة ـ ففى الحال أمــر بعبور العساكــر الى الاندلس ، وأرسل الى مراكش فى طلب من بقى مــن عساكره ، فأقبلت اليه يتلوا بعضها بعضا ، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار ؛ فاجتمع بالمعتمد ابن عباد باشبيلية .

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا ، وخرج من أهــل قرطبة عسكر كبير ، وقصده المطوعة مــن سائر بلاد الاندلس ، ووصلت الاخبــار الى

الاذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده ، وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له فى القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ فى ذلك . فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتبا مفلقا ـ فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: «هذا كتاب طويل» وأحضر كتاب الاذفونش وكتب على ظهره (الذى يكون ستراه!) وأرسله اليه فلما وقف عليه الاذفونش ارتاع له وعلم أنه بلى برجل له دهاء وعزم»

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم رأتها قط ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ورغائها ، وكان ليوسف فى عبورها رأى مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمح منها »

وقدم يوسف بن تاشفين بين يديه كتابا للاذفونش يعرض عليه فيه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب كما هى السنة ؛ ومن جملة ما فى الكتاب : «بلغنا ياأذفونش أنك دعوت الله فى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر الينا ، فقد عبرناه اليك: وقد جمع الله تعالى فى هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ! وما دعاء الكافرين الا فى ضلال !» فلما سمع الاذفونش ما كتب اليه يوسف جاش بحر غيظه ، وزاد فى طغيانه ، وأقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه .

ولنرجع الى كلام صاحب الروض المعطار قال رحمه الله : «فلما عبر يوسف وجميع جيوشه البحر الى الخضراء نهض الى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبيلا بعد قبيل . وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الاقوات والضافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مع أمرائها على أشبيلية.

وخرج المعتمد الى لقاء يوسف ، باشبيلية فى مائة فارس من وجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز اليه

يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا الى الله فى أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقربا اليه . وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد الى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين .

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر أو أعان ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا

وكان الاذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح ! فاستنفر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والافرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الاذفونش الى ابن عباد : «ان صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقى ولا أكلفكم تعبا : أمضى اليكم وألقاكم فى بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم !» وقال لخاصته وأهل مشورته :« انى رأيت أنى ان امكنتهم من الدخول الى بلادى فناجزونى فيها وبين جدرها ـ وربما كانت الدائرة على ـ يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة ! ولكنى أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم فان كانت على اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى وجبر لمكاسرى ! وان كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أن يكون فى وفى بلادى اذا ناجزونى فى وسطها !»

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر الى ما اختاره منهم : «بهؤلاء أقاتل الجن

والانس وملائكة السماء !» فالمقلل يقول : «المختارون أربعون الـف دارع ولكل واحد أتباع !» وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلـك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله

واتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل مـن عدد الكفـار ! ورأى الاذفونش فى نومه كأنه راكب فيلا وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه ، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها ، فأحضر رجلا مسلما عـالما بتفسير الرؤيا فقصها عليه ، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه . فقال : «تأويـل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى : «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟» الى آخر السورة ، وقوله تعالى : «فاذا نقـر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير.» وذلك يقتضى هلاك هذا الجيش الذى تجمعه !» فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه فاحضر ذلك المعبر وقال له : «بهذا الجيش ألقـى اله محمد صاحب كتابكـم ! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين : «هذا الملك هالك وكل مـن معـه !» وذكر الحديث : ثلاث مهلكات وفيه واعجاب المرء بنفسه !»

ثم خرج الاذفونش الى بلاد الاندلس وتقدم السلطان يوسف نحـوه أيضا وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفوا أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الاندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد متفائلا ببيت سائر ، مجيزا له بأبيات من شعره :

لا بد مـن فـرج قـريـب * يأتيـك بالعجب العجيب
غـزو عليـك مبارك * سيعـود بالفتـح القريب
لله سعـدك انـه * نكس على ديـن الصليب
لا بد مـن يوم يكـو ن له أخا يـوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخـوا بظاهرها ، وخرج اليهـم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الافطس ، فلقيهم بما يجب مـن الضافات والاقوات وبذل المجهود . ثم جاءهم الخبر بشخوص الاذفونش اليهم .

وقال ابن أبى زرع : «ارتحل يوسف بن تاشفين مـن الخضراء قاصدا

نحو الاذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة ـ وكان بطلا من الابطال ـ فى عشرة آلاف فارس من المرابطين ، بعد أن قدم أمامه المعتمد بن عباد مع أمراء الاندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية ، وابن حبوس صاحب غرناطة ، وابن مسلمة صاحب الثغر الاعلى ، وابن ذى النون ، وابن الافطس وغيرهم ، فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الاندلس واحدة . ومحلة المرابطين أخرى ، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا اذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته ، فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة ، فأقاموا بها ثلاثا وكتب منها يوسف الى الاذفونش يدعوه الى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، وكان جواب الاذفونش ما تقدم ، ثم ارتحل يوسف وارتحل الاذفونش حتى نزلا معا بالقرب من بطليوس، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة(١) وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة ، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزا يشرب منه هؤلاء وهؤلاء ، فأقاموا ثلاثة أيام ، والرسل تختلف بينهم الى أن وقع اللقاء على ما نذكره .

ولما ازدلف بعضهم الى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكايد الاذفونش ـ اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ـ وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل ان الرجل من الصحراويين كان لا يخرج الى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة الا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، ثم قامت الاساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت .

ووعظ يوسف وابن عباد اصحابهما وقام الفقهاء والصالحون فى الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار .

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ـ وهو يوم الاربعاء ـ فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الاذفونش ورجع

---

١) ويسميه المسيحيون ساكر الياس هكذا : « Sacralias »

الى أعمال المكر والخديعة . فعاد الناس الى محلاتهم وباتوا ليلتهم . ثم أصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول : «غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت !» فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة وانما قصده القتال بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار . ويقال ان الاذفونش واعدهم ليوم الاثنين وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد

وبعد مضى جزء من الليل انتبه لالفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبى ، ـ وكان فى محلة ابن عباد ـ فرحا مسرورا يقول : «انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة فى صبيحة تلك الليلة » فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب . وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر العدو الكافر ، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا اعلى محلة الاذفونش ، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الاذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : «استرقنا السمع فسمعنا الاذفونش يقول لاصحابه : «ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر فى الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد . وانما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له ، فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده . ولا أراه يصبر لكم ان صدقتموه الحملة » فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة الى السلطان يوسف يعرفه باقبال الاذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الامر فقال له : «قل له : انى سائر اليك ان شاء الله » وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا ما دام الاذفونش مشتغلا مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد فلم يصله الا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله . ومال الاذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس . واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبرا لم يعهد مثله ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم — وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد — وأثخن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وتذكر في تلك الحالة ابنا له صغيرا يكنى : أبا هاشم . — وكان قد تركه باشبيلية عليلا — فقال :

أبا هاشم هشمتني الشفار * فلله صبري لذلك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج * فلم يثنني ذكره الفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة — وكان بطلا شهما ، فنفس بمجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك — وطبوله قد ملات أصواتها الجو — فلما أبصره الاذفونش وجه حملته اليه وقصده بمعظم جنوده فبادر اليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم الى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر . ثم صدقوا جميعا الحملة فزلزلت الارض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبرا عظيما .

ثم تراجع ابن عباد الى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هاربا منهزما وقد طعن في احدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره . قالوا : وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت

وعلى سياق ابن خلكان : «ان ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الاربعاء . وكـــان الموعد بالمناجزة يوم السبت فغدر الاذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد - والروم فى أثرها والناس على طمأنينة - فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر فـى العساكر ، فماجت بأهلهـــا ، ورجفت الارض ، وصارت الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو ، فغمرت ابـــن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الارض حصيدا خلفها . وصرع ابـــن عباد وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الاندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنه وهى لا يرقع ، ونازلة لا تدفع » وظن الاذفونش أن أمـــير المسلمين فـــى المنهزمين ، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فتقدم أمير المسلمين وأحدقت بـــه أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الاذفونش فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقـــات الارض وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم الى محلتهم بعـــد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فقصدوه فأفرج لهم عنها ثم كـــر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها . ولم تزل الكرات بينهـــم تتوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان ، فترجل منهم زهاء أربعـــة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ، ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الاذفونش بأســـود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الاسود وقبض على عنانه ! وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فأثبته فى فخذه . فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه . وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصـــف رجب سنـــة تسع وسبعين وأربعمائة . وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته عـــلى المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الاذفونش وأصحابه فأخرجوهم عـــن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أقفاءهـــم - والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم - الى أن لحقوا بربوة لجئوا اليها واعتصموا بهـــا وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الاذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا مـــن بعد ما

تنشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان فـي محلتهم من الاثاث والآنية والمضارب والاسلحة وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم »

وقال صاحب الروض المعطار : لجأ الاذفونش الى تل كان يلى محلته فى نحو خمسمائة فارس ما منهم الا مكلوم . وأباد القتل والاسر من عداهم من أصحابه ، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر الى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وبأصحابه .

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنـى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عـن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له : «هاهم هؤلاء قد حضروا بـين يديـك فاليخبروك ! »

وكتب ابن عباد الى ابنه باشبيلية كتابا مضمونه : «كتابى هذا اليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب ، وقد أعـز الله الديـن ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين ، وأذاقهـم العذاب الاليم ، والخطب الجسيم فالحمد لله على مـا يسره وسناه مـن هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة فى تشتيت شمل الاذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم » بعـد اتيـان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطالـه وحماته ، حتـى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد على جميل صنعه ولم يصبنى والحمد لله الا جراحات يسيرة آلمت ، لكنها فرحت بعد ذلـك فلله الحمد والمنة والسلام »

واستشهد فى ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضى مراكش أبى مروان عبد الملـك المصمودى وغيرهما رحم الله الجميع

وحكى أن موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم الا علـى ميت أو دم . وأقامت العساكر بالموضـع أربعة أيـام حتى جمعت الغنائـم

واستؤذن فى ذلك السلطان يوسف فعف عنها وآثـر بها ملـوك الاندلس ، وعرفهم أن مقصوده الجهاد والاجر العظيـم ، وما عنـد الله فى ذلك مـن الثواب المقيم . فلما رأت ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطـع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثـال الجبـال ، فبعث منها الى اشبيليـة عشرة آلاف رأس ، والى قرطبة مثل ذلك ، والى بلنسية مثلـها ، والى سرقسطـة ومرسية مثلها وبعث الى بلاد العدوة أربعين ألف رأس ، فقسمت على مـدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم»

قال ابن أبى زرع : « وفى هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفـين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك ، وأظهر الله تعالى الاسلام وأعز أهله وكتب أمير المسلمين بالفتح الى بلاد العدوة والى تميم بن المعـز الصنهاجي صاحب أفريقيـة ، فعمت المفـرحات فى جميـع بلاد أفريقيـة والمغـرب والاندلس ، واجتمعت كلمة الاسلام واخرج الناس الصدقات ، وأعتقـوا الرقاب شكرا لله تعالى .

ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولـم يسمع الا نواح الثكالى عليهم اغتم ولـم يأكل ولـم يشرب حتى هلـك أسفا وغما ، وراح الى أمه الهاوية ، ولم يخلف الا بنتا واحدة جعل الامر اليها فتحصنت بطليطلـة .

ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بـن تاشفين فأقـام يوسف بظاهر اشبيلية ثلاثة أيام ، وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبى بكر بن يوسف ـ وكان قد تركه مريضا بسبتة ـ فاغتم لذلـك وانصرف راجعا الى العدوة ، وذهب معه ابن عباد يوما وليلة ، فعزم عليه يوسف فى الرجـوع الى منزله ، وكانت جراحاته قد تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله الى أن وصل البحر وعبر الى المغرب .

وكان أمير المسلمين عند مجيئـه الى بلاد الاندلس وقصـده ملاقـاة الاذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتـى

نزل الزلاقة تجاه الاذفونش وهناك اجتمع بعساكر الاندلس . قاله ابن خلكان .

ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضى عنه .

ولما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس وهنىء بالفتح ، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : « حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ قارىء : « الا تنصروه فقد نصره الله » فقلت : « بعدا لى ولشعرى ! والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به » . اه

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين فى حال أمير المسلمين فى الجهاد ، فقيل انه لم يرجع الى بلاد الاندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيهاورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو . وقيل انه عاد اليها ثانيا وثالثا وعلى هذا القول فاختلفوا فى زمان ذلك العود وتاريخه . والله تعالى أعلم .

بقية اخبار امير المسلمين فى الجهاد

وما اتفق له مع ملوك الاندلس وكبيرهم ابن عباد

اعلم أن أقوال المؤرخين اختلفت فى أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض الى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبى بكر اللمتونى بأرض الاندلس وخلف معه جيشا برسم غزو الفرنج ، فاستراح سير بن أبى بكر أياما قلائل ثم دخل بلاد الاذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل فى بلاد العدو وحصل على أموال

جليلة وذخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا فى جميع ما استولى عليه . وأرسل الى السلطان يوسف بجميع ما حصله وكتب اليه يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وانكده وملوك الاندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب اليه « أن يأمرهم بالنقلة والرحيل الى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور منهم ، ولا تتعرض لابن عباد الا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميرا من عسكرك » فامتثل سير بن أبى بكر أمره واستنزلهم واحدا بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه فى سلكهم على ما نذكره .

وقال ابن أبى زرع : « لما كانت سنة احدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثانى برسم الجهاد . قال : وسبب جوازه أن الاذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد الى حصن لييط الموالى لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون فى أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الاندلس ، اذ كان السبب فى جواز أمير المسلمين الى الاندلس فكانوا ينزلون من الحصن فى الخيل والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم فى كل يوم . فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعا . ثم عبر البحر الى العدوة مستنفرا لامير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادى سبو - وهذه المعمورة هى المسماة اليوم بالمهدية ، من أحواز سلا - فشكا اليه حصن لييط وما يلقاه المسلمون من أهله ، فوعده الجواز اليه ، فرجع المعتمد .

وسار يوسف فى أثره ، فركب البحر من قصر المجاز الى الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها الى أمراء الاندلس يدعوهم الى الجهاد ، وقال لهم :

« الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط » ، ثم تحرك يوسف من الخضراء ، وذلك في ربيع الاول من السنة المذكورة ، فنزل على حصن لبيط - وفي القاموس لبطيط كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الاندلسية ، ولعله هو هذا - فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب اليه من أمراء الاندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية ، وابن عباد صاحب اشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا فى القتال والتضييق عليه .

وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوما واحدا الى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن ، فشكا المعتمد الى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه الى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء .

ولما علم الاذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد الى حماية الحصن فى أمم لا تحصى ، فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه الى ناحية لورقة ، ثم الى المرية ثم جاز الى العدوة وقد تغير على أمراء الاندلس لكونه لم يأته منهم أحد عندما دعاهم الى الجهاد ومنازلة الحصن .

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور ، أقبل الاذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته ، وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية ، وعاد الى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصبابة المنفلتة .

وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية ، فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند اخلائه .

ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثالث برسم الجهاد ؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر

بها الاذفونش وشن الغارات بأطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها وخرب عمرانها وقتل وسبى ولم يأته من ملوك الاندلس أحد ، ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك !

ولما قفل من غزو طليطلة عمد الى غرناطة فنازلها . وكان صاحبها عبد الله بن بلكين ابن باديس بن حبوس قد صالح الاذفونش وظاهره على أمير المسلمين ، وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده . وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى ، فسوف يدرى اذا أتت قدرة القدير

ولما انتهى أمير المسلمين الى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين . ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الامان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها ، وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة الى مراكش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الانفاق الى أن ماتا بها .

ولما خلع أمير المسلمين بنى باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف اليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقبض عنه . ويقال : أن ابن عباد طمع فى غرناطة وان أمير المسلمين يعطيه اياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ، ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسلمين وعبر الى العدوة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة .

ولما انتهى الى مراكش ولى على الاندلس قائده سير بن أبى بكر اللمتونى وفوض اليه جميع أمورها كلها ولم يأمره فى ابن عباد بشىء فسار سير بن أبى بكر نحو اشبيلية ، وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به يخرج اليه ويتلقاه على بعد ويحمل اليه الضيافات على العادة فلم يفعل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه ! فراسله سير ابن أبى بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل

فى طاعة أمير المسلمين ، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله . وبعث بعض قواده الى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد ابن عباد ، فنازلها فى عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الاربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة ، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة واشبيلية . ثم ارتحل سير ابن أبى بكر الى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة . فاشتد الامر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث الى الاذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده باعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد ان هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار ! فبعث اليه الاذفونش قائده القومس فى جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل .

فلما علم سير بقدوم الفرنج اليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة ، وقدم عليهم ابراهيم بن اسحق اللمتونى وبعثه القاء الفرنج . فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين ، ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم الا القليل .

ثم شد سير ابن أبى بكر فى الحصار والتضييق على اشبيلية حتى افتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته ! فقيدهم وحملهم فى السفين بنهر اشبيلية وبعث بهم الى أمير المسلمين بمراكش . فأمر أمير المسلمين بارسال المعتمد الى مدينة اغمات فسجن بها واستمر فى السجن الى أن مات به لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان دخول سير بن أبى بكر مدينة اشبيلية يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقى من بلاد الاندلس الى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر . وهذه الاخبار نقلناها عن ابن أبى زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لانه موضوع بالقصد الاول لاخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره .

وفى تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر . قال : « أجاز يوسف بن تاشفين البحر الى الاندلس الجواز الثانى سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم ، فوجد عليهم . وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة » وقال أيضا : « ان الفقهاء بالاندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم ، فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال . حتى اذا رجع عن بلادهم رجعوا الى حالهم . فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه الا ابن عباد فانه بادر الى لقائه وأغراه بالكثير منهم ! فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التى بينهما . وبعث جيشا الى المرية ، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض افريقية . وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته . فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من أيديهم ، وسارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما .

فعمد الى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميما عن مالقة ، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية فى عداوة يوسف بن تاشفين ، وبعث بهما الى المغرب . فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه ، وفشت السعايات بينهما . ونهض أمير المسلمين الى سبتة فاستقر بها وعقد للامير سير ابن أبى بكر على الاندلس وأجازه . فانتهى اليها ، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لامير المسلمين والنزول عن الامر ، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله . ثم صمد الى اشبيلية

فحاصره بها واستنجد الطاغية . فعمد الى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئا . وكان دفاع لمتونة مما فت فى عضده . واقتحم المرابطون اشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيرا الى مراكش ، فلم يزل فى اعتقال يوسف بن تاشفين الى أن هلك فى محبسه من اغمات سنة تسعين وأربعمائة .

ثم عمد الى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الافطس فقتله وابنيه يوم الاضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس .

ورثاهم الاديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى قصيدة غريبة فى منوالها وموضوعها ، عدد فيها أهل النكبات ، ومن عثر به الزمان بما يبكى منه الجماد ، وتستشرف لسماعه الانجاد والوهاد .

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث الى الاندلس سنة تسعين وأربعمائة ، وزحف اليه الطاغية . فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتونى ، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين

ثم أجاز الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين ، وانضم اليه محمد بن الحاج وسير بن أبى بكر ، فافتتحوا عامة الاندلس من أيدى ملوك الطوائف ، ولم يبق منها الا سرقسطة فى يد المستعين بن هود معتصما بالنصارى . وأغزى الامير مزدلى صاحب بلنسية الى بلاد برشلونة فأثخن فيها ، وبلغ الى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع .

وانتظمت بلاد الاندلس فى ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن . واستولى أمير المسلمين على العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مرارا والله غالب على أمره .» فهذا

كلام ابن خلدون فى سياقه هذه الاخبار .

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه اما فى كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحى الملك والادب ورقة الحاشية ، وما فى كونه تحامل على ملوك الاندلس حتى فعل بهم ما فعل ، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم .

واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد ، وأصله من بعض أدباء الاندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون فى نعمتهم ، فحين فعل مير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، والا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ، ومن ركوب الجادة وتحرى طريق الحق على الوصف الذى سمعت !

وهذا ابن خلدون امام الفن ومتحرى الصدق ، قد نقل أن ملوك الاندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الاموال فى مظاهرته اياهم على أمير المسلمين ، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الائمة الاعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه . والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه .

بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان : « كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازما ، سائسا للامور ، ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا لاهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم» قال: «وبلغنى أن الامام حجة الاسلام أبا حامد الغزالى رحمه الله لما

سمع ما هو عليه من الاوصاف الحميدة ، وميله الى أهل العلم ، عـــزم الى التوجه اليه ، فوصل الى الاسكندرية وشرع فى تجهيز ما يحتاج اليـه ، فجاء اليه الخبر بوفاته ، فرجع عن ذلك العزم » قال : « وكنت وقفت عـلى هذا الفصل فى بعض الكتب وقد ذهب عنى فى هذا الوقت من أين وجدته »

وكان أمير المسلمين يوسف معتـدل القامـة ، أسمر اللـون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الصوت .

وكـان يخطب لبنى العباس ، وهـو أول من تسمى بأمـير المسلمين . ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه الى أن توفى يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة . وعاش تسعين سنة ، ملـك منها مدة خمسـين سـنة رحمـه اللـه .

وقال ابن خلدون : « تسمى يوسف بـن تاشفـين بأمير المسلمـين ، وخاطب الخليفة لعهده ببغـــداد وهو أبو العباس أحمد المستظهـر باللـه العباسى ـ وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى وولده القاضى أبا بكر بن العربى الامام المشهور ، فتلطفا فى القـول وأحسنا فـى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لامير المسلمين بالمغرب والانـدلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول فى أيدى الناس . وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما الى نظره من الاقطار والاقاليم ، وخاطبـه الامام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه عـلى العدل والتمسك بالخير ، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع الى الاندلس سنة سبـــع وتسعين وأربعمائة » اهـ كلام ابن خلدون .

وانما احتاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفة المستظهر بالله ـ مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكته منه ـ لتكون ولايته مستندة الى الشرع . وهذا من ورعه رحمه الله .

وانما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة ، حتى لا يشاركه فى لقبه ! لان لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة ، والخليفة مـــن

قريش كما فى الحديث فافهم .

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا ما نقله غير واحد من الائمة ، أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والاندلسية المعاونة بشىء من المال على ما هو بصدده من الجهاد ، وانه كاتب الى قاضى المرية أبى عبد الله محمد بن يحيى – عرف بابن البراء – يأمره بفرض معونة المرية ، ويرسل بها اليه ، فامتنع محمد بن يحيى من فرضها ، وكتب اليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك ، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندى والفقهاء قد أباحوا فرضها ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد فرضها فى زمانه . فراجعه القاضى عن ذلك بكتاب يقول فيه : « الحمد لله الذى اليه مآبنا ، وعليه حسابنا . وبعد ، فقد بلغنى ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك ، وان أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها ، فالقضاة والفقهاء الى النار دون زبانية فان كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيره وضجيعه فى قبره ، ولا يشك فى عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بوزيره ولا بضجيعه فى قبره ، ولا ممن لا يشك فى عدله . فان كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته فى العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك . وما اقتضاها عمر رضى الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر من كان معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وحلف ان ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم . فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم ، وليحلف أن ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ، وحينئذ تجب معونته ، والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته . » فلما بلغ كتابه الى أمير المسلمين وعظه الله بقوله ، ولم يعد عليه فى ذلك قولا ، والاعمال بالنيات .

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة

باسمه ، ونقش على الدينار : « لااله الا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » وكتب على الدائرة : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكتب على الصفحة الاخرى : « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته .

وكان ملكه قد انتهى الى مدينة افراغة من قاصية شرق الاندلس ، والى مدينة أشبونة على البحر المحيط من بحر الاندلس ، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا . وفى العرض ما يقرب من ذلك .

وملك بعدوةالمغرب من جزائر بنى مزغنة الى طنجة ، الى آخر السوس الاقصى الى جبال الذهب من بلاد السودان .

ولم ير فى بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج ، لا فى حاضرة ولا فى بادية الا ما أمر الله به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والاعشار ، وجزيات أهل الذمة ، وأخماس الغنائم .

وقد جبى فى ذلك من الاموال على وجهها مالم يجبيه أحد قبله . يقال أنه وجد فى بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق ، وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب .

وكان رحمه الله زاهدا فى زينة الدنيا وزهرتها ، ورعا متقشفا ، لباسه الصوف ، لم يلبس قط غيره . ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها ، مقتصرا على ذلك ، لم ينقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا . وقد رد أحكام البلاد الى القضاة ، وأسقط ما دون الاحكام الشرعية . وكان يسير فى أعماله بنفسه ، فيتفقد أحوال الرعية فى كل سنة . وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفضل . مكرما لهم ، صادرا عن رأيهم ، يجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال . وكان مع ذلك حسن الاخلاق متواضعا ، كثير الحياء جامعا لخصال الخير . رحمه الله تعالى ورضى عنه

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف ابن تاشفين اللمتوني

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى التاريخ المتقدم ، بايع الناس ابنه على بن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه اليه ، وتسمى بأمير المسلمين .

وكان سنه يوم بويع ثلاثا وعشرين سنة . وملك من البلاد مالم يملكه أبوه ، لانه صادف البلاد ساكنة ، والاموال وافرة ، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة ، وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره واهتدى بهديه .

خروج يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه على بن يوسف بثوبه ، وخرج الى المرابطين ـ وبيده فى يد أخيه أبى الطاهر تميم بن يوسف فبايعه . ثم قال للمرابطين : « قوموا فبايعوا أمير المسلمين » . فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة ، وبايعه الفقهاء وأشياخ القبائل ، فتمت له البيعة بمراكش .

ثم كتب الى سائر بلاد المغرب والاندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده ، ويأمرهم بالبيعة ، فأتته البيعة من جميع البلاد ، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة الا أهل مدينة فاس . فان ابن أخيه

يحيى بن أبى بكر بن يوسف كان أميرا عليها من قبل جده يوسف . فلما انتهى اليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه ، فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فزحف اليه على بن يوسف من مراكش ، حتى اذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبى بكر على نفسه، وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه . فأسلم فاسا لعمه . وخرج منها خائفا يترقب . فدخلها على بن يوسف يوم الاربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسمائة . واستقام له الامر .

وقيل ان على بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب الى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلاف ، ويدعوه الى الدخول فى الطاعة كما دخل الناس . وكتب كتابا آخر الى أشياخ البلد يدعوهم فيه الى بيعته ، ويتهددهم ويتوعدهم ، فلما وصل الكتاب الى يحيى وقرأه ، جمع أهل البلد واستشارهم فى المقاتلة والحصار ، فلم يوافقوه . فلما يئس منهم خرج فارا الى مزدلى بن تيلكان — وكان عاملا على تلمسان — فلقيه مزدلى بوادى ملوية مقبلا برسم البيعة لعلى بن يوسف . فأعلمه يحيى بما كان من شأنه ، فضمن له مزدلى عن عمه العفو والصفح ، فرجع معه حتى اذا وصلا الى فاس ، دخل مزدلى على أمير المسلمين على بن يوسف ، ونزل يحيى مستخفيا بحومة وادى شردوع .

ولما اجتمع مزدلى بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه اكراما وقبولا أعلمه بخبر يحيى ، وما ضمن له من العفو ، فأجابه الى ذلك وعفا عنه وأمنه ! ثم جاء يحيى فبايعه ، وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميروقة بشرق الاندلس أو ينصرف الى بلاد الصحراء . فاختار الصحراء فانصرف اليها ، ثم سافر منها الى الحجاز فحج البيت ورجع الى عمه فاستأذنه أن يكون فى جملته ، ويكون سكناه معه بحضرة مراكش ، فأذن له فى ذلك فسكنها مدة ، ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فثقفه ، وبعث به الى الجزيرة الخضراء فاستمر بها الى أن مات .

اخبار الــولاة بالمغرب والاندلس

لما بويع أمير المسلمين على بن يوسف عزل عن قرطبة الامير أبا عبد الله محمدبن الحاج اللمتونى ، وولى مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبى زلفى ، فغزا طليطلة ، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلا ذريعا بباب القنطرة أخذهم على غرة .

وفى سنة احدى وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب ، وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج ، فأقام واليا على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر ، ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الاندلس .

ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الاندلس ، فكانت له على النصارى وقعة افليج ، وذلك أنه خرج غازيا بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن أفليج - وبه جمع عظيم من الفرنج - فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن ، فأرز النصارى الى القصبة فتحصنوا بها ، وانتهى خبرهم الى الفنش فاستعد للخروج لاغاثتهم ، فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضا منه ، لان تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين ، وسانجة ابن ملك النصارى ، فامتثل اشارتها ، وبعث ولده سانجة فى جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم . فسار حتى اذا دنا من افليج أخبر تميم بن يوسف بمقدمه ، فعزم على الافراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج . فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام . وشجعوه وهونوا عليه أمرهم . فقالوا : « انما قدموا فى ثلاثة آلاف فارس ، وبيننا وبينهم مسافة » . فرجع الى رأيهم ، فلم يكن الا عشى ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج فى ألوف كثيرة ، فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلا

ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو ، وصمدوا اليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها ، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين ، وقتل ولد الفنش ، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفا ونيف . ودخل المسلمون افليج بالسيف عنوة ، واستشهد فى هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله . واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولده وأخذ بلده وهلاك جنده ، فمرض ومات أسفا لعشرين يوما من الوقعة . وكتب تميم ابن يوسف الى أمير المسلمين بالفتح .

واعلم أنه يقال فى ملوك الجلالقة الذين نسميهم اليوم الاصبنيول الادفونش ، ويقال الفنش . فقال ابن خلكان : « الاذفونش بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو بعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لاكبر ملوك الافرنج وهو صاحب طليطلة » . وقال ابن خلدون : « بنو اذفونش هم ولد اذفونش بن بطرة أول ملوك الجلالقة » اه . وأما قولهم الفنش فهو اسم علم لبعض ملوكهم ، وليس لقبا لجميعهم .

وكان محمد بن الحاج رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقا فاحشا بالغارات والنهب ، فخرج فى غزاة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبى ، وكان معه جماعة من قواد لمتونة ، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير ، وأخذ هو على برية تقرب من بلاد المسلمين . وكان أكثر الناس مع المغنم . وكان طريق البرية الذى أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك الا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته . فلما توسطه محمد بن الحاج وأخذته الاوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له فى جهة من تلك الجهات . فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة ، اذ لم يجد منفذا يخلص منه . فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة فى نفر يسير بحيلة أعملها .

واتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين فآسفه موت أبى عبد الله بن الحاج

وولى مكانه أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت ، وهو ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبى بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ ـ وكان عاملا على مرسية ـ فوصل اليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما ، وهو بمرسية . ثم خرج بجيش مرسية الى بلنسية ، فاجتمع اليه من كان بها من الجند . ثم زحف بهم الى برشلونة فنازلها ، وأقام عليها عشرين يوما ، فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وخرب قراها ، فأتاه ابن رذمير من قرابة الاذفونش فى جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وبلاد أربونة فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرنج ، واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمائة رحمهم الله تعالى .

أخبار أمير المسلمين على بن يوسف في الجهاد وجوازه الاول إلى بلاد الاندلس

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين الى الاندلس برسم الجهاد ، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة فى جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس ، فانتهى الى قرطبة فأقام بها شهرا ، ثم خرج منها غازيا الى مدينة طلايوت ، ففتحها عنوة بالسيف . وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصنا ، وفتح مجريط (١) ووادى الحجارة ، وانتهى الى طليطلة فحاصرها شهرا وانتسف ما حولها ، وبالغ فى النكاية ، ثم قفل الى قرطبة بعد أن دوخ البلاد .

وفى سنة أربع وخمسمائة فتح الامير سير بن أبى بكر شنترين ، وبطليوس ، ويابورة ، وبرتقال ، وأشبونة ؟ وغير ذلك من بلاد غرب

١) هي المسماة اليوم مادريد دار ملك الاصبنيول مؤلف

الاندلس . وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة المذكـــورة ، وكتب بالفتح الى أمير المسلمين .

وفى سنة سبع وخمسمائة توفى الامير سير بن أبى بكر باشبيلية ودفن بها ، وولى اشبيلية عوضا منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة ، فلم يزل عليها الى أن توفى سنة عشر وخمسمائة .

وفى سنة سبع المذكورة غزا الامير مزدلى طليطلة وأعمالها ، فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية . واتصـــل الخبر بالبرهانس ـ كبير الفرنج ـ فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم ، فصمد القائد مزدلى للقائه ، ففر أمامه ليلا ، وعاد مزدلى الى قرطبة ظافرا غانما .

ثم كانت له فى الفرنج وقائع أخرى ، الى أن توفى رحمه الله غازيا بلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة . فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبـة ابنه محمد بن مزدلى ، فأقام واليا عليها ثلاثة أشهر ، ثـم توفى شهيدا فى بعض غزواته أيضا .

استيلاء العـدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الاندلس بيد بنى هود الجذاميين ، تغلبوا عليها فى صدر المائة الخامسة أيام الطوائف ، وتوارثوها الى أن كـان منهم أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله ، فزحف اليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسمائة ، فخرج اليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة ، فأنهـــزم المسلمون واستشهد منهم جماعة منهم المستعين بن هود .

ثم لما كانت سنة اثنتى عشرة ـ وصاحب سرقسطة يومئذ عبد الملـــك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولـة ـ زحف ابن رذمير اليها وزحف الفنش أيضا فى أمم من النصرانية الى لاردة من بلاد الجوف فنازلها . واتصل

الخبر بأمير المسلمين ، فكتب الى أمراء غرب الاندلس يأمرهم بالمسير الى أخيه تميم بن يوسف ـ وكان يومئذ واليا على شرق الاندلس ـ فيسيرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم عبد الله ابن مزدلى وأبو يحيى بن تاشفين ـ صاحب قرطبة ـ بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء الاندلس ، فصمد نحو لاردة ، وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاسئا صاغرا ، بعد أن بذل جهده فى حصارها ، وأفقد من جيوشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس ، ورجع تميم الى بلنسية .

ولما رأى ابن رذمير ذلك بعث الى طوائف الافرنج يستصرخهم على سرقسطة ، فأتوا فى أمم كالنمل حتى نازلها معه وشرعوا فى القتال ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بركات وقربوها منها ، ونصبوا فيها الرعادات ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ، وقوى طمعهم فيها ، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الاقوات وهلك أكثر الناس جوعا ، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على أن يرفع عنهم القتال الى أجل ، فان لم يأتيهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه اليه ، فعاهدهم على ذلك ، فتم الاجل ولم يأتهم أحد ، فدفعوا اليه المدينة وخرجوا الى مرسية وبلنسية ، وذلك سنة اثنتى عشرة وخمسمائة . وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدوة جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منها ونفذ حكم الله فيها .

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الاندلس ، وملك قلعة أيوب التى ليس فى بلاد شرق الاندلس أمنع منها ، وألح بالغارات على بلاد الجوف ، فاتصلت هذه الاخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش ، فجاز الى الاندلس برسم الجهاد وضبط الثغور ، وهو جوازه الثانى فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، فوصل بجيوشه الى قرطبة ، ونزل خارجها

وأتته وفود الاندلس للسلام عليه ، فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدا بلدا ، فعرفوه بما كان .

وعزل القاضى أبا الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ويقال انما عزل ابن رشد لانه استعفاه ، وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل .

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة ، وسار فى بلاد الفرنج يقتل ويسبى ويقطع الثمار ، ويخرب القرى والدبار حتى دوخ بلاد غرب الاندلس ، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة .

وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد أمير المسلمين الى بلاد العدوة ، بعد أن ولى اخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الاندلس ، فلم يزل عليها الى أن توفى سنة عشرين وخمسمائة .

ولاية الامير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الاندلس وأخباره في الجهاد

لما توفى الامير تميم بن يوسف فى التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الاندلس ابنه تاشفين بن على بن يوسف ، ما عدا الجزائر الشرقية فانه قد عقد عليها لمحمد بن على المسوفى المعروف بابن غانية ، فعبر الامير تشفين البحر الى الاندلس فى خمسة آلاف من الجند ، وبعث الى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازيا طليطلة ، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها .

وفى السنة المذكورة ، أعنى سنة عشرين وخمسمائة هزم الامير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلا ذريعا ، وفتح ثلاثين حصنا

من حصون غرب الاندلس ، وكتب بالفتح الى أبيه .

وفى سنة ثلاثين وخمسمائة هزم الامير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية ، وأفنى منهم خلقا كثيرا بالسيف .

وفى سنة احدى وثلاثين بعدها دخل الامير تاشفين مدينة كركى بالسيف ، فلم يبق بها بشرا .

وفى سنة اثنتين وثلاثين بعدها جاز الامير تاشفين من الاندلس الى المغرب ، بعد ان غزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة ، وحمل معه من سبيها الى العدوة ستة آلاف سبية ، فانتهى الى مراكش ، وخرج أمير المسلمين للقائه فى زى عظيم وسرور كبير .

وفى سنة ثلاث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين .

وفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كانت وفات أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى رحمه الله . وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة . قال ابن خلكان : « كان أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين رجلا حليما ، وقورا ، صالحا ، عادلا ؛ منقادا الى الحق والعلماء ؛ تجبى اليه الاموال من البلاد ، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه » .

قلت قد طاف به فى آخر دولته أعظم مكروه . وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت ابطه بجبال المصامدة كما يأتى خبره ان شاء الله .

الخبر عن دولة أبى المعز تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين اللمتونى

لما توفى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى التاريخ المتقدم ولى بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن على بعهد من أبيه اليه ، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين معا كما كانوا فى عهد أبيه .

وكان أمر عبد المؤمن بن على يومئذ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن . قال ابن الخطيب : « كان تاشفين بن على قد استخلفه أبوه على بلاد الاندلس ، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين ، فلم ينجح أمره ، بخلاف ما عوده الله فى بلاد الاندلس من النصر ، لما قضاه الله من الادبار على دولتهم » .

ولما خرج عبد المؤمن بن على من تينملل يريد فتح بلاد المغرب ـ وكان مسيره على طريق الجبال ـ سير أمير المسلمين على بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضا له على طريق السهل ، وأقاموا على ذلك مدة توفى أمير المسلمين على بن يوسف فى أثنائها ، وأفضى الامر الى ابنه تاشفين وهو فى الحرب .

وقدم أهل مراكش اسحق بن على بن تاشفين نائبا عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها ، ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعا لعبد المؤمن حتى انتهيا تلمسان ، فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها ، ونزل تاشفين بالبسيط مما يلى الصفصاف ، ووصله هناك مدد صنهاجة ، من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، مع قائده طاهر بن كباب ، لعصبية الصنهاجية . وفى يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين ، وكان يدل باقدام وشجاعة . فقال لجيش لمتونة : « انما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومى ! » فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له فى المناجزة ، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه ،

فكان آخر العهد به وبعسكره . وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم ، وقتلوا عسكره فى بعض الغارات ، ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين ، ونالوا منه أعظم النيل .

وفى القرطاس : « زحف المرابطون لقتال الموحدين فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا ، وتعلقوا فى الجبل لقتالهم ، فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء » .

ولما توالت هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة الى وهران . فبعث ابنه ابراهيم ولى عهده الى مراكش فى جماعة من لمتونة ، وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ، ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون ، الى أن وصل اليه من المرية بعشرة أساطيل ، فأرسى قريبا من معسكره ، وزحف عبد المؤمن من تلمسان ، وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى ، فقدموا وهران ، وفضوا جموع المرابطين الذين بها ، ولجأ تاشفين الى رابية هناك ، فاحدقوا بها وأضرموا النيران حولها ، حتى اذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل ، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . ونجا فل العسكر الى وهران ، فانحصروا مع أهلها ، حتى جهدهم العطش ، ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، فأتى عليهم القتل رحمهم الله !

وقال فى القرطاس : « ان تاشفين بن على خرج ذات ليلة ـ وهو بوهران ـ ليضرب فى محلة الموحدين ، فتكاثرت عليه الخيل والرجل ، ففر أمامهم ، وكان بجبل عال مشرف على البحر ، فظن أن الارض متصلة به ، فأهوى من شاهق بازاء رابطة وهران ، فمات رحمه الله . وكان ذلك فى ليلة مظلمة ممطرة وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفا . فوجد من الغد بازاء البحر ميتا ، فاحتز رأسه وحمل الى

تينملل ، فعلق على شجرة هناك . وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين فى البيداء ، لم يأو الى ظل قط من يوم بويع الى أن مات . وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا ونصف شهر » .

وقال ابن خلكان : « لما تيقن تاشفين بن على أن دولتهم ستزول أتى مدينة وهران – وهى على البحر – وقصد أن يجعلها مقره ، فان غلب على الامر ركب منها الى الاندلس . وكان فى ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب ، وبأعلاها رباط يأوى اليه المتعبدون . وفى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين الى ذلك الرباط ليحضر الختم فى جماعة يسيرة من خواصه ، وكان عبد المؤمن بجمعه فى تاكرارت وهى وطنه . واتفق أنه أرسل مسرا من الخيل الى وهران ، فوصلوها فى اليوم السادس والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى – صاحب المهدى – فكمنوا عشية ، وأعلموا بانفراد تاشفين فى ذلك الرباط ، فقصدوف وأحاطوا بـه وأحرقوا بابه فأيقين الذين فيه بالهلاك ، فخرج راكبا فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو ، فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك الى جهة البحر على حجارة فى محل وعر ، فتكسر الفرس وهلك تاشفين فى الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره فى ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى فى ذلك الليل . وجاء الخبر بذلك الى عبد المؤمن فوصل الى وهران . وسمى ذلك الموضع الذى فيه الرباط صلب الفتح . ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل الى السهل . ثم توجه الى تلمسان ، وهى مدينتان قديمة وحادثة بينهما شوط فرس . ثم توجه الى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة . ثم قصد مراكش سنة احدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرا وفيها اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين وجماعة من مشايخ دولتهم . فقدموه بعد موت أبيه على بن يوسف نائبا عن أخيه تاشفين ، فاستولى عليها وقد

بلغ القحط من أهلها كل مبلغ ، وأخرج اليه اسحق بن علي ومعه سير ابن الحاج - وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم - وكانا مكتوفين ، واسحق دون بلوغ ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن اسحق لصغر سنه ، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم ، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما . ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة » .

وقال ابن خلدون : « أقام الموحدون على مراكش تسعة أشهر ، وأمير الملثمين يومئذ اسحق بن علي بن يوسف ، بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أخيه ، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا الى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوال سنة احدى وأربعين وخمسمائة . وقتل عامة الملثمين ، ونجا اسحق فى جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم ، وتولى كبر ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وانمحى أثر الملثمين ، واستولى الموحدون على البلاد والله غالب على أمره » .

قال ابن جنون : « كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب ، ملكوا بالاندلس من بلاد الافرنج الى البحر الغربى المحيط ، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية الى جبل الذهب من بلاد السودان ، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر بالتثنية ، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، تناها القمح فى أيامهم الى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال . والقطانى لا تباع ولا تشترى ، وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم ، ولم يكن فى عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تسقيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر . وكثرت الخيرات فى دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ، ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس الى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة

خمس عشرة وخمسمائة » .

وأما الاحداث الواقعة فى أيامهم ففى شهر ذى الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب .

وفى سنة احدى وسبعين وأربعمائة كسفت الشمس الكسوف الكلى الذى لم يعهد قبله مثله ، وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال فى اليوم الثامن والعشرين من الشهر .

وفى سنة اثنين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التى لم ير الناس مثلها بالمغرب ، انهرمت منها الابنية ، ووقعت الصوامع والمنارات ، ومات فيها خلق كثير تحت الهدم ، ولم تزل الزلزلة تتعاقب فى كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الاول الى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة

وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد ابن أصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الارجوزة

وفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفى الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد ابن الطلاع .

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة توفى أبو الفضل يوسف بن محمد ابن يوسف المعروف بابن النحوى بقلعة حماد ، صحب أبا الحسن اللخمى وغيره من المشايخ ، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح وكان مجاب الدعوة . ولما أفتى فقهاء المغرب باحراق كتب الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وأمر أمير المسلمين على بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لابى حامد رحمه الله ، وكتب الى أمير المسلمين فى ذلك . وحدث صاحب التشوف ـ وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المراكشى الدار عرف بابن الزيات ـ بسنده عن أبى الحسن على بن حرزهم قال : لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء ، وأن يحلف الناس بالايمان المغلظة أن كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الأيمان فأفتى

بأنها لاتلزم ! وكانت الى جنبه أسفار ، فقال لى : «هذه الاسفار من كتاب الاحياء ، وودت أنى لم أنظر فى عمرى سواها !» وكان أبو الفضل قد انسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا . ومناقبه كثيرة رحمه الله

قلت : لم يقع فى دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهى احراق كتاب الاحياء فانه لما وصلت نسخه الى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضى أبو القاسم بن حمدين ، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبى حامد رضى الله عنه ، وأعلموا السلطان بأمرها ، وأفتوه بأنها يجب احراقها ولا تجوز قراءتها بحال

وكان على بن يوسف واقفا — كأبيه — عند اشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جميع الاحكام اليهم ، فلما أفتوه باحراق كتاب الاحياء كتب الى أهل مملكته فى سائر الامصار والاقطار بان يبحث عن نسخ الاحياء بحثا أكيدا ، ويحرق ما عثر عليه منها ، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الاندلس ، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار ! وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش ، وتوالى الاحراق عليها فى سائر بلاد المغرب ! ويقال ان ذلك كان فى حياة الشيخ أبى حامد رحمه الله وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم ، فاستجيب له فيهم ! فان كان كذلك فتاريخ الاحراق يكون فيما بين الخمسمائة(١) والخمس بعدها ، لان بيعة على بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة ، ووفاة الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر بجمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة

وفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفى الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف كان متناهيا فى الفضل والدين والزهد فى الدنيا ، منقطعا الى الخير ، يقصده

١) وهو كذلك كما فى المعيار ذكر أنه فى سنة اثنتين أو ثلاث مؤلف

الناس ويألفونه فيحمدون صحبته ، وسعى بـه الى أمـير المسلمين على بن يوسف فأمر باشخاصه الى حضرة مراكش ، فوصلها وتوفى بهـا ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة ، واحتفـل الناس لجنازته ، وندم أمير المسلمين على ما كان منه له فى حياته ، وظهرت لـه كرامات رحمه الله ، ودفن بقرب الجامع القديم الذى بوسط مراكش فـى روضة القاضى موسى بن أحمد الصنهاجى .

قلت : وقبره الان مشهور بسوق العطارين مـن مراكش عليـه بناء حفيـل .

وفى هذه السنة أيضا أعنى سنة ست وثلاثـين وخمسمائة توفى أبـو الحكم بن برجان ، قال ابن خلكان : «هو أبـو الحكـم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمى عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الالف نون ، وكـان عبدا صالحا وله تفسير القرآن الكريم . وأكثر كلامه فيه على طريق أربـاب الاحوال والمقامات . » اه

وقال فى التشوف : «لما أشخص أبو الحكم بـن برجان(١)مـن قرطبة الى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبـو الحكم : «والله لاعشت ولا عاش الذى أشخصنى بعد موتى !» يعنى أمـير المسلمين على بن يوسف ، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا يصلى عليه ، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء

وكان أبو الحسن على بن حرزهم يومئذ بمراكش ، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه ، فأخبره بما أمر بـه السلطان فى شأن أبى الحكم ، فقال له أبو الحسن : «ان كنت تبيع نفسك من الله فافعـل ما

---

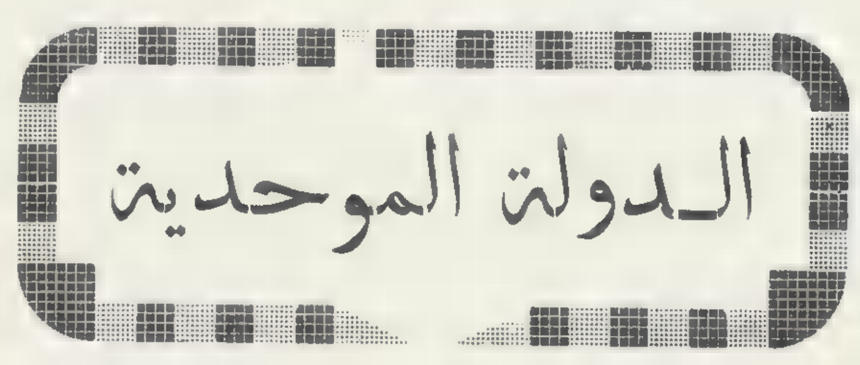
١) أنظر السبب فى تغريب هذين الزاهدين من المرية إلى مراكش فى كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب صفحة ٢٨٥ ، وفى المعجب للمراكشى صفحة ١٣٦ ، وفى لسان الميزان لابن حجر صفحة ٢٤٧ الجزء الاول .

أقوله لك » فقال له : «مرنى بما شئت أفعله !» فقال له : تنادى فى طرق مراكش وأسواقها : يقول لكم ابن حرزهم أحضروا جنازة الشيـخ الفقيه الصالح الزاهد أبى الحكم بن برجان ، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله» ففعل ما أمره ، فبلغ ذلك أمير المسلمين ، فقال «مـن عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله !»

قال ابن عبد الملك فى كتاب الذيل والتكملة : »أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها » قال : «وهو الذى تقـــول له العامة سيدى أبو الرجال »

وكان الشيخ أبو ينور المشترائى موجودا فى هذه المدة ، الا أنـــى لم أقف على تاريخ وفاته . قال فى التشوف : «هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالى من مشتراية من أشياخ أبى شعيب أيوب السارية ، كبير الشأن من أهل الزهد والورع . حدثوا عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت اليه طعاما يأكله فوقع فى نفسه أن فيه نصيب الايتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طاويا . وجاءه رجل من أشياخ مشتراية فقال له : «ان عامل على بن يوسف تهددنى بالقتل والصلب وقد خرج مـن مراكش متوجها الى دكالة » فقال له أبو ينور : «رده الله عنك » فسار الى أن بقى بينه وبين قرية يليسكاون ـ وهى امتى تسميها العامة بوسكاون ـ نصف يوم» فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه »

وفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثار القاضى أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم ، والله وارث الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين



الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة
وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

قال ابن خلدون : «كان للمصامدة فى صدر الاسلام بجبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لاخوانهم بورغواطة فى نحلة كفرهم ، وكان منهم قبل الاسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدى وقيامهم بدعوته . فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين ، ومن صنهاجة بافريقية ، حسبما هو مشهور ويأتى ذكره ان شاء الله تعالى . قال : «وأصل المهدى من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت ، وكان يلقب فى صغره أيضا أمغار ، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه فى أهل البيت ، فبعضهم ينسبه سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، والله أعلم بحقيقة الامر »

وكان أهل بيته أهل نسك ورباط ، وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وشب المهدى قارئا محبا للعلم . ثم ارتحل فى طلبه الى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهى يومئذ دار علم ، ثم لحق بالاسكندرية وحج ودخل العراق ولقى به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علما واسعا . وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده . ولقى أبا حامد الغزالى

وفاوضه بذات صدره فى ذلك فأراده عليه .

قال ابن خلكان : « اجتمع محمد بن تومرت بأبى حامد الغزالى ، والكيا الهراسى ، والطرطوشى وغيرهم ، وحج وأقام بمكة مدة مديدة ، وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوى وأصول الفقه والدين وكان ورعا ناسكا ، متقشفا مخشوشنا مخلولقا ، كثير الاطراق ، بسأما فى وجوه الناس ، مقبلا على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا الا عصا وركوة . وكان شجاعا فصيحا فى لسان العرب والبربر ، شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا يقنع فى أمر الله بغير اظهاره ، وكان مطبوعا على الالذاذ بذلك ، متحملا للاذى من الناس بسببه . ونالـه بمكة ـ شرفها الله ـ شىء من المكروه من أجل ذلك ، فخرج منها الى مصر ، وبالغ فى الانكار فزادوا فى أذاه وطردته الولة . وكان اذا خاف من البطش وايقاع الفعل به خلط فى كلامه » فينسب الى الجنون ، فخرج من مصر الى الاسكندرية وركب البحر متوجها الى بلاده .

وكان قد رأى فى منامه وهو فى بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين ، فلما ركب السفينة شرع فى تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم اقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ، ولم يزل على ذلك حتى انتهى الى المهدية من أرض افريقية ، وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذلك فى سنة خمس وخمسمائة . هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجى فى كتاب الجمع والبيان فى أخبار القيروان . وقيل ان ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة . واجتيازه بمصر كان سنة احدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب

ولما انتهى الى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق ، وجلس فى طاق شارع الى المحجة ينظر الى المارة ، فلا يرى منكرا من آلة الملاهى أو أوانى الخمر الا نزل اليها وكسرها ، فتسامع الناس به فى البلد فجاءوا اليه وقرأوا عليه كتبا من أصول الدين ، فبلغ خبره

الامير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء . فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء ، فقال له : « أصلحك الله لرعيتك » . ولم يقم بعد ذلك بالمهدية الا أياما يسيرة ، ثم انتقل الى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله فى الانكار فأخرج منها الى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن على القيسى الكومى .

وقال ابن خلدون : « انطوى المهدى راجعا الى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين ، وكان قد لقى بالمشرق أئمة الاشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم ، واستحسن طريقهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة فى صدر أهل البدعة، وذهب فى رأيهم الى تأويل المتشابه من الآى والاحاديث بعد أن كان أهل المغرب بعزل عن اتباعهم فى التأويل والاخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت . فبصر المهد أهل المغرب فى ذلك ، وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية في كافة العقائد وأعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم ، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة فى التوحيد .

وكان من رأيه القول بعصمة الامام على على رأى الامامية من الشيعة ، ولم تحفظ عنه فلتة فى البدعة سواها ! واحتل بطرابلس الغرب معنيا بمذهبه ذلك مظهرا للنكير على علماء المغرب فى عدولهم عنه . آخذا نفسه بتدريس العلم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع ، حتى لقى بسبب ذلك اذايات فى نفسه احتسبها من صالح عمله .

ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين ، فأغلظ له ولاتباعه بالنكير ، وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات فى الطرق ، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به ، فخرج منها خائفا يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها ، وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة

وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه ، وطلبهم السلطان صاحب بجاية باسلامه اليه فأبوا واسخطوه ، وأقام بينهم يدرس العلم أياما وكان يجلس اذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ديار ملالة ، وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المومن بن على حاجا مع عمه ، فأعجب بعلمه وصرف عزمه اليه فاختص به وشمر للاخذ عنه .

وفى كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب : ان المهدى كان قد أطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ـ يقال أنه عثر عليه عند الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ـ وانه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله وسلم ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت‌ى‌ن‌م‌ل‌ل ، ورأى فيه أيضا : أن استقامة ذلك الامر واستيلائه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع‌ب‌د‌م‌و‌م‌ن (١) ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله سبحانه فى نفسه أنه القائم بهذا الامر وأن أوانه قد أزف ، فما كان محمد يمر بموضع الا ويسأل عنه ، ولا يرى أحدا الا أخذ اسمه وتفقده حليته .

وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده على الصفة التى معه فقال له محمد بن تومرت ـ وقد تجاوزه ـ : « ما اسمك ياشاب ؟ » فقال : « عبد المؤمن » فرجع اليه وقال له : « الله أكبر ! أنت بغيتى » ! ونظر فى حليته فوافقت ما عنده ، فقال له : « من أين أقبلت ؟ » قال : « من كومية » قال : « أين مقصدك ؟ » فقال : « المشرق » قال : « ما تبغى ؟ » قال : « علما وشرفا » قال : « قد وجدت علما وشرفا وذكرا ! أصحبنى تنله ! » فوافقه على

[١] راجع فى كتاب اخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين لابي بكر الصنهاجي المطبوع بباريس على يد الاستاذ ليفي بروفانسال طبع كوتنير سنة ١٩٢٨ م ، كيفية اتصال عبد المومن بالمهدى فقد بسط الكلام فى ذلك ، صفحة ٥٥ من النص العربى ومابعدها

ذلك ، فألقى اليه محمد بأمره وأودعه سره .

قال ابن خلدون : « وارتحل المهدى الى المغرب ـ وعبد المؤمن فى جملته ـ ولحق بوانشريس . فصحبه منها ابو محمد عبد الله الوانشريسى المعروف بالبشير » .

وقال ابن خلدان : « وكان جميلا فصيحا فى لغتى العرب والبربر ، ففاوضه المهدى فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك اتم موافقة . وكان البشير ممن تهذب وقرا فقها ، فتذاكرا يوما فى كيفية الوصول الى المطلوب ، فقال المهدى للبشير : « ارى ان تستر ما انت عليه من العلم والفصاحة عن الناس ، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعرى عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس ، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلا الى المطلوب ! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا اليه فنصدق فيما نقول » ففعل البشير ذلك .

ثم لحق المهدى بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضى بها ـ وهو ابن صاحب الصلاة ـ ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره ، وظن القاضى أن من العدل نزعه عن ذلك ، فصم عن قوله واستمر على طريقه الى فاس ، فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم الى سنة أربع عشرة وخمسمائة . ثم انتقل الى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات ، فثار اليه الغوغاء وأوجعوه ضربا . ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذا فى شأنه ، ولقى بها أمير المسلمين على بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له فى القول . ولقى ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه ، ففاوض أمير المسلمين الفقهاء فى شأنه بما وصل اليه من سيرته ، وكانوا قد ملئوا منه حسدا وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب الاشعرية فى تأويل المتشابه ، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف فى اقراره كما جاء ، ويرى

أن الجمهور لقنوه تجسيما ، ويذهب الى تكفيرهم بذلك على أحد قولى الاشعرية فى التكفير ، فأغروا الامير به فأحضره للمناظرة معهم ، فكان له الفلج والظهور عليهم .

وقال ابن خلكان : « كان محمد المهدى قد استدنى أشخاصا من أهل المغرب جلادا فى القوى الجسمانية أغمارا . وكان أميل الى الاغمار من أولى الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبى محمد البشير . ثم أنه رحل الى أقصى المغرب ، وتوجه فى أصحابه الى مراكش — وملكها يومئذ أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين — وكان ملكا عظيما حليما ورعا عادلا متواضعا ، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب (١) الاندلسى وكان عالما صالحا — زاد ابن خلدون عارفا بالنجوم — فشرع محمد المهدى فى الانكار على جرى عادته حتى أنكر على ابنة الملك ، فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث فى تغيير الدولة ، فتحدث مع مالك بن وهيب فى أمره . فقال مالك بن وهيب : « نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأى أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد » . فأجاب الملك الى ذلك .

وكان المهدى وأصحابه مقيمين فى مسجد خراب خارج البلد ، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده : « سلوا هذا الرجل ما يبغى منا » فانتدب له قاضى المرية — واسمه محمد بن أسود — فقال : « ما هذا الذى يذكر عنك من الاقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد الى الحق الموثر طاعة الله تعالى على هواه ؟ » فقال له المهدى : « أما نقل عنى فقد قلته ولى من ورائه أقوال ! وأما قولك أنه يوثر طاعة الله على هواه وينقاد الى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه

---

[١] راجع ما قاله المقرى فيه في نفح الطيب ج ٢ ص ٩٢٥ . وما ذكره أبو بكر الصنهاجي البيدق فى كتابه اخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين المطبوع بباريس سنة ١٩٢٨ م صفحة ٦٨ وما بعدها من النص العربى .

ليعلم بتعريه عن هذه الصفة انه مغرور بما تقولون لـه وتضرونه به مـع علمكم أن الحجة متوجهة عليه . فهل بلغك ياقاضى أن الخمر تباع جهارا ! وتمشى الخنازير بين المسلمين ! وتؤخذ أموال اليتامى ؟ » وعدد من ذلـك شيئا كثيرا . فلما سمع الملك كلامه ذرفت عينـاه وأطرق حياء ، ففهـم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع فى المملكة لنفسه .

ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم . فقال مالك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك ـ : « أيها الملك عندى لنصيحة ان قبلتها حمدت عاقبتها وان تركتها لم تأمن غائلتها » فقال الملك : « ما هى ؟ » فقال : « انى أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينارا لتكفى شره ! وان لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها ، ثم لا ينفعك ذلك ! » فوافقه الملك على رأيه ، فقال له وزيره : « يقبح بك أن تبكى من موعظة رجل ثم تسىء اليه فى مجلس واحد! وان يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه ! » فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء .

وقال ابن خلدون : « كان مالك بن وهيب حزاء ينظر فى النجـوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكا كائنا بالمغرب فى أمة من البربر ، ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضى ذلك ، فقال مالك بن وهيب : « احتفظوا بالدولة من الرجل فانه صاحب القران والدرهم المربع » . فطلبه على بن يوسف ففقـده ، وسرح الخيالـة فـى طلبـه ففاتهم .

وحكى صاحب المعرب : « ان المهدى لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه الى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك اذ لم توله ظهرك ! فقـال : « أردت أن لا يفارق وجهى الباطـل حتى أغيره ما استطعت » اه كلامه .

فلما خرج المهدى وأصحابه من عند الملك قال لهم : « لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك فى أمرنا فينالنا منه مكروه ، وان لنا بمدينة أغمات أخا فى الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأيا ودعاء صالحا » واسم هذا الشخص عبد الحق بن ابراهيم وهو من فقهاء المصامدة . فخرجوا اليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك . فقال عبد الحق : « هذا الموضع لا يحميكم ، وان أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم » فلما سمع المهدى بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى رآه فى كتاب الجفر فقصده مع اصحابه .

وقال ابن خلدون : « لما لحق المهدى باغمات غير المنكرات على عادته فأغرى به أهل أغمات على بن يوسف وطيروا اليه بخبره . فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه فى صحبته ، فلحق أولا بمسفيوة ثم بهنتاتة ، ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ــ جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية ــ . ثم ارتحل المهدى عنهم الى هرغة فنزل على قومه ، وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد ، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل ، وأخذ يعلمهم المرشدة له فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره .

ثم داخل عامل لمتونة على السوس أناسا من هرغة فى قتله ، ونذر بهم اخوانهم ، فنقلوا المهدى الى معقل من أشياعهم ، وقتلوا من داخل فى أمره ، ودعوا المصامدة الى مبايعته على التوحيد ، وقتال المجسمة دونه ، سنة خمس عشرة وخمسمائة . فتقدم اليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى ، وأبو يحيى بن يكيت ، ويوسف بن وانودين ، وابن يغمور ، ومن تينملل أبو حفص عمر بن على الصناكى ، ومحمد بن سليمان ، وعمر بن تافراكين ، وغيرهم . وأوعبت قبيلة هرغة فدخلوا فى أمره كلهم ، ثم دخل معهم كدميوة

وكنفيسة .

ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى ، وكان قبلها يلقب بالامام ، وكان يسمى أصحابه الطلبة ، وأهل دعوته الموحدين تعريضا بلمتونة فى أخذهم بالعدول على التأويل وميلهم الى التجسيم .

ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آيت الخمسين . ثم زحف اليهم عامل لمتونة على السوس ـ وهم بمكانهم من هرغة ـ فاستجاشوا اخوانهم من هنتاتة وتينملل ، فاجتمعوا اليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة ، فكانت تلك باكورة الفتح ، وكان المهدى يعدهم بذلك فاستبصروا فى أمره ، وتسابقت كافتهم الى الدخول فى دعوته ، وترددت اليهم عساكر لمتونة مرة بعد أخرى ففضوهم ، وانتقل لثلاث سنين من بيعته الى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحوالى منبع وادى نفيس ، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له . هذا كلام ابن خلدون فى سياقه هذا الخبر جئنا به مختصرا .

واقتضى كلام ابن خلكان أن ظهور المهدى ومبايعته لم تكن الا بتينملل ، فانه قد عقب ما سبق له من ان الفقيه عبد الحق بن ابراهيم المصمودى أشار على المهدى بالمسير الى تينملل ، وان المهدى لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه نقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم ، فقاموا اليهم وأكرموهم ، وتلقوهم بالترحاب ، وأنزلوهم فى أكرم منازلهم . وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه ، فقيل له : انهم سافروا ، فسره ذلك وقال : « تخلصنا من الاثم بحبسهم ! » . ثم ان أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدى اليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره فجاءوه من كل فج عميق ، وتبركوا بزيارته . وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما فى نفسه من الخروج على السلطان ، فان أجابه أضافه الى خواصه ، وان خالفه أعرض عنه . وكان يستميل الاحداث وذوى الغرة ! وكان ذوو

الحنكة والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ، ويخوفونهم سطوة السلطان ، فكان لا يتم له مع ذلك أمر . وطالت المدة وخاف المهدى من مفاجأة الاجل قبل بلوغ الامل ، وخشى أن يطرق على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم الى استسلامه اليه والتخلى عنه ، فشرع فى اعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل ! فسألهم عن سبب ذلك ، فلم يجيبوه ، فألزمهم الاجابة ، فقالوا : « نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج ، وفى كل سنة تصعد مماليكه الينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجوننا عنها ، ويختلون بمن فيها من النساء ، فتأتى أولادنا على هذه الصفة ! ومالنا قدرة على دفع ذلك عنا » فقال المهدى : « والله ان الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح ؟ » فقالوا : « بالرغم لا بالرضى » فقال : « أرأيتم لو أن ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ » قالوا : « كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت » ثم قالوا : « ومن هو؟ » قال : « هو ضيفكم ! » يعنى نفسه . فقالوا : « السمع والطاعة » وكانوا يغالون فى تعظيمه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق ، واطمأن قلبه ، ثم قال لهم : « استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح ، فاذا جاءوكم فأجروهم على عادتهم ، وخلوا بينهم وبين النساء ، وميلوا عليهم بالخمور ، فاذا سكروا فآذنونى بهم ! »

فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدى ـ وكان ذلك ليلا ـ أعلموه بذلك ، فأمر بقتلهم كلهم ، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم . ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد ـ كان خارج المنازل لحاجة له ـ فسمع التكبير عليهم والايقاع بهم ، فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل . ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات محمد بن تومرت من يده ، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به ، فجهز من وقته خيلا بمقدار ما يسع وادى

تينملل ، فانه ضيق المسلك .

وعلم المهدى أنه لابد من عسكر يصل اليهم ، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده ، واستنجد لهم بعض المجاورين ، فلما وصلت الخيل اليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر ، وكان ذلك من أول النهار الى آخره ، وحال بينهم الليل ، فرجع العسكر الى الملك وأخبروه بما تم لهم ، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم .

وتحقق المهدى ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل ، فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له : « هذا أوان اظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة ! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل فى الطاعة » . ثم اتفقا على أنه يصلى الصبح ويقول بلسان فصيح ـ بعد استعمال العجمة واللكنة فى تلك المدة ـ : « انى رأيت البارحة في منامى أنه نزل الى ملكان من السماء وشقا فؤادى وغسلاه وحشواه علما وحكمة وقرآنا ! » فلما أصبح فعل ذلك ـ وهو فصل يطول شرحه ـ فانقاد له كل صعب القياد ، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن فى النوم ، فقال له محمد بن تومرت : « فعجل لنا بالبشرى فى أنفسنا ، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء » فقال له : « أما أنت فانك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك » ثم قال : « اعرض أصحابك على حتى أميز أهل الجنة من أهل النار » وعمل فى ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت ، وأبقى من أطاعه . وشرح ذلك يطول .

وكان غرضه أن لا يبقى فى الجبل مخالفا لهم ، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن فى الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وأنهم لا تطيب نفوسهم بذلك ، فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش اليهم واغتنام أموالهم ، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم . وبالجملة فان تفصيل هذه

الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك .

وخلاصة الامر : أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشا عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وفيهم عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرا ، ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل .

وكان فيمن سلم عبد المؤمن ، وقتل البشير وبلغ الخبر المهدى – وهو بالجبل – وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه اليه ، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين : « ان النصر لهم ، وان العاقبة حميدة ،فلا يضجروا وليعاودوا القتال ، فان الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم، وان الحرب سجال ، وانكم ستقوون ويضعفون ، ويقلون وتكثرون ، وأنتم فى مبدا أمر وهم فى آخره » وأشباه هذه الوصايا وهى وصية طويلة اه كلام ابن خلكان.

وقال ابن خلدون : « لما كان شأن أبى محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدى على غزو لمتونة ، فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة اليهم فلقوه بكبكب ، وهزمهم الموحدون واتبعوهم الى أغمات فلقيتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبى بكر بن على بن يوسف وابراهيم بن تاعماشت ، فهزمهم الموحدون وفل ابراهيم وجنده ، واتبعوهم الى مراكش فنزلوا البحيرة فى زهاء أربعين ألفا كلهم راجل الا أربعمائة فارس . واحتفل على بن يوسف فى الاحتشاد وبرز اليهم لاربعين من نزولهم : خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا . وفقد البشير واستحر القتل فى هيلانة ، وأبلى عبد المؤمن فى ذلك اليوم أحسن البلاء. وقيل للمهدى : « ان الموحدين قد هلكوا » فقال لهم : « ما فعل عبد المؤمن ؟ » قالوا : « هو على جواده الادهم قد أحسن البلاء » فقال : « ما بقى عبد المؤمن فلم يهلك أحد » !

وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل : « كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدى وكادت تأتى عليهم ، ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره . وكان يقول : « مثل هذا الامر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلى الضوء » ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التى ينالون من فىء عدوهم بعدها وانه يعطى الرجل على قدر ما أعد من الرباط الى غير ذلك .

فهذا خبر المهدى مختصرا من ابن خلدون ممزوجا بما نقله ابن خلكان من ذلك . وقد ساق ابن أبى زرع فى القرطاس خبر المهدى هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم . فلنأت به وان أدى الى بعض التكرار زيادة فى الامتاع ، وتحلية للاسماع ، فنقول :

قال ابن أبى زرع ما ملخصه : « ان المهدى رحل الى المشرق فى طلب العلم ولقى مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علما كثيرا ، وحفظ جملة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونبغ فى علم الاصول والاعتقادات .

وكان فى جملة من لقى من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه ، لازمه ثلاث سنين . وكان الشيخ أبو حامد كثيرا ما يشير الى المهدى ويقول : « انه لا بد أن يكون له شأن ! » ونمى الخبر بذلك الى المهدى فلم يزل يتقرب الى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم فى ذلك . فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصدا بلاد المغرب غرة ربيع الاول سنة عشر وخمسمائة ، ولازم فى طريقه درس العلم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الى أن اجتمع به عبد المؤمن بن على فبايعه على مؤازرته فى الشدة والرخاء والعسر واليسر . ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش ـ وكانت له فصاحة وعليه مهابة ـ فأخذ يطعن على المرابطين وينسبهم الى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن اليه أنه المهدى المنتظر الذى يملأ الارض

عدلا كما ملئت جورا . وجرى منه بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره ، فاتصل خبره بعلى بن يوسف اللمتونى فأحضره وقال له : « ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ » فقال « انما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فانك المسئول عنه . وقد ظهرت بمملكتك المنكرات ، وفشت البدع ، وقد وجب الله عليك احياء السنة واماتة البدعة . وقد عاب الله تعالى أمة تركوا النهى عن المنكر ، فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكرا . ثم أمر باحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس ، ثم قال أمير المسلمين : « اختبروا الرجل فان كان عالما أتبعناه والا أدبناه » وكان المهدى فصيحا لسنا ذا معرفة بالاصول والجدل ، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع ، فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه ، فعدلوا عن المذاكرة الى الممالأة ، وأغروا به أمير المسلمين ، وقالوا : « هذا رجل خارجى ، وان بقى بالمدينة أفسد عقائد أهلها ! » فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد ، فخرج الى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها ، وصار الطلبة يترددون اليه لاخذ العلم عنه ، فكثر جمعه وأحبته العامة وعظموه .

وانتهى خبره الى أمير المسلمين ثانيا ، ونقل اليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له : « أيها الرجل اتق الله فى نفسك؟ ألم أنهك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد ؟ » . فقال : « أيها الملك قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة الى الجبانة واشتغلت بما يعنينى ، فلا تسمع لاقوال المبطلين ! » فتوعده أمير المسلمين وهم بالقبض عليه ، ثم عصمه الله منه ليقضى الله أمرا كان مفعولا

ولما انفصل المهدى عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به ، وشرحوا له جلية أمره وما يدعو اليه . فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه ،

وبعث اليه من يأتيه برأسه ، فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعا ، حتى اذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى : « ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » الآية . فسمعها المهدى وفطن لها فانسل من حينه وخرج حتى أتى تينملل فأقام بها ، وذلك فى شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون الى دعوته والمصدقون بامامته ، وهم : « عبد المؤمن بن على الكومى ، وأبو محمد البشير الوانشريسى ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وأبو يحيى بن يكيت الهنتاتى : وأبو حفص عمر بن على آصناك ، وابراهيم بن اسمعيل الخزرجى ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمار ، وسليمان بن خلوف ، وعاشر ، فأقاموا بتينملل الى رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه . فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس الى بيعته ، فبايعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة .

ولما كان الغد ـ وهو يوم السبت ـ خرج المهدى فى أصحابه العشرة متقلدين السيوف ، وتقدم الى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنه المهدى المنتظر ، ودعاهم الى بيعته ، فبايعوه البيعة العامة ، ثم بث دعاته فى بلاد المصامدة يدعون الناس الى بيعته ويزرعون محبته فى قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحرى الحق واظهار الكرامات ، فانثال الناس عليه من كل جهة ، وسمى أتباعه الموحدين ، ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربرى ، وجعل لهم فيه الاعشار والاحزاب والسور ! وقال : «من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد ، لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته !» فاستولت محبته على قلوبهم ، وعظموه ظاهرا وباطنا ، حتى كانوا يستغيثون به فى شدائدهم ، وينوهون باسمه على منابرهم ، ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير ، فلما علم أن ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيبا ، وندبهم الى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم

وأموالهم ، فانتدب الناس لذلك وبايعوه على الموت ، فانتخب منهم عشرة آلاف من أجناد الموحدين ، وقدم عليهم ابا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا ، فصمدوا الى مدينة أغمات

وانتهى الخبر الى أمير المسلمين ، فجهز لقتالهم جيشا من الحشم والاجناد ، فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم وأتبعوهم حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها أياما ، ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة ، وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة . وقسم المهدى الغنائم التى غنموها من عسكر المرابطين ، وتلا عليهم قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » الآية . وانتشر ذكر المهدى بجميع أقطار المغرب والاندلس . وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التى غنموها . ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة ، فأقام محاصرا لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويراوحها من سنة ست عشرة الى سنة تسع عشرة

ولما ضجر من مقامه هناك نهض الى وادى نفيس ، وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبى منهم فانقاد له أهل السهل والجبل . وبايعته كدميوة ، ثم غزا بلاد ركراكة ، فأخذهم بالدعاء الى توحيد الله وشرائع دينه ، وسار فى بلاد المصامدة يقاتل من أبى ويسالم من أجاب ففتح بلادا كثيرة ، ودخل فى دعوته عالم كثير من المصامدة ، ورجع الى تينملل فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس ، ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة فى ثلاثين ألفا من الموحدين ، فاجتمع على حربه أهل أغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون ، فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقسم المهدى أنفالهم بين الموحدين . ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه ، وطاع له جميع من فيه من قبائل من قبائل هرغة وهنتاتة وكنفيسة وغيرهم

ثم عاد الى تنملل فأقام بها ريثما استراح الناس . ثم ندبهم الى غزو

مراكش وجهاد المرابطين ، وقدم عليهم عبد المومن بن على وأبا محمد البشير ، وخص عبد المومن بامامة الصلاة ، فساروا حتى انتهوا الى أغمات، فلقيهم بها أبو بكر بن على بن يوسف فى جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة ، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه الى مراكش وقتلوهم فى كل طريق ، وحصروا مراكش أياما ، ثم رجعوا الى تنملل فخرج المهدى للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد . ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره ان شاء الله ، فهذا سياق ابن أبى زرع لهذه الاخبار والله أعلم بالصواب

بقية أخبار المهدي وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدى رجلا ربعة ، أسمر ، عظيم الهمة ، غائر العينين . حديد النظر ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء على كتفه الايمن ، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم . وكان مع ذلك عالما فقيها ، راويا للحديث ، عارفا بالاصول والجدل ، فصيح اللسان ، مقداما على الامور العظام ، غير متوقف فى سفك الدماء ، يهون عليه اتلاف عالم فى بلوغ غرضه ، وكان حصورا لا يأتى النساء ، وكان متيقظا فى احواله ضابطا لما ولى من سلطانه ، أنشد صاحب كتاب المغرب فى حقه :

آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه

ثم قال :

«له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ، ونفس ترى اراقة ماء الحياة دون اراقة ماء المحيا ، أغفل المرابطون عقله وربطه ، حتى دب اليهم دبيب الفلق فى الغسق ، وترك فى الدنيا دويا . أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان

لعزمه فيها غير مسلم ، وكان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفا بقليل سمن أو زيت ! ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ! ورأى اصحابه يوما وقد مالت نفوسهم الى كثرة ما غنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه واحراقه ! وقال : « من كان يتبعني لاجل الدنيا فليس له عندي الا ما رأى ! ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله !» وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيبا منيع الحجاب الا عند مظلمة ، وله رجل مختص بخدمته والاذن عليه . وكان له شعر فمن ذلك قوله :

أخذت بأعضادهم اذ نأوا * وخلفك القوم اذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي * وتسمع وعظا ولا تسمع
فياحجر السن حتى متى * تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيرا ما ينشد :

تجرد من الدنيا فانك انما * خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضا بقول أبي الطيب المتنبي :

اذا غامرت في شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير * كطعم الموت في أمر عظيم

وبقوله أيضا :

ومن عرف الايام معرفتي بها * وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به * ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وبقوله أيضا :

وما أنا منهم بالعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل : «قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والالهام ، وينكر كتب الرأي والتقليد ، وله باع في علم الكلام ، وغلبت عليه نزغة خارجية ، وكان ينتحل القضايا الاستقبالية ، ويشير الى الكوائن الآتية ، ورتب قومه ترتيبا غريبا . فمنهم أهل الدار ، وأهل الجماعة ، وأهل الساقة ، وأهل خمسين . وأهل

سبعين » والطلبة ، والحفاظ ، وأهل القبائل . فأهل الدار للامتهان والخدمة. وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة ، وأهل الساقة للمباهاة ، وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقى ، وسائر القبائل لمدافعة العدو . وكان يعلمهم أوجه العبادات فى العادات »

قلت : من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم ، فعدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلا ، فصفهم صفا وقال لاولهم : « اسمك الحمد لله » وللثانى : « رب العالمين » وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة . ثم قال لهم : «لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الاسماء على نسقها فى كل ركعة !» فسهل عليهم الامر وحفظوا أم القرآن . ذكره صاحب المعرب

قالوا : وهو أول من أحدث «أصبح ولله الحمد» فى أذان الصبح .

ومن جراءته واقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال : «كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم ، فاحتال المهدى بأن انتخب قوما من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره! وقال لهم : «اذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . وأن ما دعا اليه الامام المهدى هو الحق ! فجدوا فى جهاد عدوكم » وقال لهم : «اذا فعلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم عندى المنزلة العالية » وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ، ويهون عليهم مما لاقوا من القتل والجراحات بسببه . ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم : « أنتم يامعشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق ، فجدوا فى قتال عدوكم فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من اخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله !» ثم أتى بهم الى موضع المعركة ونادى «يامعشر الشهداء ما ذا لقيتم من الله عز وجل ؟» فقالوا :« قد أعطانا من الثواب ما لا عين

رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !» فافتتن الناس وظنـوا أن الموتى قد كلموهم ! وحكوا ذلك لبقية اخوانهم ، فازدادوا بصيرة فى أمره وثباتا على رأيه . والله أعلم بحقيقة الحال

وفـــاة المهـدي رحمـه الله

كانت وفاة المهدى عقب وقعة البحيرة . قال ابـن خلدون : «لاربعة أشهر بعدها» وقال ابن الخطيب وغيره : كانت وفاته يـوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة. وقيل غير ذلك.

وقال فى القرطاس : «لما رجـع الموحدون مـن غزو مراكش الى تينملل خرج اليهم المهدى فسلم عليهم ورحب بهم ، وأعلمهم بمـا يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم ، وأعلمهم أنه يموت فى تلك السنة . فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذى مات منه ، وقدم عبد المومن للصلاة أيام مرضه ، ثم توفى فى التاريخ المتقدم .

وذكر بعض المؤرخين : «أن المهدى رأى فى منامه قبل وفاتـه كأن آتيا أتاه فأنشده أبياتا نعى له فيه نفسه ، وأعلمه باليـوم الذى يموت فيه فكان كذلك » أنظر القرطس .

وقد مر فى هـذه الاخبار ذكـر « كتاب الجفـر » وربمـا تتشوف النفس لمعرفة حقيقته ، فقد قال ابن خلدون فى كتـاب طبيعة العمران : «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد العجلى ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ، ولبعض الاشخاص منهم عـلى الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر الصادق فى جلد ثور صغير،

فرواه عنه هرون العجلى ، وكتبه وسماه «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه (لان الجفر فى اللغة هو الصغير) فصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما فى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق رضى الله عنه»

وذكره ابن قتيبة فى أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل : «واعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم ، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع اليهم من الجفر الذى ذكره العجلى » ثم قال ابن قتيبة :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا * فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا امام ومنهم * طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لمأقضه جلد جفرهم * برئت الى الرحمن ممن تجفرا

فى أبيات غير هذه ، ثم قال ابن قتيبة : «وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الامام جعفر الصادق كل ما يحتاجون اليه ، وكل ما يكون الى يوم القيامة » اه وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر ، وخالف هذا المذهب أبو العلاء المعرى فقال :

لقد عجبوا لاهل البيت لما * أتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم – وهى صغرى – * أرته كل عامرة وقفر

والمسك بفتح الميم الجلد ، والجفر بفتح الجيم ما بلغ أربعة أشهر من أولاد المعز وكانت عادتهم فى ذلك الزمان أنهم يكتبون فى الجلود وما شاكلها لقلة الاوراق يومئذ .

وقال ابن خلدون : كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضى الله عنه ولا عرف عينه ، وانما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل . ولو صح السنة الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه . فهم أهل الكرامات رضى الله عنهم

الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي و اوليتها

اعلم ان بنى عبد المومن ليسوا من المصامدة ، وانما هم من كومية ، ثم من بنى عابد منهم وكومية ، ويعرفون قديما بصطفورة بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر ، فهم بنو عم زناتة يجتمعون فى ضرى بن زجيك . هذا هو الصحيح . وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المومن الى قيس عيلان بن مضر ، وهو ضعيف

قال ابن خلدون : «كان عبد المومن بن بنى عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم » قال : «وموطنهم بتاكرارت وهو حصن فى الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق »

وقال ابن خلكان : «كان والد عبد المومن وسيطا فى قومه ، وكان صانعا فى عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها، وكان عاقلا من الرجال وقورا»

ويحكى ان عبد المومن فى صباه كان نائما تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دويا فى السماء ، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المومن ، وهو نائم فغطته ، ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أمه على تلك الحال ، فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه ؛ فقالت : «اخاف عليه » فقال : «لا بأس عليه ، بل انى متعجب مما يدل عليه ذلك» ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل ، فطار عنه بأجمعه ، فاستيقظ الصبى ، وما به من ألم ! فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثرا ! ولم يشك ألما !

وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه اليه فأخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر : «يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب » فكان من أمره ما اشتهر

وقد تقدم لنا أن المهدى كان عنده كتاب الجفر ، وكان فيه أن أمره

لا يتم الا على يد رجل اسمه كذا ، وحليته كذا ، وهو عبد المؤمن بن على . فأقام المهدى يتطلبه مدة الى أن لقيه بملالة ، وعبد المؤمن اذذاك شاب حدث طالب علم ، فلازم المهدى واستمسك بغرره الى أن كان من أمره ما كان .

وكان المهدى يتفرس فيه النجابة وينشد اذا أبصره :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة ، والكف مانحة ، والنفس واسعة ، والوجه منبسط

والبيتان لابى الشيص الخزاعى . وكان يقول لاصحابه : صاحبكم غلاب الدول ! وكان يقول : عبد المؤمن من صديقى هذه الدائرة !

وقال ابن خلدون : « آثر المهدى عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعى للتعليم ، حتى كان خالصة المهدى وكنز صحابته ، وكان مؤمله لخلافته لما أظهره عليه من الشواهد المؤذنة بذلك . وفى ذلك يقول ابن الخطيب :

وخلف الامر لعبد المؤمن فانقادت الدنيا له فى رسن
حباه بين القوم بالامارة اذ وضحت له فيه الأمارة

ولما اجتاز المهدى فى طريقه الى المغرب بالثعالبة - عرب الجزائر - أهدوا اليه حمارا فارها يركبه لانه كان ساعيا على رجليه ، فكأن يوثر به عبد المؤمن ويقول لاصحابه : « أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة ! »
وزعم بنو عبد المؤمن أن المهدى كان استخلفه من بعده . وقال ابن خلكان : « لم يصح أنه استخلفه وانما راعى أصحابه فى تقديمه اشارته فتم له الامر . » والله أعلم .

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها

لماتوفى المهدى فى التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه ، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل .

ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة الى الخلافة بعده ، وكانوا من قبائل شتى ، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها ، وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها ، فتنافسوا فى ذلك ، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق ، وأن تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم ، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريبا بين أظهرهم ، ليس من المصامدة لان المصامدة من البرانس ، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر ، فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدى اليه وايثاره على غيره فتم له الامر .

وقال ابن خلدون : « لما مات المهدى خشى أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن . لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأوا الامر الى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم ، وكتموا موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه ، ويقيمون سنته فى الصلاة والحزب الراتب ، ويدخل أصحابه الى بيته كأنه اختصهم بعيادته ، فيجلسون حوالى قبره ، ويتفاوضون فى شؤونهم ، ثم يخرجون لانفاذ ما أبرموه ، ويتولى ذلك عبد المؤمن . حتى اذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم ، وتمالأ من بقى من العشرة على تقديم عبد المؤمن ، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس . فأظهروا للناس موت المهدى وعهده لصاحبه ، وانقاد بقية أصحابه لذلك ، وروى لهم يحيى بن يغمور أنه كان يقول فى دعائه اثر صلواته : « اللهم بارك فى الصاحب الافضل » فرضى الكافة وانقادوا له واجمعوا على بيعته .

وزعموا (١) أن عبد المؤمن استعمل فى ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك أنه عمد الى طائر وأسد فضراهما حتى أنسابه ، وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له : « النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين !» وعلم الاسد أن يبصبص اه ويتمسح به كلما رآه ! ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الالفة واجتماع الكلمة ، وحذرهم عاقبة البغى والخلاف ، وبينما هو فى ذلك اذ أرسل سائس الاسد أسده ، وصفر صاحب الطائر لطائره ، فبصبص هذا ! وأعلن بالنصر هذا ! فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة فى أمره وثباتا على بيعته ، مع ما كان من تقديم المهدى له فى الصلاة أيام مرضه ، وفى ذلك يقول بعضهم :

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد ... ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم ... فقضى حقكم حين وفد

والله أعلم .

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما من ربيع الاول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل . وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدى، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين؛ لم يتخلف عن بيعته منهم أحد ، فاستوسق له الامر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد افريقية الى برقة ، وبلاد الاندلس بأسرها ، وخطب له على منابر هذه الاقاليم كلها على ما سيأتى تفصيله ان شاء الله .

ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبى ، ثم غزا بلاد

---

[١] قد نقل العلامة المقرى عن تاج الدين بن حمويه السرخسى فى رحلته إلى المغرب الاقصى أن هذه القصة وقعت ليعقوب المنصور الموحدى وذلك أن قوما من الغرباء قصدوه ومعهم حيوانات معلمة منها أسد وغراب فربض الاسد بين يدى المنصور ودعا الغراب له بالنصر فقال بعضهم الابيات المذكورة وهذا هو الصحيح لان السرخسى يحدث عن مشاهدة لوجوده من زمن المنصور انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٧٣٩ .

درعة فاستولى عليها ، ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها ، ثم تسابق الناس الى دعوته أفواجا ، وانتقضت البربر على المرابطين فى سائر أقطار المغرب . وكان ما نذكره :

غزوة عبد المؤمن الطويلة التى استولى فيها على المغربين

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة التى مكث فيها سبع سنين ، وأجلت عن فتح المغربين معا الاقصى والاوسط . خرج لها من تينملل فى صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة . فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويذلل صعابها الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة .

وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل ، وخرج تاشفين بن على فى اتباعه من مراكش على طريق السهل الى أن وصلا الى تلمسان حسبما قدمناه فى أخبار المرابطين .

قال ابن خلدون : خرج عبد المؤمن فى هذه الغزوة من تينملل يعنى على طريق الجبل كما قلنا ، وخرج تاشفين بن على – يعنى فى حياة والده بعساكره يحاذيه فى البسيط – والناس يفرون منه الى عبد المؤمن ، وهو يتنقل فى الجبال فى سعة من الفواكه للاكل والحطب للدفء ، الى أن وصل الى جبال غمارة ، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب ، وأقشعت الرعايا عن البلاد ، وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة الاندلسية ، وهلك خلال ذلك أمير المسلمين على بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وولى بعده ابنه تاشفين بن على المذكور وهو فى غزاته هذه .

وفى القرطاس : « ارتحل عبد المؤمن الى جبال غمارة ، وارتحل تاشفين بن على فى أثره ، فنزل بازاء عين القديم وذلك فى فصل الشتاء .

فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم ، وهدموا بيوتهم وخيامهم » انتهى .

ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة ـ منهم عامل تلمسان يحيى بن اسحق المعروف بآنكمار ـ ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا فى دعوته ، فنبذ اليهم المرابطون العهد والى سائر مسوفة . واستمر عبد المؤمن على حاله ، فنازل سبتة فامتنعت عليه . وتولى كبر دفاعه عنها القاضى أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر ، وكان رئيسها يومئذ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه .

قال ابن خلدون : « ولذلك سخطته الدولة ـ يعنى دولة الموحدين ـ آخر الايام حتى مات مغربا عن سبتة مستعملا فى خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمه الله . وتمادى عبدالمؤمن فى غزاته الى جبال غياثة وبطوية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى الى بلاد زناتة فاطاعته قبائل مديونة ، وكان قد بعث اليهم جيشا من الموحدين الى نظر يوسف بن وانودين ، فخرج اليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة ، فهزمهم الموحدون ، وقتل ابن فانوا وانفض جمع زناتة ورجعوا الى بلادهم . وولى تاشفين بن على على تلمسان أبا بكر بن مزدلى ، وقدم على عبد المؤمن ـ وهو بمكانه من الريف ـ أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر ـ من أمراء بنى ومانوا من زناتة ـ فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين فى عسكر ، فأثخنوا فى بلاد بنى عبد الواد وبنى يلومى من زناتة سبيا وأسرا ، ولحق صريخهم بتاشفين بن على ، فأمدهم بعساكر لمتونة ـ ومعهم الروبرتير قائد الروم ـ ونزلوا منداس ، وانضمت اليهم قبائل زناتة من بنى يلومى ، وبنى عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر واخوانهم بنى توجين وغيرهم ، فأوقعوا ببنى ومانوا وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ فى ستمائة من قومه ، واستنقذوا غنائمهم ، وتحصن الموحدون وفل بنى ومانوا بجبل سيرات .

ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخا بعبد المؤمن ومستجيشا به على لمتونة وزناتة . فارتحل معه عبد المؤمن الى تلمسان ثم أجاز الى سيرات .

وقصد محلة لمتونة وزناتة فأوقع بهم ، ورجع الى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطرى ، ونزل تاشفين بن على بالسهل مما يلى الصفصاف ، ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب ، أمدوا به تاشفين بن على وقومه لعصبية الصنهاجية ، وفى يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين ، وكان يدل باقدام . فعرض بلمتونة وأميرهم تاشفين بن على لقعودهم عن مناجزة الموحدين ، وقال : « انما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومى » فامتعض تاشفين بن على من كلمته وأذن له فى المناجزة ، فحمل على القوم ، فركبوا وصمموا القائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره . وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير فى عسكر ضخم ، فأغار على قوم من زناتة كانوا فى بسيط لهم فاكتسحهم ورجع بالغنائم ، فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتلوا الروبرتير فى جملتهم .

ثم بعث تاشفين بن على بعثا آخر الى جهة أخرى ، فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين . واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل .

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن على اللمتونى فأجمع الرحلة الى وهران ، وبعث ابنه - ولى عهده - ابراهيم بن تاشفين الى مراكش فى جماعة من لمتونة ، وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ، ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون الى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل ، فأرسى قريبا من معسكره ، وزحف عبد المؤمن من تلمسان ، وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدموا الى

بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم ، وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة ، فأثخن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا فى دعوتهم . ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم ، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بنى يلومى ، وحمامة بن مطهر شيخ بنى عبد الواد وغيرهم ، فتلقاهم بالقبول وسار بهم فى جموع الموحدين الى وهران ، فبيتوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم ، ولجأ تاشفين الى رابية هنالك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى اذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فتردى به من بعض حافات الجبل ، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبعث برأسه الى تينملل ونجا فل العسكر الى وهران ، فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمهم الله . وبلغ خبر مقتل تاشفين بن على الى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج فى آخرين من أعيانهم ، ففر معهم من كان بها من لمتونة .

ولما وصل عبد المؤمن الى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد أن كان بعثوا ستين من وجوههم فلقيهم يصليتن من مشيخة بنى عبد الواد فقتلهم أجمعين . وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين .



فتـــح مدينـــة فـــاس

نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم يزل محاصرا لتلمسان والفتوح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة ، الى أن اعتزم على الرحيل الى المغرب . فترك ابراهيم بن جامع محاصرا لتلمسان ، وقصد مدينة فاس سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى بن أبى بكر الصحراوى من فل تاشفين بن على من وهران ، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكرا لحصار مكناسة ، ثم نهض فى اتباعه وترك عسكرا من الموحدين على فاس ، وعليهم الشيخ أبو حفص ، وأبو ابراهيم من صحابة المهدى العشرة محاصروها سبعة أشهر . ثم داخلهم ابن الجيانى فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا ، وفر يحيى بن أبى بكر الصحراوى الى طنجة ، ثم أجاز منها الى يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية بالاندلس – وكان واليا على قرطبة من قبل المرابطين – فأقام عنده الى أن كان من أمره ما نذكره . وانتهى خبر فتح فاس الى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع اليها ودخلها .

وحكى صاحب القرطاس فى فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال : وفى سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن فاسا بعد حصار شديد : قطع عنها ماء النهر الداخل اليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الارض وانتهى الى مراكزه منها ثم خرق السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد عن ألفى دار بالتثنية وهلك بها خلق كثير وكاد الماء يأتى على أكثرها ، ثم دخلها عبد المؤمن وأمن أهلها الا من كان بها من المرابطين فانه أمر أن لا يمضى لهم أمان ، وقتلهم قتل عاد . ثم أمر بسور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جدا ، وقال : « انا لا نحتاج الى سور وانما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » فلم تزل فاس لا سور لها الى أن تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه ، ومات

ولما فتح عبد المؤمن فاسا ولى عليها ابراهيم بن جامع الذى خلفه على تلمسان ، فانه لما فتحها ارتحل الى عبد المؤمن فاتصل بـه وهو محـاصر افاس ، ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها ، وكان قد اعترضـه فى طريقـه المخضب بن عسكر شيخ بنى مرين ونالوا منه ومن رفقته ، وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التى استولى عليها عبد المؤمن بوهران ، وكان ابن جامع ذاهبا بها الى تينملل فاعترضه بنو مرين وانتزعوها منه ، وانتهى الخبر
فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة .
بذلك الى عبد المؤمن فكتب الى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر الى بنى مرين ، فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ سى عبد الواد ، فأوقعوا ببنى مرين وقتل المخضب شيخهم .

فتح مراكش واستئصال بقية اللمتونيين

ثـم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامدا الى مراكش فوافته فى طريقه بيعة أهل سبتة ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة ، ومـر على مدينة سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة وثلم سورها كفاس ، ونزل منها بدار ابن عشرة ، وكانت هذه الدار قصرا بديعا بمدينة سلا ، بناه الفقيـه أبو العباس بن القاسم من بنى عشرة ، فشيده وأتقنه ، ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له، وكان بالحضرة يومئذ الاديب ابن الحمارة ولـم يكن أعـــد شيئا ففكر قليلا ثم قال :

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة	فحل فيها حلول الشمس فى الحمل
فما كدارك فى الدنيا لذى أمـل	ولا كدارك فى الاخرى لذى عمل

وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم . ثـم تمادى عبد المؤمن الى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة ، فأثخن فيهم ورجع

فلقيه فى طريقه وانتهوا جميعا الى مراكش ، وقد انضم اليها جموع لمطة، فاوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلا ، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم ؛ وأقاموا على مراكش تسعة أشهر ، وأميرهم يومئذ اسحق بن على بن يوسف ابن تاشفين، وكانوا قد بايعوا أولا ابراهيم بن تاشفين بن على فألفوه مضعفا عاجزا ، فخلعوه وبايعوا عمه اسحق بن على المذكور ، وهو صبى صغير ؛ ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا الى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل ، فاقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوال سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، وقتل عامة الملثمين ، ونجا اسحق فى جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين ، وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم ، وتولى كبر ذلك أبو حفص ابن واجاج منهم .

وانمحى أثر الملثمين ، واستولى الموحدون على جميع البلاد . وقد قيل فى ترتيب هذه الاخبار غير هذا الوجه .

قال ابن مطروح القيسى : لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياما وذلك فى شوال سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ثم ارتحل عنها الى تادلا ، ثم الى سلا ، فتلقاه أهلها سامعين مطيعين . فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها .

وفى سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين . (١) واعلم أن اللقب كان فى صدر الاسلام خاصا بالخليفة بالمشرق من بنى أمية أو من بنى العباس بعدهم . ولما قام عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين

---

[١] وعبد المؤمن هذا هو أول من تسور على اللقب بأمير المومنين من غير جنس العرب ، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى ، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه . أنظر تحقيق القول فى هذا المبحث فى مقدمة تاريخنا المغربى .

بأفريقية تسمى بأمير المؤمنين لانه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بنى العباس المعاصرين له بالمشرق ، فهو أول من زاحم الخليفة فى هذا اللقب ، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمن الناصر الاموى صاحب الاندلس ، ورأى أن له فى الخلافة حقا اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما - أعنى العبيدى والاموى - قرشى من عبد مناف ، ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المومنين لانه لقب الخليفة الاعظم القرشى كما علمت ، الى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والاندلس ، وعظم سلطانه واتسعت مملكته ، وخاطب الخليفة العباسى بالمشرق فولاه على ما بيده ، وتسمى بأمير المسلمين أدبا مع الخليفة حسبما أشرنا اليه سالفا ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها ، وحتى سامها كل مفلس

وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا ، فبنيت وحصن سورها ، ثم كانت محاربته لتاشفين بن على على نحو ما أسلفناه . والله تعالى أعلم .

ثورة محمد بن هود السلاوى المعروف بالماسى

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوى رجلا من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمسارا بها يبيع الكنابيش ، وكان هو قصارا بها مدة ، ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش ، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ، ودعا لنفسه وتسمى بالهادى ، وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة ، فأقبل اليه الشراد من كل

جانب ، وانصرفت اليه وجوه الاغمار من أهل الآفاق ، وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة ، وفشت ضلالته فى جميع المغرب .

قال فى القرطاس : بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن الا مراكش ، فسرح اليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن اسحق أنكمار النازع اليه من ايالة تاشفين بن على حسبما تقدم ، فالتقى بالماسى وقاتله فانتصر الماسى عليه وعاد مهزوماً الى عبد المؤمن ، فسرح اليه عبد المؤمن ثانيا الشيخ أبا حفص الهنتاتى فى جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم ، واحتفل عبد المؤمن فى الاستعداد . ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وشيعه عبد المؤمن الى وادى تانسيفت ، ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص فى جيوش الموحدين حتى انتهوا الى رابطة ماسة فبرز اليهم محمد بن هود فى نحو ستين ألفا من الرجالة وسبعمائة من الفرسان ، فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم ، وقتل محمد بن هود فى المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه ، وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، وكان الذى باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش ، فلقبه الموحدون سيف الله تشبيها له بخالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكتب الشيخ أبو حفص الى عبدالمؤمن برسالة الفتح من انشاء الفقيه أبى جعفر بن عطية القضاعى الكاتب المشهور يقول فيها : « كتابنا هذا من وادى ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القديم ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح بهر الانوار اشراقا ؟ وأحدق بنفوس المؤمنين احداقا ، ونبه للامانى النائمة جفونا وأحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا ؟ جمع أشتات الطلب والأرب ، وتقلب فى النعم أكرم

منقلب ، وملأ دلاء الامل الى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء لـه وتبـرز الارض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كـان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفـر معنى واسما ، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا اثما ، وكان مقدمهـم الشقى قـد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبلاته ؛ فأتته المخاطبات من بعد وكثب ، وانسلت اليه الرسل من كـل حدب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم الى ذلـك ؛ وأوردهم تلك المهالك ؛ وصول من كان بتلـك السواحـل ، ممـن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس ، فيما سلف من الاعوام ، واشتغل على زعمـه بالقيام والصيام ؛ آناء الليالى والايام ، لبسوا النـاموس أثوابـا ، وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا . »

ومنها في ذكر صاحبهم الماسى المدعى للهداية : « فصرع بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرت اليه بوادر منونه ، وأتته وافدات الخطايا عـن يساره ويمينه ؛ وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية فى هـذه الاعوام لا تصيبه : والنوائب لا تنوبه ! ويقول فى سواه قولا كثيرا ، ويختلق على الله تعالى افكا وزورا ! فلما رأوا هيئة اضطجاعه ، وما خطتـه الاسنة فى أعضائـه واضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه ؛ هزم من كان لهم من الاحزاب ؛ وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب ، وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ، ولم تقطـر كلومهم الا على الاعقاب « فامتلأت تلك الجهات بأجسامهـم ، وآذنت الآجـال بانقراض آمادهـم ، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم الا من خر صريعا ، وسقى الارض نجيعا ؛ ولقى من أمر الهنديات فظيـعا ، ودعت الضرورة باقيهم الى الترامى فى الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعا فى الخروج الى ما ينجيه ؛ اختطفته الاسنة اختطافا ، وأذاقته مـوتا

ذعافا ، ومن لج فى الترامى على لجحه ؛ ورام البقاء فى ثبجه ، قضى عليه شرقه ، وألوى بذقنه غرقه ؛ ودخل الموحدون الى البقية الكائنة فيـــه ، يتناولون قتلهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيما وكربا ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات المـاء ، وحكت حمرتها عــلى زرقته ؛ حمرة الشفق على زرقة السماء ، وجزت العبرة للمعتبر ، فى جرى ذلك الدم جرى الابحر ! »

وبالجملة فهى رسالة بليغة ، وهى التى أورثت منشئها الرتبة العلية ، والمنزلة السنية ، فان عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعا كبيرا ، فاستكتبه أولا ؛ ثم استوزره ثانيا ، ثم نكبه وقتله ثالثا كما سيأتى .

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياما ثم خرج غازيا بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة ، وأثخن فيهم بالقتل والسبى حتى أذعنوا للطاعة ورجع

ثم خرج الى هسكورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم .

ثم نهض الى سجلماسة فاستولى عليها ورجع الى مراكش .

ثم خرج ثالثة الى برغواطة فحاربوه مدة ، ثم هزموه ، واضطرمت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره .

انتقاض أهل سبتة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمه الله معهم

قد تقدم لنا أن عبد المؤمن كان غزا سبتة فى غزوتـه الطويلة ، وان القاضى عياضا رحمه الله دافعه عنها ، وانه لما قتـل تاشفين بن على وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة فى جملة من بايع من أمصار المغرب .

قالوا : « وبادر القاضى عياض الى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة

سلا حين كان ذاهبا لفتح مراكش فأجزل صلته ، وولى على سبتة يوسف بن مخلوف التينمللى وساكن الموحدون أهل سبتة فى ديارهم واطمأنوا اليهم .

فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضا ، وكان انتقاضهم كما فى القرطاس - برأى القاضى عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار .

وركب القاضى عياض البحر الى يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية ؛ وكان معتصما بقرطبة متمسكا بدعوة المرابطين ، فلقيه وأدى اليه البيعة ؛ وطلب منه واليا على سبتة فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوى الذى كان معتصما بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها ، ففر ولحق بأبن غانية كما قلنا ، وبقى فى جملته الى أن بعثه مع القاضى عياض فى هذه المرة فدخل يحيى سبتة وقام بأمرها .

ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الاخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبى حفص خرج من مراكش قاصدا بلاد برغواطة أولا ، ثم من بعدهم ثانيا ، فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن اليهم ، فكتبوا الى يحيى بن أبى بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم ، فأتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه ، ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة ؛ وتبرأوا من يحيى الصحراوى ولمتونة ، وفر الصحراوى الى منجاته ، ثم طلب الامان من عبد المؤمن وتشفع اليه بأشياخ القبائل فأمنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه ، وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط فى أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم الى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبتها تائبين ، فعفا عنهم وعن القاضى عياض ، وأمره بسكنى مراكش ، والصحيح أنه ولاه

القضاء بتادلا ثم دخل مراكش ، قيل دخلها مريضا مرض موته ، وقيل مات بالطريق وحمل اليها ؛ وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا .

واعلم أن ما صدر من القاضى عياض رحمه الله فى جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم فى الامر والامامة وانماهم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح . ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن على أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضى عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن ، ودافعه عن سبتة اذ لا موجب لذلك لان بيعة تاشفين فى أعناقهم وهو لا زال حيا ، فلا يعدل عن بيعته الى غيره بلا موجب .

وأما ما غالط به المهدى رحمه الله من أن المرابطين مجسمة ، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار ، فضلا عن أن تكون طاعتهم واجبة ، سفسطة منه عفا الله عنا وعنه !

ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضى عياض حينئذ وقبل صلته ، لان من قويت شوكته وجبت طاعته .

ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام الماسى عليه واجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضى بأهل سبتة عن بيعته الى طاعة المرابطين الذين لهم الحق فى الامامة بطريق الاصالة ، ولم يأخذ بدعوة الماسى لانه ثائر أيضا ، هذا مع ما كان ينقل عن المهدى من أنه غلبت نزعة خارجية عليه ، وانه يقول بعصمة الامام وذلك بدعة كما لا يخفى ، فتكون امامته وامامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية ، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة . فالحاصل أن ما فعله القاضى عياض أولا وثانيا وثالثا كله صواب موافق للحكم الشرعى ، فهكذا ينبغى أن تفهم أحوال أئمة الدين ، وأعلام المسلمين رضى الله عنهم ونفعنا بعلومهم .

وأما القتل والتحريق الذى صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضى عياض رحمه الله أنه لا يوفق على ذلك ولا يرضاه ، لكن العامة تتسرع الى مجاوزة الحدود ، لاسيما أيام الفتن ، وذلك معروف من حالهم والله الموفق .

ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم اياها سبع سنين : اقتحموها عنوة يوم الاربعاء ثالث جمدى الاولى من السنة المذكورة فخربت وقتل أكثر رجالها وسبى حريمهم وخمست أموالهم ، ثم بنيت مكناسة تاكرارت المدينة الموجودة الان .

اخبار الاندلس وفتوحها

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاسا بعث الى الاندلس جيشا من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين .

وقال ابن خلدون : بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشا من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسوفى النازع الى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن على ، وعقد له على حرب الاندلس ومن بها من لمتونة والثوار ، وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد ، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجى .

ولما أجازوا الى الاندلس نزلوا بأبى الغمر بن عزرون ، صاحب شريش ، فكان أول بلد فتحوا من الاندلس بلد شريش . خرج اليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل فى طاعته ، فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الاولين . وحررت أملاكهم ، فلم تزل محررة سائر أيامهم ، فلم يكن فى أملاكهم رباعة

وجميع بلاد الاندلس مربعة . وكان ملوك الموحدين اذا قدم عليهم وفود الاندلس كان أول من ينادى منهم أهل شريش ، فكان يقال : أين السابقون ؟ فيدخلون للسلام ، فاذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذ ، وكان فتح شريش فاتح ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

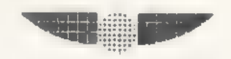
ثم زحف الموحدون الى لبلة ، وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجى ، فبذل لهم الطاعة ؛ ثم زحفوا الى شلب ففتحوها ، ثم نهضوا الى باجة ، وبطليوس ، ففتحوهما أيضا ؛ ثم زحفوا الى اشبيلية فحاصروها برا وبحرا الى أن فتحوها فى شعبان سنة احدى وأربعين وخمسمائة ؛ وفر من كان بها من المرابطين الى قرمونة ، وقتل من أدركه القتل منهم ، وقتل فى جملتهم عبد الله ولد القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى الحافظ المشهور : وأصيب فى هيعة تلك الدخلة من غير قصد .

وكتب الموحدون بالفتح الى عبد المؤمن ، ثم قدم عليه وفدهم بمراكش مبايعين له سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ورئيس الوفد يومئذ القاضى أبو بكر بن العربى المذكور ، فألفوا عبد المؤمن مشغولا بحرب محمد بن هود الماسى ، فأقاموا بمراكش سنة ونصفا ، لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الاضحى من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة ، ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص ، وقبلت بيعتهم .

وسأل عبد المؤمن القاضى أبا بكر بن العربى عن المهدى هل كان لقيه عند الامام أبى حامد الغزالى ، فقال : « ما لقيته ، ولكن سمعت به » فقال له : فما كان أبو حامد يقول فيه ؟ » قال : « كان يقول : « ان هذا البربرى لابد أن سيظهر ! » ثم صرف عبد المؤمن أهل اشبيلية بعد أن أجازهم ، وكتب لهم منشورا بتحرير أملاكهم ، فانصرفوا عنه فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، فلما قربوا من مدينة فاس توفى

الامام أبو بكر بن العربى رحمه الله ، فحمل ودفن خارج باب المحروق منها ، بتربة القائد مظفر ، وقبره مزارة الى الان ؟ وعليه قبة حسنة .

وفى هذه السنة ملك الموحدون قرطبة ؟ وكان بها يحيى بن على المسوفى – المعروف بابن غانية – مقيما لدعوة المرابطين ، فلما دخل الموحدون الاندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة فى بلاد الاسلام ، وضايق ابن غانية بقرطبة ، وألح على جهاته ؟ حتى نزل له عن بياسة وأبدة ؟ وتغلب على اشبونة ، وطرطوشة ، والمرية ؟ وماردة ، وأفراغة ؟ وشنترين ، وشنتمرية ؟ وغيرها من حصون الاندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الافراج عن قرطبة ، فأرسل ابن غانية الى بدران بن محمد أمير الموحدين ، واجتمعا باستجة ، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة ، وبها ميمون بن بدر اللمتونى فى جماعة من المرابطين ، وأراد أن يكلمه فى الدخول فى طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة ، فتوفى بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ودفن فى القصبة بازاء قبر باديس ابن حبوس الصنهاجى ، وانتهز الطاغية الفرصة فى قرطبة فزحف اليها وحاصرها ، فجهز اليه الموحدون الذين كانوا باشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها ، ووصل اليه مدد يوسف البطروجى من لبلة ، وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث اليها عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور ، ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لايام من مدخله ، وبادر ثوار الاندلس الى يحيى بن يغمور فى طلب الامان من عبد المومن ، ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم ، وصفح لهم عما سلف .



قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة اهل الاندلس عليه بها

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة قدم عبد المؤمن من مراكش الى سلا ، فنظر فى أمرها وأجرى اليها ماء عين غبولة ، حتى وصل الى رباطها ؛ ولم تكن رباط الفتح يومئذ قد بنيت ، لان بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتى ان شاء الله ؛ وانما كان يقال رباط سلا .

ثم أذن عبد المومن لاهل الاندلس فى الوفادة عليه بسلا ، فقدموا عليه فى نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والاشياخ والقواد ، فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاتى ، والوزير الكاتب أبو جعفر ابن عطية ؛ وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة ، فأمر عبد المؤمن بانزالهم ، وأفاض عليهم سجال الاكرام ، وأنواع الضيافات والانعام ؛ وبقوا على ذلك ثلاثة أيام ، ثم اذن لهم فى الدخول فدخلوا عليه أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة ؛ فسلموا عليه .

وأشار الوزير ابن عطية لاهل قرطبة بالتقدم ، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فأراد أن يتكلم فدهش ، ثم وصف حال قرطبة ؛ فقال : « يا أمير المؤمنين ، ان الفنش لعنه الله قد أضعفها »
فتلافاه أبو بكر بن الجد بالخطبة البليغة ، فجلى فى ذلك المجلس ، واستحسن عبد المؤمن خطبته ، ووصل الجميع كلا على قدره ، وقضى مطالبهم ؛ وأوصاهم بما اقتضاه الحال ، وأمرهم بالانصراف الى بلادهم ، فانصرفوا فرحين مغتبطين .

وقال ابن خلدون : « استدعى عبد المؤمن أهل الاندلس ـ وهو بسلا ـ فوفدوا عليه وبايعوه جميعا ، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الامر ؛ مثل سدراتى ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، ويوسف البطروجى صاحب لبلة ، وابن عزرون صاحب شريش ورندة ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، وعامل بن مهيب صاحب طبيرة ،

وتخلف ابن القيسى وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سببا لقتله من بعد ، وانصرف أهل الاندلس الى بلادهـــم ، ورجع عبد المؤمـــن الى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته . والله تعالى أعلم .

غـزو افريقية وفتـــح مدينة بجاية

ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد افريقية بسبب تنازع ملوكها من بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها ، فأجمع الرحلة الى غزوها ، بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه ، فخرج من مـــراكش أواخر سنة ست وأربعـــين وخمسمائة ، واستخلف عليها الشيخ أبـا حفص الهنتـــاتى ؛ وسار حتى وصل الى سلا فأقام بها شهرين ، ثم نهض منها الى سبتة مظهرا أنـــه يريد العبـــور الى الاندلس بقصد الجهاد .

فلما وصل الى سبتة استدعى فقهاء قرطبـــة واشبيلية وأعيان الاندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد ، وأوصاهم بما اليهم منها وودعهم

ورحل عن سبتة مظهرا العود الى مراكش ، فسار حتى وصل الى القصر الكبير ؛ وهو قصر كتامة ، فميز جيوشه وأزاح عللهم وفرق فيهـــم الاموال ، وأمرهم بتجديد الازواد ؛ وخرج يعتسف البلاد على غير طريق فجعل مدينة فاس عن يمينه ، وجد السير حتى خرج على وادى ملوية ، ثم سار الى تلمسان فأقام بها يوما واحدا ، ثـــم خـــرج منها وولى السير قاصدا بجاية ؛ فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها ، فدخلها وأمنهم ، وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز الى أبيه يحيى ببجاية .

وخرج الى عبد المؤمن الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهـدية ، وكان الفرنج قد أخرجوه منها ، فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب

بجاية فعدل به الى الجزائر وأنزله بها كالمسجون . فلما طرق عبد المؤمن الجزائر فى هذه المرة خرج اليه الحسن بن على المذكور ، فصحبه ووصل يده بيده ، حتى كان من أمره ما نذكره ان شاء الله .

ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بام العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها ، وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجى آخر ملوك بنى حماد أصحاب القلعة . فركب البحر فى أسطولين كان أعدهما لذلك ، واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله ، وعزم على المسير الى مصر ؛ ثم عدل الى بونة فنزل على أخيه الحارث ، فأنكر عليه سوء صنيعه وافراجه عن البلد ، فارتحل عنه الى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الامر .

وفى خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة ، وكان عبد المؤمن وجه جيشا من الموحدين اليها وأمر عليهم ابنه أبا محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران فى مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفا ؛ وامتلأت أيدى الموحدين من الغنائم والسبى ، ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الاثبج وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف ، فأوقعوا بهم واستلحموهم وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم .

وأما يحيى بن العزيز فانه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسمائة . ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له عبد المؤمن ونقله الى مراكش بأهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الاحسان ، وأنزله منزلة رفيعة ، ثم انتقل الى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فسكن بقصر ابن عشرة منها الى أن مات من سنته رحمه الله .

ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبراء العرب من أهل افريقية طائعين ، فوصلهم ورجعوا الى قومهم ، مغتبطين .

فتـــح المريـــة وبياسة وابـــدة

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالاندلس ، فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص الى الاندلس فى جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد ـ وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهـم بالسادة ـ فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار ، وبنـى السيد أبو سعيد على محلتـه سورا ، واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغاثهم بمحمـد بن مردنيش ـ وكان واصلا يده بيده ـ ووجه معه السلطين أحد قواد الفرنج فى جيش كثيف ، فلم يتمكنوا من البلـد ولا من محلة الموحديـن لكونها محصنـة السور . فرجع ابن مردنيش والسلطين بخفى حنين وافترقا فلـم يجتمعا بعـد .

ثم عمد السلطين الى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفا عليهم ؛ ورجع عوده على بدئه . وأما السيد أبو سعيد فانه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الامان بواسطة الوزير ابن عطية .

وفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وجه عبد المؤمن على يصليتـن قريب المهدى فأتى به مكبولا من سبتة ، فأمر بقتله وصلبه ببـاب مراكش لامـر نقمه عليـه .

ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل يصليتن الى تينملل بقصد زيارة قبر المهدى ، فزار وفرق فى أهـلها أموالا عظيمـة ، وأمر ببـناء مسجـدها وتوسعتـها .

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا وتولية اولاده على النواحي بها

لما قضى عبد المؤمن أربه من تينملل ارتحل منها الى سلا ، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها ، فبايع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولاية العهد ، وأمر أن يذكر في الخطبة بعده ، وكتب بذلك الى جميع الآفاق .

ثم عقد لابنه السيد ابى الحسن على على فاس وأعمالها ، واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان . وعقد لابنه السيد أبى حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين ، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش . وعقد لابنه السيد أبى سعيد عثمان على سبتة وطنجة ، واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان ، وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى ، واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسى ، وأبا بكر بن حبيش الباجى . وعقد لابنه السيد أبى محمد عبد الله على بجاية وأعمالها ، واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن . وعقد للشيخ أبى زيد بن يكيث على قرطبة وأعمالها ، ويقال ان قرطبة كانت فى هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور والله أعلم .

واستقامت الاحوال لعبد المؤمن وبنيه ، وصفا له المغربان والاندلس والله غالب على أمره .



إيقاع عبد المؤمن بعبد العزيز وعيسى اخوي المهدى والسبب في ذلـك

كان عبد العزيز وعيسى أخو المهدى من مشيخة العسكر ووجوه الجيش باشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم . ثم ساء أثرهما بها ، واستطالت أيديهما على أهلها ، واستباحا الدماء والاموال ؛ ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجى صاحب لبلة ، فلحق بلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم الى المرابطين، ونشأ عن ذلك فساد كبير بالاندلس ؛ ثم لحق أخوا المهدى بالعدوة فى خبر طويل :

واستمر حالهما الى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد ، وعقد لاخوته على العمالات والنواحى ، ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك ، مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما يصليتن ، وكانا يومئذ بفاس وعبد المؤمن بسلا ، فخرجا من فاس الى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر .

واتصل خبر خروجهما بعبد المؤمن ، فخرج من سلا فى أثرهما متلافيا أمر مراكش ، وقدم أمامه وزيره أبا جعفر ابن عطية ، فسبقاه اليها وداخلا بعض الاوباش بها فى شأنهما ، فوثبوا بعاملها أبى حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبة .

ووصل على اثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره ، فأطفآ تلك النائرة ، وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسى فقتلهما وصلبهما، وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد .

ايقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة واسرافه في ذلك

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلـــة ، وكان المتولى لفتحها يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية ، حاصرها مدة ثم اقتحمها عنوة ، وقبض على أهلها فخرج بهم الى ظاهر المدينة ، وصفهم في صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتـل منهـم الى الفقيه المحدث أبى الحكـام بن بطـــال ، والفقيه الصالح أبى عامـــر ابن الجـــد .

وكان عدد من قتل من أهل لبلة في ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل بأحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وابناؤهم وأمتعتهم واسلابهم فعل ذلك افتياتا على عبد المومن ! وبلغه الخبر وهو بمراكش ، فسخطه . وبعث اليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلا الى الحضرة يوم عيد الفطر، فألزمه بيته وبقى على ذلك مدة ثم عفا عنه وسرحه مـع ابنه السيد ابـى حفص الى تلمسان . ولم يصرف الى أهل لبلة شيئا مما أخذ لهم واستقام أمر الاندلس ونزل ميمون بن بدر اللمتونى عن غرناطة للموحدين فملكوها ، وأجازاليها السيد ابو سعيد صاحب سبتة ،بعهد أبيه عبد المومن اليه بذلك ولحق المأمون بمراكش .



أمر [١] عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الاصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر امير المومنين عبد المون بن على باصلاح المساجد وبنائها فى جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ماكانت . وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث واستنباط الاحكام منها ، وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا .

نقل المصحف العثمانى من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة ثم بجامعها الاعظم المشهور مصحف أمير المومنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن بشكوال وغيره وكان ذاك المصحف الكريم متداولا عند بنى أمية وأهل الاندلس ، واستمر بقرطبة الى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن الى مراكش .

قال ابن بشكوال : « أخرج المصحف العثمانى من قرطبة وغرب منها ، وكان بجامعها الاعظم ليلة السبت الحادى عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين

[١] الذى فى كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى : ان يعقوب المنصور هو الآمر بذلك ، فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لاول الامر ، لكن الظاهر من كلام المراكشى أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المومن وابنه يوسف ، إلَّا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب بعدهما اه . وما ذكره المؤلف هنا منقولا عن صاحب القرطاس . وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع .

وخمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الاربعة التى بعث بها عثمان رضى الله عنه الى الامصار : مكـة ؛ والبصرة ؛ والكوفه ؛ والشام . وما قيل من أن فيه دم عثمان بعيد وان يكن أحدها فلعله الشامى » .

قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبى السبتى : « أما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق ، وعاينته هنا لك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكى بقبة الشراب » . قال : « فعله الكوفى أو البصرى »

قال الخطيب ابن مرزوق فى كتاب المسند الصحيح الحسن: «اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الاندلس ، فألفيت خطهما سواء ؛ وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها ؛ وانما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ، ونص ما على ظهره : هذا ما اجمع عليه جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بـن الزبير ، وسعيد بـن العاص ؛ وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله عنهم على كتب المصحف » اهـ

وكان من خبر نقله الى مراكش ما ذكره ابن رشيد فى رحلته عن أبـى زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بـن طفيل القيسى عن كتاب جده الوزير أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور ، قال : « وصل الى عبد المومن ابناه السيدان أبو سعيد ، وأبو يعقوب من الاندلس ؛ وفى صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضى الـلـه عنه وهو الامام الذى لم يختلف فيه مختلف ، فتلقى وصوله بالاجلال والاعظام وبودر اليه بما يجب من التبجيل والاكرام .

وكان فى وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لاولى الالباب . وذلك ان أمير المومنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قـد جرى ذكره فى خاطره ، وتروى مع نفسه فى كيفية جلبه من مدينة قرطبـة محل مثواه القديم ، فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطـر بفراقـه ؛ ويستوحشوا

لفقدان اضاءته واشراقه ، فوقف عن ذلك نأوصله الله اليه تحفة سنية ؛ وهدية هنية ، دون أن يكدرها من البشر اكتساب ؛ أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب . بل أوقع الله تعالى فى نفوس أهل ذلك التقطر من الفرح بارساله ، ما أطلع بالمشاهدة على صحة صدقه ، وعضدت مخايل برقه ، سواكب ودقه ؛ وعد ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته

ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع فى انتخاب كسوته واحتيار حليته ، فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والاندلس ؛ فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ! ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب الى الحذق فى صناعة ، الا أحضر للعمل فيه ؛ والاشتغال بمعنى من معانيه!

وبالجملة ، فقد صنعت له اغشية بعضها من السندس ؛ وبعضها من الذهب والفضة، ورصع ذلك بانواع اليواقيت وأصناف الاحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال . واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك فى غرابة الصنعة وبداعة الصبغة .

واتخذ للمحمل كرسى على شاكلته ، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال ! ووصف ذلك يطول .

وفى خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله ، فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل فى منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ؛ وأحكم البناء والنجارة ، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه ؛ فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلا عن بنائه ! وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور .

ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدى بمدينة تينملل ، فأقام بها بقية شعبان ومعظم رمضان ، وحمل فى صحبته المصحف العثمانى فى التابوت المذكـور ، ومعه مصحف المهدى ؛ وختم القرآن العزيز فى مسجد المهـدى وعند ضريحه ختمات كثيرة ، وعاد الى مراكش

ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه فى أسفارهم متبركين به كتابوت بنى اسرائيل الى أن حمله منهم السعيد وهو على بن ادريس ابن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه الى تلمسان ، آخر سنـة خمس وأربعين وستمائة ، فقتل السعيد قريبا من تلمسان ؛ ووقـع النهب فى الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ؛ ونهب المصحف فى وسبعمائة على يد بعض تجار آزمور ؛ واستمر فى خزانته الى أن سافر أبـو خزائنهم بها الى أن افتتحها السلطان الاعظم أبو الحسن المرينى أواخر شهـر جملة مانهب منه ، وعثر عليه ملوك بنى عبد الواد أصحاب تلمسان ؛ فلم يزل فى خزائنهم بها الى أن افتتحها السلطان الاعظم أبو الحسن المرينى أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله فى أسفاره على العادة الى أن أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد البرتقال ، وأعمل أبو الحسن الحيلة فى استخلاصه حتى وصل الى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار أزمور واستمر فى خزانته الى أن سافر أبـو الحسن سفرته المعلومة الى افريقية فاستولى عليها .

ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب ؛ وذلك فى ابان هيجان البحر ؛ فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر ؛ وضاعت نفائس يعز وجود مثلها ؛ ومن جملتها المصحف العثمانى فكان ذلك آخر العهد به .

ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقبانى ؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ؛ وكان متداولا عند ملوكه ومتبركا به وثانى المصحفين فى المنزلة عند أهل المغرب .

قال أبو عبد الله اليفرنى فى كتاب النزهة : « ان السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبى لما جدد ولاية العهد لولده المأمون بعث اليه بالقدوم من مدينة فاس ؛ فوافاه بتامسنا ؛ وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان وأهل العقد والحل ؛ وأحضر المصحف الكريم الذى هو مصحف عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه » قال :« وهو من ذخائر الخلفاء . وأحضر الصحيحان للشيخين ؛ وقرىء ظهير البيعة وذلك فى شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة . ولم يزل المصحف العقبانى متداولا بين الملوك السعديين الى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور اليها . وتداولته ملوكها الى أن جاء السلطان المولى عبد الله ابن اسمعيل بن الشريف رحمه الله ؛ فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوى ؛ وبعث فى جملتها المصحف المذكور » .

قال صاحب البستان :« ولما سافر الركب النبوى يعنى سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفا ــ بين كبير وصغير ــ كلها محلاة بالذهب ؛ منبتة بالدر واليافوت ؛ ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى ؛ وهو مصحف عقبة ابن نافع الفهرى نسخه بالقيروان من المصحف العثمانى ؛ فوقع هذا المصحف بيد الاشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم الى أن بلغ الى السلطان المولى عبد الله المذكور فغربه من المغرب الى المشرق ؛ ورجع الدرالى صدفه والابريز الى معدنه

قال الشيخ المسناوى :« وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه الى الحجرة النبوية ؛ وظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما » .

ووجه معه السلطان المذكور ألفى حصاة بالتثنية وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلفة الالوان الى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهذه الاخبار وان كانت متباعدة التأريخ فهى متناسبة المعنى ؛ جمعناها هنا لتقف الناظر عليها فى محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة . والله الموفق .

نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوسة ؛ ثم بعد من دانيــة .

وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتبا لامير المسلمين على بن يوسف اللمتونى. ثم لابنه تاشفين من بعده ؛ وتحصل فى قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن .

ولمـا حاصر عبد المؤمن فاسا اعتزم أبــو أحمد هذا الفرار فتقبض عليه فى طريقه ؛ وسيق الى عبد المؤمن فاعتذر ؛ فلـم يقبل عبد المؤمن عذره . وسحب الى مصرعه فقتل رحمه الله .

وكان ابنه أبوجعفر صاحب الترجمة كاتبا لاسحاق بن على اللمتونى بمراكش فشمله عفو أمير المومنين فيمن شمله من ذلك الفل .

وخرج فى جملة الشيخ أبى حفص الهنتاتى حين نهض لقتال محمد بن هود الماسى .

فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المومن فاستحسنها واستكتبه لذلك . ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره ؛ فظهر غناؤه وكفايتــه ؛ وحمدت سيرته وادارته ؛ وقاد العساكر وجمع الاموال وبذلها ؛ وبعد فى الدولة صيته ؛ ونال من الرتبة عند السلطان مالم ينله أحد فى دولته ؛ وتحبب الى الناس باجمال السعى والاحسان ؛ فعمت صنائعه وفشا معروفه . وكان محمود السيرة مبخت المحاولات ؛ ناجح المساعى؛ سعيد المآخذ ميسر المآرب . وكانت وزارته زينا للوقت ؛ وكمالا للدولة رحمه الله .

ثم لماكانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة وفد أشياخ اشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه فى ولاية بعض أبنائه عليهم ، فعقد لابنه السيد أبى يعقوب عليها ؛ وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الامور واصلاح الاحوال، فأغنى فى ذلك الغناء الجميل .

ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل الى التدبير عليه والسعى

به ، حتى أوغروا صدر الخليفة عليه ؛ فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومى ؛ وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد فى التماس عوراته ؛ وتشنيع سقطاته ، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها :

قل للامام أطال الله مدته ... قولا تبين لذى لب حقائقه
ان الزراجين قوم قد وترتهم ... وطالب الثار لم تؤمن بوائقه
وللوزير الى آرائهم ميل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى اطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أنى ناصح لكم ... والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الابيات البليغة فى معناها وغر صدره على وزيره أبى جعفر وأضمر له فى نفسه شرا ، فكان ذلك من أقوى أسباب نكبته وقيل أفضى اليه بسر فأفشاه .

وانتهى ذلك كله الى أبى جعفر وهو بالاندلس فقلق وعجل الانصراف الى مراكش ، فحجب عنده قومه ؛ ثم قيد الى المسجد فى اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم ؛ وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار اليه منهم ؛ فأجاب كل بما اقتضاه هواه ؛ وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية ؛ وتوجه فى أثر ذلك عبد المؤمن الى زيارة تربة المهدى ؛ فاستصحبهما بحال ثقاف .

وصدر عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطائف الآداب نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتربة امامهم المهدى عجائب ؛ فلم تجد شيئا مع نفود الله تعالى تعالى فيه .

ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلا الى مراكش ؛ فلما حاذى تاكمارت أنفذ الامر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنا لك ؛ فمضيا لسبيلهما وذلك فى شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفا له من رسالة من

رسالة تغالى فيها فغالته المنية ؛ ولم ينل الامنية ؛ وهذه سنة الله تعالى فيمن لا يحترم جناب الالوهية ، ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش فى وجه فضل الانبياء على غيرهم ؛ قوله سامحه الله : « تالله لو أحاطت بى كل خطية ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطية ؛ حتى سخرت بمن فى الوجود ؛ وأنفت لآدم من السجود ؛ وقلت ان الله تعالى لم يوحى فى الفلك الى نوح وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا ؛ وبريت لقدار ثمود نبلا ؛ وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ؛ وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ؛ وافتريت على العذراء البتول فقذفتها ؛ وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الاحزاب بالقصوى من العدوة ؛ وأبغضت كل قرشى ؛ وأكرمت لاجل وحشى كل حبشى ؛ وقلت ان بيعت السقيفة ، لا توجب امامة الخليفة ؛ وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ؛ وقلت تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر ؛ وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ؛ وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذا ؛ وبقبر الامام المهدى عائذا ، لاذن لمقالتى أن تسمع ؛ وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ؛ وبالذنب معترف .

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا * بحمل قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وكتب مع ابن له صغير آخرة :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج	ورحمة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلنا غرض	وعطفة منكم أوفى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه	بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة	بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن	والطرف يرهص بعد الركض فى سنن

أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم — من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم — كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر — لم يألفوا النوح فى فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة — والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين !

ومما كتب به من السجن :

أنوح على نفسى أم أنتظر الصفحا؟ — فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا فى ليل من السخط حائر — ولا اهتدى حتى أرى للرضا صبحا!

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه » .

وكان لابى جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا ؛ ولعطية هذا ابن أديب كاتب ، وهو أبو طالب عقيل بن عطية ؛ ومن نظمه فى رجل تعشق قينة كانت ورثت مالا من مولاها فكانت تنفق عليه منه ؛ فلما فرغ المال ملها . فقال أبو طالب :

لا تلحه ان مل من حبها — فلم يكن ذلك عن ود
لما رآها قد صفا ما لها — قال صفا الوجد مع الوجد !

ويروى ان الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المومن ببعض طرق مراكش فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن :

قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت

فقال الوزير مجيزا له :

حوراء ترنو الى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن :

كأنما لحظها فى قلب عاشقها

فقال الوزير : سيف المؤيد عبد المؤمن بن على

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية ، رحم الله الجميع بمنه .

غزو افريقية ثانيا وفتح المهدية وغيرها من الثغور

كانت بلاد افريقية بيد بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها . وفى هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم ، وكثر التنازع بينهم وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الاقطار ، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما . ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهى يومئذ دار ملك الحسن بن على الصنهاجى آخر ملوك بنى زيرى بن مناد ، ففر الحسن عنها الى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر .

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر فى غزوته الاولى الى افريقية خرج اليه الحسن بن على هذا وصحبه وصار فى جماعته ، فكان الحسن يغريه بغزو افريقية واستنقاذها من يد العدو .

وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه الا أنه كان ينتظر ابان الفرصة . فاتفق أن فرنج صقلية أوقعوا بأهل زويلة - وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان - وقعة شنيعة ، حتى أنهم قتلوا النساء والاطفال ! ففر جماعة منهم الى عبد المؤمن بن على وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو .

فلما وصلوا اليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين ، وأنه ليس فى ملوك الاسلام من يقصد سواه ، ولا يكشف هذا الكرب غيره ؛ فدمعت عيناه وأطرق ، ثم رفع رأسه وقال : « أبشروا لانصرنكم ولو بعد حين » وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفى دينار .

ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر فى السفر ، وكتب الى جميع نوابه فى المغرب - وكان قد ملك العدوتين الاندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته الى قرب مدينة تونس - فكتب الى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع فى سنبله ويخزن فى مواضعه وأن يحفروا الآبار فى الطرق ؛ ففعلوا جميع ما أمرهم به ؛ وجمعوا

غلات الحب ثلاث سنين ؛ ونقلوها الى المنازل التى على الطريق ؛ وطينوا عليها فصارت كأنها تلال .

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يـؤم بلاد افريقيـة .

وقال ابن خلدون :«كان عبد المؤمن فى هذه السفرة قد عزم على العبور الى الاندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها ، فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتقاض افريقية ، وأهمه شأن النصارى بالمهدية . فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاتى على المغرب ، وعقد ليوسف ابن سليمان على مدينة فاس ، ونهض يغذ السير الى افريقية ؛ واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقـاتل ومن الاتباع والسوقـة أمثالهم ، وكان هذا الجند يمتـد أميـالا .

وبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا بامام واحد بتكبيرة واحدة ، لايتخلف منهم أحد كائنا من كان.

وقدم بين يديه الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهدية ، وكان قد اتصل به كما قلنا ، فلم يزل يسير الى أن وصل الى مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمدى الآخرة من السنة ، وبها صاحبها أحمد بن خراسان ؛ وأقبل أسطوله فى البحر فى سبعين شينا وطريدة وشلندا .

فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم الى الطاعة فأمتنعوا . فقاتلهم من الغد أشد قتـال . ولما جـن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها الى عبد المـومن يسألونه الامان لاهل بلدهم ، فأجابهم عبد المومن بأن لهم الامان فى أنفسهـم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة ، وأما من عداهم من سائر أهل البلـد فيؤمنهم فى أنفسهم وأهليهم ، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين ! وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله . فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد ، وبعث اليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم ، وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم ؛ وأقام أهل تونس بها على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ! وعرض

عبد المؤمن الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبى قتل وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار الى المهدية وأسطوله يحاذيه فى البحر، فوصل اليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة، وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها ، وقد أخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن ، وامتلأت بالعساكر والسوقة ؛ فصارت مدينة معمورة فى ساعة واحدة ؛ ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها . وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل افريقية ما يخرج عن الاحصاء ، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق مجال القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف فى البحر، وزندها متصل بالبر؛ وكانت الفرنج تخرج شجعانها الى أطراف العسكر، فتنال منه ويعودون سريعا؛ فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربى المدينة يمنعهم من الخروج ، وأحاط الاسطول بها فى البحر ؛ وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها ، وتطوف بها فى البحر ؛ فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا ، وليس لها الا المطاولة وقال للحسن :« كيف نزلت عن مثل هذا الحصن ! ؟ » فقال :« لقلة من يوثق به ، وعدم القوت ؛ وحكم القدر » فقال :« صدقت !».

وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات ، وترك القتال ؛ فلم يمض غير قليل حتى صارفى المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى المعسكر من بعيد يقول :« متى حدثت هذه الجبال ؟» فيقال :« هى حنطة وشعير ! » فيتعجب من ذلك ، وتمادى الحصار .

وفى مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسة وقصور افريقية وما والاها ، وفتح مدينة قابس بالسيف ؛ وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية فى جيش ففتح بلادا أخرى ؛ ثم أطاعه أهل مدينة قفصة ، وقدم عليه صاحبها فوصله بألف دينار. وبالجملة فانه استخلص فى هذه المدة جميع بلاد افريقية من أيدى القائمين بها .

ولما كان الثانى والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء اسطول صاحب

صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد ممدا لاهل المهدية ، وكان هذا الاسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس ، وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه ، فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير الى المهدية ليمدوا اخوانهم الذين بها ، فقدموا فى التاريخ المذكور؛ فلما قاربوا المدينة حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن ، وركب العسكر جميعه ، ووقفوا على جانب البحر ؛ فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم .

ونزل عبد المؤمن الى الارض فجعل يمرغ وجهه ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا فى البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ، وكان أمرا عجيبا وفتحا غريبا .

وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا ، وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجاة ، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى الى آخر ذى الحجة من السنة ، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها الى بلادهم ، وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل ؛ فعرض عليهم عبد المؤمن الاسلام ودعاهم اليه ، فقالوا :« ما جئنا لهذا وانما جئنا نطلب فضلك » وترددوا اليه أياما .

وكان من جملة ما استعطفوه به أن قالوا :« أيها الخليفة ، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة الى ملكك العظيم وأمرك الكبير ، وان أنعمت علينا كنا أرقاء لك فى أرضنا ! » فعفا عنهم ــ وكان الفضل شيمته ــ وأعطاهم سفنا ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء نغرق أكثرهم ، ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير .

وكان صاحب صقلية قد قال :« ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم .» فأهلك الله الفرنج غرقا .

وكان مدة استلائهم على المهدية اثنتى عشرة سنة . فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فكان يقال لهذه السنة سنة الاخماس .

وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوما حتى رتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر والاقوات والرجال والعدد .

واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومى وجعل معه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان صاحبها ، وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله ؛ وأقطع الحسن بها اقطاعا ؛ وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده .

وصفت افريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها فى طاعته من برقة الى تلمسان ، ولم يبق له بها منازع ؛ ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها .

وثنى عنانه الى المغرب أول صفر من السنة المذكورة ، وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد أفريقية مدة مديدة . والله تعالى أعلم .

توظيف عبد المؤمن الخراج على ارض المغرب

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية والمغرب ، فكسر من برقة فى جهة الشرق الى بلاد نول من السوس الاقصى فى جهة الغرب بالفراسخ والاميال ، طولا وعرضا . ثم أسقط فى التكسير الثلث فى الجبال والغياض والانهار والسباخ والحزون والطرق ، وما بقى قسط عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق ، فهو أول من أحدث ذلك فى المغرب عفا الله عنه .

بناء عبد المؤمن جبـــل طارق

كان عبد المؤمن رحمه الله ـ وهو بأفريقية ـ قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه ، وهو جبل طارق ، فبنى وشيد حصنه . وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الاول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكـــورة ، وكمل بناؤه فى ذى القعدة منها .

بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء

لما كان عبد المؤمن قافلا من بلاد افريقية بنى مدينة البطحـاء ، وسبب بنائه اياها أنه لمـا طالب بالموحديـن الاقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهـم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك بـه فى خبائه اذا نـام فأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن أطلع على ذلك الى عبد المؤمـن فأخبـــره الخبر ، وقال له : « دعنى أبت الليلة فى موضعك وأنم عـلى فراشك ، فان نعلوا ما اتفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسى فى حق المسلمين وأجرى فـى ذلك على الله ! وان حصلت السلامة فمن الله تعالى ، ويكون أجرى عـلى قدر نيتى ! » فبات على فراشه ، فاستشهد فى تلك الليلة . فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلا على فراشه ، فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد ، فسارت الناقة يمينا وشمالا حتى بركت وحدها ، فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها ، وأخذ بزمام الناقة فأزيلت عن مبركها ، وحفر قبره فيه ودفن ، وبنيت عليه قبة ، وبنى بازاء القبة جامعا .

ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد ، وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب ، فقبر الشيخ هنالك مزارة عنـد أهل تلك البلاد الى اليوم قاله فى القرطاس .

ولما دخل عبد المؤمن الى تلمسان فى هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومى فسجنه ثم سمه فى جرعة لبن هلك بها من ليلته .

عبور عبد المؤمن الى جبل طارق و السبب في ذلك

كان عبد المؤمن - وهو بافريقية - قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الاندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان ، وأطاعه واليها محمد ابن على الكومى ، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها ، وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع الى قرطبة وخرج ابن يكيت لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله .

فكتب عبد المؤمن الى عماله بالاندلس يخبرهم بفتح افريقية عليه وانه واصل اليهم . فلما نهض من تلمسان فى رجعته هذه عدل الى طنجة فدخلها فى ذى الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وأقام بها الى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها ، فعبر منها الى الاندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين ، واستشرف منه أحوال الاندلس ، ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الاندلس ، فنهض اليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبى حفص الهنتاتى من قرطبة فى جيش كثيف من الموحدين ، ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى ، وخرج الفنش من طليطلة لاغاثته فوجده قد فتح . وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله ، وقتل من عسكره ستة آلاف ، وساق المسلمون السبى الى قرطبة واشبيلية .

وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس ، وباجة ، ويابورة ؟ وحصن القصر ؟ فولى عليها عبد المؤمن محمد بن على بن الحاج وعاد الى مراكش .

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب في ذلك

تقدم لنا أن عبد المؤمن لم يكن من المصامدة ؛ وانما كان من كومية احدى بطون بنى فاتن من البرابرة البتر ، وكانت مواطنهم بالمغرب الاوسط ، الى أن استدعاهم عبد المؤمن الى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

والسبب فى ذلك أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند اليه ، ولا عشير يثق به ويعتمد عليه ؛ أرسل فى خفية الى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرتهم ، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم ، ويأتوه فى أحسن زى وأكمل عدة ، وسرب اليهم الاموال والكسى ؟ فاجتمع منهم أربعون ألف فارس ، ثم أقبلوا الى عبد المؤمن ـ وهو بمراكش ـ برسم خدمته ، والقيام بين يديه .

ولما دخلوا أرض المغرب تشوش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل ، من غير أن يتقدم لهم سبب ظاهر ؛ وتقول الناس الاقاويل ، فسار جيش كومية حتى نزلوا على وادى أم الربيع ، وتسامع الموحدون باقبالهم فارتابوا منهم ؛ وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم ، فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاتى أن يخرج اليهم فى جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم ، فسار حتى لقيهم على وادى أم الربيع فقال لهم : « ما أنتم أسلم لنا أم حرب ؟ » قالوا : « بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير المؤمنين ، نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه » . فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن الخبر ؛ فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا الى لقائهم ففعلوا واحتفلوا لذلك .

وكان يوم دخولهم مراكش يوما مشهودا ؛ فرتبهم عبد المؤمن فى الطبقة الثانية من أهل الديوان ، وجعلهم بين قبيلة تينملل والقبيلة التابعة

لهم ، وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه اذا خرج ويقومون على رأسه اذا جلس ، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم الى انقراضها . والله غالب على أمره .

استعداد عبد المؤمن للجهاد

وإنشاؤه الاساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمه الله

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وافريقية والاندلس وطاعت له سائر الاقطار وخضعت له الرقاب فى البوادى والامصار تفرغ لشأنه ، وتاقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو بلاد الفرنج برا وبحرا ، فأمر رحمه الله فى هذه السنة التى هى سنة سبع وخمسين وخمسمائة بانشاء الاساطيل فى جميع سواحل ممالكه ، فأنشىء له منها أربعمائة قطعة ، فمنها بحلق المعمورة وهى التى تسمى اليوم المهدية ؟ مائة وعشرون قطعة ، ومنها بطنجة وسبتة وباديس ومراسى الريف مائة قطعة ؟ ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة ، ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة .

ونظر فى استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد ، وأمر بضرب السهام فى جميع عمله ، فكان يضرب له منها فى كل يوم نحو عشرة قناطير جدية ! فجمع له من ذلك مالا يحصى كثرة ؛ وفى خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية كما مر .

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المومن من مراكش قاصدا الاندلس برسم الجهاد ، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الاول من السنة المذكورة ، فوصل الى رباط سلا فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم الى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة

ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس ! ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ، ومائة ألف راجل ! فضاقت بهم الارض وانتشرت المحلات والعساكر فى أرض سلا ، من عين غبولة الى عين خميس ؛ الى حلق المعمورة .

فلما استوفيت لديه الحشود ، وتكاملت لديه الجنود والوفود ؛ كان المعنى الذى أشار اليه القائل :

اذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا اذا قيل تم

فابتدأ بعبد المومن مرضه الذى توفى منه ، وتمادى به ألمه فخاف أن يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد واسقاط اسمه من الخطبة ، لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة .

وكان ذلك يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكتب بذلك الى جميع طاعته . وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفى ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك ، وحمل الى تينملل فدفن بها الى جنب قبر الامام المهدى رحمه الله ، فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقضى عزه .

ونقل ابن خلكان فى كيفية عزل ولى العهد وجها (١) آخر ، قال ناقلا من خط العماد بن جبريل : « أن عبد المؤمن كان فى حياته عهد الى أكبر أولاده ، وهو محمد ؛ وبايعه الناس بعد تحليف الجند له ، وكتب ببيعته الى البلاد ؛ فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الامر ، لانه كان على أمور لا يصلح معها المملكة ؛ من ادمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ؛ وجبن النفس . ويقال أنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام . واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع . وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوما ، وذلك فى شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكان

---

(١) على هذا الوجه اقتصر صاحب المعجب طبع سلا صحيفة ١٤٢ . والوجه الاول ذكره صاحب القرطاس وابن الاثير فى تاريخه جزء ١١ صحيفة ١١٧ .

الذى سعى فى خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابنى عبد المومن ، ولما تم خلعه دار الامر بين الاخوين المذكورين ، وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوى الرأى فتأخر منهما أبو حفص عمر ، وسلم الامر الى أخيه أبى يعقوب يوسف ، فبايعوه الناس واتفقت عليه الكلمة . والله تعالى أعلم .

بقية اخبار عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان : « كان عبد المؤمن عند وفاته شيخا نقى البياض » قال :« ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخا معتدل القامه عظيم الهامة ، أشهل العينين ، كث اللحية ؛ شثن الكفين ؛ طويل القعدة ؛ واضح بياض الاسنان ؛ بخده الايمن خال » .

وكان رحمه الله فصيحا فقيها عالما بالاصول والجدل والحديث مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية ، ذا حزم وسياسة واقدام فى الحرب ومهمات الامور ، سرى الهمة ؛ ميمون النقيبة ، لم يقصد قط بلدا الا فتحه ، ولا جيشا الا هجمه . محبا لاهل العلم والادب ، مكرما لوفادتهم ؛ منفقا لبضاعتهم . ذكر العماد الاصبهانى فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى لما أنشده :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل　　مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار عليه أن يقتصر على هذا البيت ؛ وأمر له بألف دينار

وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذى تجاذباه فى أمر الجارية التى أطلت من الشباك ، وذلك دليل على سراوة طبعه ، وخفة روحه . رحمه الله .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون : « لما هلك عبد المؤمن اخذ السيد أبو حفص بن عبد المومن البيعة على الناس لاخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة ، ورضى من الشيخ أبى حفص الهنتاتى خاصة ؛ واستقل فى رتبة وزارته ،

وذكر القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم أن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المومن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الاول سنة ستين وخمسمائة ، وذلك بعد وفاة والده عبد المومن بسنتين ؛ لانه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين ، وامتنع من بيعته أخواه : السيد أبو محمد صاحب بجاية ، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة ؛ فكف عنهم ، ولم يطالبهم ببيعته ، وتسمى بالامير ؛ ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس .

وذكر ابن مطروح فى تاريخه انه لما مات عبد المومن كان ولده يوسف باشبيلية ، فأخفى أصحابه موته ، وأرسلوا الى يوسف ؛ فوصل من أشبيلية الى سلا فى أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته الا ناس قليلون ، فلم يلتفت اليهم .

وكان أول شىء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد الى بلادهم وقبائلهم ؛ وكتب الى البلاد بتسريح المساجين وتفريق الصدقات فى جميع عماله ، وتسمى بالامير ؛ ثم ارتحل الى مراكش فدخلها وأقام بها ؛ وكتب الى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة ، فأتته البيعة من جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس ؛ ما خلا قرطبة وبجاية ، فان ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك ؛ وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف فى أقطار البلاد ، وأدان له من بالعدوتين من العباد ؛ وفرق الاموال فى القبائل والاجناد .

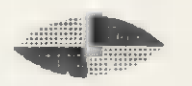
وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية ، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعين ؛ وقدم معهما أشياخ بلديهما ، وفقهائهما ، فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالاموال والخلع ، وأحسن اليهم .

وفى هذه السنة ثار مرزدغ الصنهاجى من صنهاجة مفتاح . وضرب السكة باسمه . وكتب فيها « مرزدغ الغريب ، نصره الله عن قريب . » وكانت ثورته ببلاد غمارة ، فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة ، فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقا كثيرا وسبى ، فبعث اليه أمير المومنين يوسف جيشا من الموحدين ، فقتل وحمل رأسه الى مراكش

وفى سنة ستين وخمسمائة كانت وقعة الجلاب بالاندلس بين السيد أبى سعيد بن عبد المومن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش ، وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفا ، فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج بأجمعهم ، وكتب السيد أبو سعيد بالفتح الى أخيه أمير المومنين يوسف .

وفى سنة احدى وستين وخمسمائة عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لاخيه السيد أبى زكرياء ، وعلى اشبيلية للشيخ أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ، ثم أدال منه بأخيه السيد أبى ابراهيم ، وأقر الشيخ أبى عبد الله على وزارته ؛ وعقد على قرطبة لاخيه السيد أبى اسحق ، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة .

ثم نظر الموحدون فى وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا : « الحمد لله وحده » لما وقفوا عليها بخط الامام المهدى فى بعض مخاطباته ، فكانت علامتهم الى آخر دولتهم . والله أعلم



ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة

وفى سنة احدى وستين وخمسمائة ثار سبع بن منغفاد ، وسماه ابن أبي زرع يوسف بن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة . وعظمت الفتنة فى قبائلها ، وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة ، فبعث اليهم أمير المومنين يوسف بن عبد المومن عساكر الموحدين ، الى نظر الشيخ أبى حفص الهنتاتى ، ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة . فخرج اليهم أمير المومنين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم ، وقتل سبع بن منغفاد وحمل رأسه الى مراكش وانحسم داؤهم ؛ وعقد يوسف لاخيه السيد أبى على الحسن على سبتة وسائر بلادهم .

وفى سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المومن واللقب بأمير المومنين ، وذلك فى جمادى الآخرة منها ، وخاطب العرب بافريقية يستدعيهم الى الغزو ويحرضهم . وكتب اليهم فى ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس ؛ فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف .

وفى سنة أربع وستين بعدها وفد عليه أهل الامصار من افريقية والمغرب والاندلس : القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والاشياخ والاعيان برسم التهنئة والمطالعة بأحوال بلادهم ، فوصلت الوفود الى مراكش ؛ فدخلوا عليه وهنؤوه بالخلافة ؛ ووصل الجميع كل على قدره ، وأوصاهم بما اقتضاه الحال . وكتب لهم الظهائر بمطالبهم واصلاح شؤونهم ، وانصرفوا شاكرين .

وفى هذه السنة أيضا بعث أمير المؤمنين الشيخ أبا حفص الهنتاتى فى جيوش الموحدين الى الاندلس لاستنقاد بطليوس من حصار العدو ، واحتفل أمير المؤمنين فى ذلك فلما انتهوا الى اشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه ، فسار الشيخ أبو حفص الى قرطبة .

وفى سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص الى الاندلس برسم الجهاد ، فعبر البحر من قصر المجاز الى طريف فى عشرين ألفا من الموحدين والمتطوعة ، فدخلوا بلاد العدو . وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبا سعيد الى بطليوس ؛ فعقد الصلح مع الطاغية ابن اذفونش – وهو يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة – وانصرف ، ونهضوا جميعا الى مرسية ومعهم ابراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فنزع عنه الى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها ، واستولوا على أكثر بلاده ، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش وقد خف الى الجهاد .

وفى سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت (١) وكان الشروع فى بنائها يوم الاحد ثالث صفر من السنة المذكورة .

الجواز الاول لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى الاندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبى حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش ، وظهور المسلمين على عدوهم بها ، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم ، تاقت نفسه الى العبور الى بلاد الاندلس بقصد اصلاح حالها وجهاد العدو بها ؛ وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من افريقية صحبة السيد أبى زكريا صاحب بجاية ، والسيد أبى عمران صاحب تلمسان .

---

(١) جاء فى كتاب الروض المعطار أن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتونى كان قد بنى قنطرة تانسيفت وأن السيل أتى بعد ذلك فهدمها .

وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا ، فاعترضهم وسائر عساكرهم ، ونهض الى الاندلس فى مائة ألف من العرب والموحدين ، واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران ، فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها الى اشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفا من بعض غزواته .

ولما نزل أمير المومنين يوسف باشبيلية خافه محمد بن مردنيش ، وحمل على قلبه فمرض ومات ! وقيل أن أمه سمته لانه كان قد أساء الى خواصه وكبراء دولته ، فنصحته فتهددها ، وخافت بطشه فسمته ! ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده واخوته الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المومن ـ وهو باشبيلية ـ فسلموا اليه جميع بلاد شرق الاندلس التى كانت لابيهم ، فأحسن اليهم أمير المومنين وتزوج أختهم ، وأصبحوا عنده فى أعز منزلة ؛ وصنع فى وليمتها مهرجانا عظيما يقصر الوصف عنه .

ولما صفت لامير المومنين يوسف الاندلس خرج من اشبيلية غازيا بلاد العدو ؛ فنزل على مدينة له تسمى وبذة ، فأقام محاصرا لها شهورا الى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا ، فراسلوه فى تسليم المدينة ، وأن يعطيهم الامان على نفوسهم ؛ فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة ، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، فارتووا وتقووا على المسلمين ، فانصرف عنهم الى اشبيلية ، بعد أن هادنهم مدة سبع سنين

فليعتبر الواقف على هذه القضية ، وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون ، يسبون الى الله تعالى مالا يليق به من التثليث وأنواع الكفر ، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم ، ورجعوا اليه تعالى بالاضطرار الصادق ، رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين ؛ فلا ينبغى بعد هذا للمؤمن الموحد اذا حصل فى شدة أن ييأس من رحمة الله ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . والسر فى الاضطرار . فانه عند أرباب البصائر ، هو اسم الله

الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى ، اللهم اجعلنا يامولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين ،فأنت أهل ذلك والقادر عليه .

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو الى أرض المسلمين مع القومس الاحدب ، فخرج اليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح ، وأثخن فيهم ؟ ورجع الى اشبيلية .

وفى هذه السنة أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة ، شرع أمير المومنين يوسف بن عبد المومن فى بناء جامع اشبيلية ، فتم وصليت به الجمعة فى ذى الحجة منها !

وفى هذه السنة أيضا عقد أمير المومنين الجسر على وادى اشبيلية بالقوارب وبنى قصبتها الداخلية ، وبنى الزلاليق للسور ، وبنى سور باب جوهر ؟ وبنى الرصفان المتدرجة بضفتى الوادى ، وجلب الماء من قلعة جابر حتى ادخله اشبيلية ، وأنفق فى ذلك أموالا لا تحصى .

ثم انتقض ابن اذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص اليه فغزاه بعقر داره ، وافتتح قنصرة بالسيف ، وهزم جموعه فى كل جهة .

ثم ارتحل الخليفة من اشبيلية راجعا الى مراكش سنة احدى وسبعين لخمس سنين من اجازته الى الاندلس ، وعقد على قرطبة لاخيه أبى الحسن وعلى اشبيلية لاخيه أبى على .

وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة : أبو عمران ؟ وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتى من قرطبة فهلك فى طريقه ودفن بمدينة سلا ، وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية .

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا على وأبا الحسن فعقد لابى على على سجلماسة ، ورجع أبو الحسن الى قرطبة ؟ وعقد لابنى أخيه السيد أبى حفص : لابى زيد منهما على غرناطة ، ولابى محمد على مالقة .

وفى سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بنى جامـــع وزرائه وغربهم الى مـاردة .

وفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله ، واغزاه مدينة اشبونة ، فغنم ورجع .

وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبى حفص بن عبد المومن بعـد ما أبلى فى الجهاد ، وبالغ فى نكاية العدو ، وتقدم ابناه من الاندلس فأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية ؛ واعتزم على الجهاد ، وأخذ فى استـدعاء العـرب من افريقية ، والله تعالى أعلم .

غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد افريقية وفتح مدينة قفصة والسبب في ذلك

كانت قفصة من بلاد افريقية قد استبد بهـا بنو الرند أواخر دولـــة صنهاجة من بنى زيرى بن مناد ، كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملا لهم بها ، فتوارثها بنوه من بعده ، فاستبدوا بها آخر الدولة ؛ ولما غزا عبد المومن بلاد افريقية استنزلهم فى جملة من استنزل مـــن الثوار بها . ولما مات عبد المومن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسمائة أن بعض بنى الرند قد عاد الى قفصة وثار بها فاضطربت لاجل ذلك أحوالها فنهض اليها فى سنة خمس وسبعين بعدها ، فانتهى الى افريقية ، ونزل على مدينة قفصة ؛ وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها ، وظفر بابن الرند القائم بها فقتله ، وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم عاد الى مراكش فدخلها فى سنة سبع وسبعين بعدها . هكذا فـــى القرطاس ، ونحوه لابن خلدون فى أخبار بنى عبد المؤمن .

وذكر عند الكلام على بنى الرند وجها آخر فقال : « كان عبد المومن

قد ولى على قفصة عمران بن موسى الصنهاجى ، فأساء الى الرعية ، فبعثوا عن على بن العزيز بن المعتز الرندى من بجاية وكان بها فى مضيعة يحترف بالخياطة ، فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه ، وقدموا مكانه على بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكرياء ، فحاصره وضيق عليه وأخذه ، وأشخصه الى مراكش بأهله وماله ، واستعمله على الاشغال بمدينة سلا الى أن هلك بها ، وفنيت دولة بنى الرند . والبقاء لله وحده . » اه كلامه فالله أعلم أى ذلك كان .

وفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أزكندر ، فبناه على المعدن الذى ظهر هنالك .

الجواز الثانى لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى الاندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

لما قدم أمير المومنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة قدم عليه ولاة الاندلس ورؤساؤها يهنئونه بالاياب ، فأكرم وفادتهم وانصرفوا .

ثم بلغه الخبر بأن أذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة ، ثم نزل استجة وتغلب على حصن شقيلة . وأسكن به النصارى وانصرف .

فاستنفر السيد أبو اسحق سائر الناس للغزو ، ونازل الحصن نحوا من أربعين يوما ، ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعا ؛ وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من اشبيلية فى جموع الموحدين ، ونازل طلبيرة فبرز اليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم .

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المومن على معاودة الجهاد ، وولى على الاندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد ، فعقد لابنه السيد أبى زيد على غرناطة، ولابنه السيد أبى عبد الله على مرسية ، ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وفى القرطاس : كان خروجه من مراكش فى التاريخ المذكور على باب دكالة ، قال برسم غزو افريقية ، فلما وصل الى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جامع من افريقية ؛ فأعلمه بهدوئها وسكونها ، فصرف عزمه الى الاندلس . فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفى ثلاثين من ذى القعدة من السنة المذكورة ، فنزل بظاهرها وبات هناك . ثم نهض يوم الجمعة الموالى له فوصل الى مكناسة يوم الاربعاء السادس من ذى الحجة ، فعيد بها عيد الاضحى خارجها . ثم ارتحل الى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة ، ففى اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى الى سبتة ، فأقام بها بقية الشهر المحرم ، وأمر الناس بالجواز الى الاندلس ؛ فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ؛ ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة ، وأصناف البربر . ثم عبرت جيوش الموحدين والاغزاز والرماة . فلما استكمل الناس الجواز عبر هو فى آخرهم فى الحاشية والعبيد .

وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة ، فنزل بجبل الفتح ، ثم ارتحل منه الى الجزيرة الخضراء ، ثم سار الى اشبيلية . فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج اليه ولده السيد أبو اسحق ومعه فقهاء اشبيلية وأشياخها فبعث اليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل اليهم ، فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم ، فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا .

ثم نهض الى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الاندلس فانتهى اليها

فى السابع من ربيع الاول فنزل عليها ، وأدار به الجيوش ، وشدد عليها فى الحصار والقتال ؛ وبذل المجهود الى ليلة الثانى والعشرين من ربيع المذكور ، فانتقل من موضع نزوله بجوفى شنترين الى غربها ، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سببا ؛ فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث الى ولده السيد أبى اسحق صاحب اشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة ، وشن الغارات على أنحائها ، وأن يسير اليها فى جيوش الاندلس خاصة . وأن يكون رحيله نهارا ، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل ليلا ، وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين ، أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل فى هذه الليلة ، وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له ، ورحلت طائفة منهم بالليل ؛ ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو اسحق وأقلع من كان مواليا له ، وتتابع الناس بالرحيل؛ وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لاعلم له بذلك ، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحدا الا يسيرا من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ؛ والا ـ قواد الاندلس فانهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء ، فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفردا فى عبيده وحشمه ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد ؛ وخرج جميع من فيه خرجة منكرة ، وهم ينادون : الرى الرى ، أى أقصدوا السلطان ؛ فضربوا فى محلة العبيد الى أن وصلوا الى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها ، فبرز اليهم وقاتلهم بسيفه ، حتى قتل ستة منهم ، ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه ! ولما طعن وقع بالارض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والاجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الاخبية ، واشتد القتال بينهم ، وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنز وركبهم المسلمون بالسيف حتى أدخلوهم المدينة ؛ وقتل منهم خلق كثير يزيدون على

العشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . وركب أمير المؤمنين يوسف وقد أنفذته الطعنة ؛ وارتحل الناس ولا يدرون أين . ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة اشبيلية ، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور الى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله ؛ قاله ابن مطروح .

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء ، فحمل الى تينملل فدفن بها الى جنب قبر أبيه ، وقيل انه لم يمت حتى وصل الى مراكش . وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذى يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الامور بين يديه من يوم طعن الى أن مات . قالوا وكتم ولده موته حتى وصل الى مدينة سلا فأفشاه .

وكان قبل موته بأشهر كثيرا ما ينشد قول الشاعر ويردده .

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتنى ذوات الاعين النجل

ورثاه الاديب أبو بكر يحيى بن مجير بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها :

جل الاسى ، فأسل دم الاجفان ماء الشؤون لغير هذا الشان

بقية اخبار أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان : كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، الى الطول ما هو ؛ فى صوته جهارة ؛ رقيق حواشى الطبع حلو الالفاظ ؛ حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ؛ وأحفظهم لايامها فى الجاهلية والاسلام ؛ صرف عنايته الى ذلك ، ولقى فضلاء اشبيلية أيام ولايته بها . وكان فقيها حافظا متفننا ، لان أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ؛ فنشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء ، وكان ميله الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الادب

وبقيه العلوم ، ويقال انه كان يحفظ صحيح البخارى ، وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة صالحة من الفقه ؛ ثم طمح الى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب ؛ وجمع من كتب الحكمة شيئا كثيرا .

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل ، كان متحققا بجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره ؛ ولابن طفيل هذا تصانيف كثيرة .

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصا على الجمع بين علم الشريعة والحكمة ، ولم يزل يجمع اليه العلماء من كل فن من جميع الاقطار ؛ ومن جملتهم القاضى أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد .

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، جماعا مناعا ؛ ضابطا لخراج مملكته ، عارفا بسياسة رعيته ، وكان سخيا جوادا فى محل السخاء والجود ؛ قد استغنى الناس فى أيامه ؛ وكان من ضبطه وسياسته ، ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر ، وله فى غيبته نواب ؛ وخلفاء وحكام قد فوض الامور اليهم ، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك .

قال ابن خلكان : « والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة اليه » .

ومما يستطرف من أخباره رحمه الله ، أن الاديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكروانى ـ وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحى فاس ـ كان نهاية فى حفظ الاشعار القديمة والمحدثة ، وتقدم فى هذا الشأن وله فيه تآليف ، وكان مع ذلك صاحب نوادر ، جالس بها عبد المؤمن ؛ ثم ولده يوسف ؛ ثم ولده يعقوب .

فمن نوادره : انه حضر يوما الى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور ؛ وحضر اليه أيضا الطبيب سعيد الغمارى ، فقال أمير المؤمنين

لبعض خدمه : « أنظر من بالباب من الاصحاب » فخرج الخادم ثم عاد اليه فقال : « ياسيدى به أحمد الكروانى وسعيد الغمارى » فقال أمير المؤمنين يوسف : « من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة » فبلغ ذلك الكروانى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ! أعجب منهما والله . خليفة من كومية ! » فيقال أن أمير المؤمنين يوسف لما بلغه ذلك قال : « أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له » ومن شعر الكروانى من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع :

ان الامام هو الطبيب وقد شفا علل البرايا ظاهرا ودخيـــلا

حمل البسيطة وهى تحمل شخصه كالروح يوجد حاملا محمولا!

الخبر عن دولـــة امير المؤمنين المنصور بالله

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون : « لما توفى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين فى التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ورجع با لناس الى اشبيلية فاستكمل البيعة ، واستوزر الشيـخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى واستنفر الناس للغزو مع أخيـه السيد يحيى ، فاستولى على بعض الحصون ، وأثخن فى بلاد الكفار ؛ ثـم أجاز البحر الى الحضرة .

ولقيه بقصر مصمودة السيد أبا زكريا بن السيد أبى حفص ، قادما من تلمسان ، مع مشيخة بنى زغبة من عرب هلال ؛ ومضى الى مراكش فغـير المناكر وبسط العدل ، ونشر الاحكام » اه وفيه نوع مخالفة لما قدمناه .

وقال ابن أبى زرع : لما تمت له البيعة وطاعت له الامة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال، ففرقها فى الضعفاء من بيوتات

المغرب ، وكتب الى جميع بلاده : بتسريح السجون ورد المظالم التى ظلمها العمال فى أيام أبيه ؛ وأكرم الفقهاء ، وراعى الصلحاء وأهل الفضل ، وأجرى على اكثرهم الانفاق من بيت المال ، وفرق فى الموحدين وسائر الاجناد أموالا جمة ؛ وكا نأول شيء حدث فى دولته شأن بنى غانية المسوفيين . أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها ، فلنأت بشيء من ذلك .

خروج علي بن إسحق المسوفى المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور

قد تقدم لنا فى أخبار الدولة اللمتونية أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الاندلس وهى ميورقة ومنورقة ويابسة محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية – وهى أهمهم – فتوارثها بنوه من بعده ، الى أيام يوسف بن عبد المؤمن ؛ فبعث اليه محمد بن اسحق بن محمد المسوفى المذكور بالطاعة ، فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن ، وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر أمره ؛ ويعقد له البيعة عليه ، ويؤكد الامر فى ذلك .

وكان لمحمد بن اسحق المذكور عدة اخوة يساهمونه فى الرياسة ، فلما انتهى اليهم ابن الروبرتير ، وعلموا الامر الذى قدم لاجله ، أنكروا على أخيهم ذلك لانه لم يكن أعلمهم بمكاتبة يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجيا دونه ، وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير ، وقدموا مكانه أخاهم على بن اسحق بن محمد ؛ ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب المنصور ، فركب على بن اسحق أسطوله وطرق بجاية على حين غفاة من أهلها ؛ وعليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجآ فى بعض مذاهبه – فأستولى عليهآ ابن غانية فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة .

وحكى ابن أبى زرع فى استيلاء ابن غانية على بجاية وجها آخر قال : « دخل الميورقى ـ وهو على بن اسحق المذكور ـ مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة ، والناس فى صلاة الجمعة .

وكانت أبواب المدن قبل ذلك لاتغلق وقت صلاة الجمعة ، فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة ، ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد الى الجامع الاعظم ، وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله ؛ ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه » قال : « وأقام بها سبعة أشهر ، ثم استرجعت من يده » قال : « ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة » والله أعلم .

ثم استولى على بن اسحق على الجزائر ، ثم على مازونة ؛ ثم على مليانة ، ثم على القلعة ، ثم نازل قسنطينة فامتنعت عليه .

واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبى حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية ، وعقد لمحمد بن ابراهيم بن جامع على الاساطيل ، والى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلى . فوصل السيد أبو زيد الى افريقية وشرد ابن غانية عنها الى الصحراء فى أخبار طويلة .

ثم عاود ابن غانية الاجلاب على بلاد افريقية ، وظاهره على ذلك قراقوش الغزى ، من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى صاحب مصر ، وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها .

وبلغ المنصور ان ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل الى فاس فأراح بها ، ثم سار الى رباط تازا ، ثم سار على التعبية الى تونس .

وجمع ابن غانية من اليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزى صاحب طرابلس ، فسرح اليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد أبى يوسف يعقوب ابن السيد أبى حفص عمر ابن عبد المؤمن »

فلقيهم ابن غانية في جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون ، وقتل جماعة من وجوههم ، وأسر على بن الروبرتيسر في آخرين ُوامتلأت أيدى العرب من أثاثهم وأسلابهم .

ووصل سرعان الناس الى المنصور وهو بتونس ، فنهض اليهم في الحال ونزل القيروان ، ثم أغذ السير الى الحامة فالتقى الجمعان ، وأنشبوا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه ، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم .

ثم صبح المنصور مدينة قابس - وكانت في يد قراقوش - فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر الى تونس ، وثنى العنان الى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها ، ثم الى قفصة فنازلها أياما ، حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها ، وجعل املاكهم بأيديهم على حكم المساقاة .

ولما فرغ من أمر قفصة نهض الى عرب افريقية ، ففتك بهم واستباح حللهم واموالهم وشردهم في كل وجه ، ثم بعد ذلك جاءوه تائبين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم الى المغرب الاقصى ، ورجع الى مراكش ، فدخلها في رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى ارض افريقية ثم منها إلى المغرب الاقصى والسبب في ذلك

أعلم أن أرض افريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الايام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الاسلام ، وانما كان المغرب وطنا لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم .

ولما جاءت الملة الاسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش

المسلمين من العرب الى أرض المغرب فى جملة ما زحف اليه من أقطار الارض ، لكن العرب الداخلون الى أرض المغرب فى ذلك العصر انما كانوا يدخلون اليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم ، فيقضون الوطر من فتح الاقطار والامصار ، ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب ، وان بقى القليل منهم به فانما كانوا يستوطنون منه الامصار دون البادية ، ويسكنون القصور دون الخيام ؛ فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ، ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم ، كما هو شأنهم اليوم ؛ لان الملك الذى حصل لهم والغلب الذى مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية ، ويعدل بهم الى الحضارة ولا بد ، فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأسا ؛ أو قليلة جدا لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل، وانما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال؛ واستمر الحال على ذلك الى أواسط المائة الخامسة ، فدخلت العرب أرض افريقية واستوطنوها بحللهم وخيامهم .

ثم لما كانت أواخر المائة السادسة فى دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم الى المغرب الاقصى ، فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك ، وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربى ، وأمة البربر أهل اللسان البربرى ، بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا .

واعلم أن أمة العرب تنقسم أولا الى قسمين : عدنان وقحطان ، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان الى شعبين عظيمين ، فأما عدنان وهم الاسماعيلية ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فينقسمون الى ربيعة ومضر ، وأما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون الى حمير وكهلان . هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين . وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوبا أخر ، لكنا لم نعتبرها اما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها

جدا واندراجها فيمن ذكرناه .

ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الاربعة الى قبائل وعمائر وبطـون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها ، لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول : من جملة قبائل مضر :

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

ومن قبائلها أيضا بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور المذكور فى النسب السابق . وقد نسبت الخنساء جشم هذا الى جده ، فقالت تهجو دريد بن الصمة :

معاذ الله ينكحنى حبركى   قصير الشبر من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضا بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكـر المذكـور أيضـا .

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين : بنو الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان . وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

واعلم أن هؤلاء القبائل الاربعة التى ذكرناها هى التى ذكر المؤرخون أنها انتقلت الى افريقية والمغرب ، وقد يضاف اليهم غيرهم من قبائل العرب ، لكنهم ليسوا بمشهورين كالاربعة المذكورة .

وأما خبر دخولهم الى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون ان بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة مـن الدهر الى أن مضى الصدر من دولة بنى العباس ، وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد ، فبنو سليم مما يلى المدينة المنورة ، وبنو هـلال فى جبـل غزوان عند الطائف ، ثم تحيز بنو سليم والكثير مـن هلال بن عامـر الى البحرين وعمان ، وصاروا جندا للقرامطة ، ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على ذلك بنو سليم وبنو هلال . ثم انتقلت دولة العبيديين مـن افريقية الى مصر ، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم ، وردوهـم

على أعقابهم الى البحرين ؛ ونقلوا أشياعهم من بنى سليم وبنى هلال . فأنزلوهم بصعيد مصر فى العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك ، وكان لهم أضرار بالبلاد ؛ ولما انتقلت الدولة العبيدية من افريقية الى مصر كما قلنا استنابوا على افريقية بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين فملكوها ، وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم ، ويؤدون اليهم اتاوة معلومة وطاعة معروفة .

ولما انساق ملك افريقية الى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى كان له رغبة فى مذهب اهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة ، وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر ابن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله . والمعز هذا هو الذى انتقل الى مصر وبنى مدينة القاهرة

وكان المعز بن باديس الصنهاجى لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدى صاحب مصر كما كانت اسلافهما ؛ ثم ان المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك فى أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنيا ؛ فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل ، وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الايمان ، وقطعوا من الاذان حى على خير العمل .

وكانت هذه الواقعة فى أيام الظاهر العبيدى والد المستنصر ، فكاتب المعز بن باديس فى ذلك ، فاعتذر اليه بالعامة ، فأغضى عنه .

واستمر ابن باديس على اقامة الدعوة لهم ؛ والمهاداة معهم ، وهو فى أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائى ويستميله ، ويعرض ببنى عبيد وشيعتهم ويغض منهم .

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، أصله من قرى فلسطين ، وكان أبوه فلاحا بها . فلما ولى الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان

يخاطب به من قبله من الوزراء . كان يقول فى كتابه اليهم : عبدكم ! وصار يقول : فى كتاب اليازورى : صنيعتكم ! فحقد ذلك عليه ، وصارت القوارص تسرى من بعضهم الى بعض ، الى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدى ووزيره اليازورى ، فقطع بن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وأحرق بنود المستنصر ، ومحا اسمه من السكة والطرز ، ودعا للقائم العباسى خليفة بغداد ؛ وجاءه خطابه وكتاب عهده ، فقرىء بجامع القيروان ، ونشرت الرايات السود ؛ وهدمت دور الاسماعيلية .

وبلغ الخبر بذلك كله الى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته ، ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن على اليازورى فى أمر ابن باديس ، فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بنى هلال ، وبنى جشم الذين بالصعيد ، وأن يتقدم اليهم بالاصطناع ؛ ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال افريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم ؛ فان صدقت المخيلة فى ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وان كانت الاخرى فلها ما بعدها ؛ وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك .

فبعث المستنصر وزيره الى هؤلاء الاحياء ؛ وأرضخ لامرائهم فى العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم ، وأباح لهم اجازة النيل ، وقال لهم : « قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق ، فلا تفتقرون بعدها ! » .

وكتب اليازورى الى المعز : « أما بعد ، فقد انفذنا اليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

فشرهت العرب اذذاك وعبروا النيل الى برقة ، فنزلوا بها واستباحوها وافتتحوا أمصارها ، وأعجبتهم البلاد . فكتبوا لاخوانهم الذين بقوا شرقى

النيل يرغبونهم فى البلاد ، فأجازوا اليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين ، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه ؛ وتقارعوا على البلاد ؛ فحصل لبنى سليم شرقها ، ولبنى هلال غربها ، ثم انتشروا فى أقطار افريقية مثل الجراد ، لا يامرون بشىء الا أتوا عليه .

وبالجملة فلم تمر الا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحى افريقية ، ونازلوا أمصارها ، واقتضوا من أهلها الاتاوة ، وحصروا ابن باديس فى مصره ؛ وصاهرهم بيناته تألفا لهم ، ومع ذلك فلم يجد شيئا والحديث فى ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا .

قال ابن خلدون : « ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم الى افريقية طرق ، يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ، ويسمونه شكر بن أبى الفتوح ؛ وانه أصهر الى الحسن بن سرحان فى أخته جازية فأنكحه اياها ، وولدت منه ولدا واسمه محمد ، وانه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة . فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد الى افريقية ، وتحيلوا عليه فى استرجاع أختهم جازية المذكورة ، فطالبته بزيارة ؛ أبويها ، فأزارها اياهم ؛ وخرج بها الى حللهم ، وأقام معها مدة الزيارة ؛ فارتحلوا به وبها ، وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ، ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها ؛ فلم يشعر بالرحلة الى أن فارق موضع ملكه ، وصار حيث لا يملك أمرها عليهم ، ففارقوه ؛ ورجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل ، وانها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها الى أن ماتت من حبه ، ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفى على خبر قيس وليلى ، ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المبانى . مثقفة الاطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل ؛ والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وانما فقد منها الاعراب فقط ، ولا مدخل له فى البلاغة .

وفى هذه الاشعار شىء كثير دخلته الصنعة ، وفقدت فيه صحة الرواية

فلذلك لا يوثق به ؟ ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم وضبط لاسماء رجالاتهم ، وكثير من أحوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها ؟ وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره ، وهم مفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفا عن سلف ، وجيلا عن جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون؟ لتواترها بينهم .

وهذا الشريف الذى يشيرون اليه هو من الهواشم ، وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد الاكبر ابن موسى الثانى ابن عبد الله أبى الكرام ابن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وابو الفتوح هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدى ، وبايع له بنو الجراح أمراء طىء بالشام ، وبعثوا عنه ، فوصل الى احيائهم ؟ وبايع له كافة العرب ؟ ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدى ورجع الى مكة ، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة ، فولى بعده ابنه شكر هذا ، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولى بعده ابنه محمد الذى يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه .

وقال ابن حزم : ان شكر بن أبى الفتوح لم يولد له قط ، وانما صار أمر مكة من بعده الى عبد كان له .

وقال ابن خلدون : بل أخبرنى من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبى الفتوح ، وانها بقعة من أرض نجد مما يلى الفرات ، وان ولده بها لهذا العهد والله أعلم .

واعلم أن جازية بنت سرحان هذه كانت من بنى دريد بن اثبج بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة ، فهى هلالية أثبجية دريدية . ومن مزاعمهم : انها لما صارت الى افريقية وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور ، خلفه عليها منهم ماضى بن مقرب من رجالات دريد ، فأقامت عنده

مدة ؛ ثم غاضبة ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه ، فقامت عشيرة ماضى بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته . وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان ، واستمرت العداوة بينهم الى أيام الموحدين ؛ فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد الى افريقية .

وأما سبب انتقالهم من افريقية الى المغرب الاقصى ؛ فقد ذكرنا أن بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر اقترعوا على بلاد افريقية ، فكان لبنى سليم شرقها ؛ ولبنى هلال غربها ، ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقوا ملوكها بها .

وانضم الى بنى هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر ، فعلت أيديهم على الجميع ؛ واستمر أمرهم على ذلك الى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدى رحمه الله ، وثار ابن غانية ببلاد افريقية كما تقدم ، فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين ؛ وأوقعوا بمقدمة المنصور ، فنهض اليهم من تونس واوقع بالملثمين أولا ثم بالعرب ثانيا ، وقل جمعهم واتبع آثارهم الى أن شردهم الى صحارى برقة ، وانتزع تلك البلاد من أيديهم ، ثم راجعوا بصائرهم ، فأتوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى .

وكان الذين قاتلوه أولا ثم راجعوا طاعته ثانيا هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا ، وهم أصحاب غرب افريقية ، وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد ؛ فلذلك بقى بنو سليم بأرض افريقية

ونقل المنصور رحمه الله بنى هلال وبنى جشم الى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين ، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط ، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير الى أزغار البسيط الافيح هناك الى ساحل البحر الاخضر ، فاستقروا بها وطاب لهم المقام ، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الافيح ما بين سلا ومراكش ، وهو أوسط بلاد المغرب الاقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية

الى القفار لاحاطة جبل الدرن بها ، فلم ييمموا بعدها قفرا ، ولا أبعدوا رحلة .

واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم فى عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز ، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما فى حكمها ، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها الى مراكش ، فكان لرياح بلاد الغرب ، وكان لجشم بلاد الحوز .

ثم اعلم أيضا أن قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقى بأرض افريقية والذين انتقلوا منهم الى المغرب الاقصى كان رئيسهم فى ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادى ، من بنى ذواد بن مرداس بن رياح فأقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر الى افريقية ، وذلك فى حدود التسعين وخمسمائة ، وأبدأ وأعاد هنالك فى الاجلاب مع الثوار ، الى أن هلك فى بعض تلك المدة .

وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وأزغار الى أن انقرضت دولة الموحدين ، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدى وقتله سنة ثلاثين وستمائة .

ولما تغلب بنو مرين على ضواحى المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم ، فقاموا بحماية ضواحيهم ، وانضم اليهم بنو عسكر بن محمد المرينيون حين خالفوا اخوانهم بنى حمامة بن محمد سلف الملوك منهم ، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة أبو الملوك المرينيين ، وقتل معه ابنه ادريس ؟ فأوجدت رياح السبيل لبنى مرين على أنفسهم فى طلب الثار ، فأثخنوا فيهم بعد أن ملكوا المغرب ، واستلحموهم قتلا وسبيا مرة بعد أخرى .

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المرينى سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل الى أن لحقوا برؤوس الهضاب ، وأسنمة الربا المتوسطة فى

المرج المستبحر بأزغار ؛ فصاروا الى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمـــة ، وذهبت رياح ادراج الرياح . هذا خبرهم على الجملة .

وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فان المنصور لما نقلهم اليها نقل معهـم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم ، ولـم يكونوا من نسبهم ، ولكنهم كانوا مندرجين فيهم ، فكان يطلق على الجميع جشم ، وهؤلاء القبائل هم المقـدم والعاصم من بنى هلال بن عامر ؛ ثم من الاثبج منهم ، وقرة من بنى هـلال أيضا ، والخلط من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر . فهؤلاء القبائـل ليسوا من جشم كما ترى ؛ ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا الى المغـــرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم .

فأما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن اثبج بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة ؛ وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال ، فهؤلاء القبائل الثلاثة أعنى المقدم والعاصم وقرة هلاليون ، وأما الخلط فهم بطن من بنى عقيل بالتصغير .

قال أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى : الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابنى المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور فى الانساب المتقدمة . فقد بان لك بهذا أن هذه القبائل الاربع أعنى العاصم ومقدما وقرة والخلط ، ليسوا من بنى جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب ، وان الثلاث الاول من بنى هلال بن عامر ، وان الرابعة وهى الخلط من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولا ، والله تعالى أعلم .

ولنتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول : لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر ، ثم تميز جمهورهم الى العاصـم ومقدم وبنى جابر وسفيان والخلط .

فأما مقدم والعاصم فكانوا مع اخوانهم ببسيط تامسنا المذكور ، وكان للموحدين عليهم عسكرة وجباية ، وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين ، ثم

عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد ، وكان له أثر فى الفتنة التى ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر بن المنصور .

ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابنى عامر من شيوخ بنى جابر ، كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعا .

ثم صارت الرياسة لابى عياد وبنيه ، وكان رئيسهم لعهد بنى مرين عياد بن أبى عياد ، وكان اد تلون على الدولة فى النفرة تارة والاستقامة أخرى ، فر الى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة ، وفر الى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة ؛ ولم يزل هذا دأبه ، وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى من قبل ذلك . ومقاماته فى الجهاد معه مذكورة وبقيت رياسته فى بنيه الى أن انقرض أمرهم وتلاشوا . والله خير الوارثين .

وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضا ، وكان لهم أثر فى الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور ، ويحيى بن الناصر بن المنصور ؛ فكانوا شيعة ليحيى ، ولما ولى الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابنى عامر ، وهما يومئذ شيخا بنى جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم ، وكانوا جميعا معتقلين عند الرشيد .

وولى أمر بنى جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون ، ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو ، وكان ذلك بأمر أبى حفص المرتضى الموحدى ، وولى رياسة بنى جابر بعده اسمعيل بن يعقوب بن قيطون ، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن احياء جشم الى سفح الجبل بتادلا وما اليها يجاورون هنالك، صناكة من البربر الساكنين بقنته وهضابه ، فيسهلون الى البسيط تارة ويأوون الى الجبل فى حلف البربر وجوارهم أخرى ، اذا دهمتهم مخافة من السلطان .

قال ابن خلدون : والرياسة فيهم لهذه العصور ــ يعنى أواخر

المائة الثامنة – في ورديغة من بطونهم ، قال : أدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديغي ثم هلك ، وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين ، ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعمائة ، ونهضت اليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه ، ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين ، ونازله السلطان عبد العزيز المريني وأحاط به وبهم ؛ فلحق ببرابرة صناكة ؛ ثم أمكنوا منه على مال حمل اليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب ، وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم ، وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة ، فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن ، فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته ، ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن ، ونقلوا الرياسة عن بيته الى غيرهم . والله تعالى مقلب الامور .

وقد يزعم كثير من الناس أن ورديغة من بني جابر ليسوا من جشم ، وانهم بطن من بطون سدراتة احدى شعوب لواتة من البربر ، ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب الى المغرب ، كانت رياستهم يومئذ في أولاد جرمون على سائر بطون جشم ، واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين ، ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن استكثروا بهم في حروبهم ، فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة ، وخبوا ووضعوا في الفتن مع أعقاب الملوك من بني عبد المؤمن المتنازعين على الملك ، وظاهروا البعض منهم على البعض وساءت آثارهم بالمغرب .

وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدي جرمون

بن عيسى السفيانى ، وكانت بينهم وبين الخلط عداوة ، فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيه ؛ وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعة فى الخلافة بمراكش ، ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حميدان شيخ الخلط رما نذكر بعد ؛ فصاروا الى يحيى ابن الناصر ، وصارت سفيان الى الرشيد .

ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين ، ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المرينى حياء مما وقع له مع الرشيد ، وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر ، فقام يرقص طربا ؛ ثم حمل عليه وهو سكران وعربد وأساء الادب ، ثم أفاق فندم ، وفر الى محمد بن عبد الحق ، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها ؛ وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون ، ثم خالف عليه عند نهوضه الى بنى مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، ورجع الى آزمور فملكها ، وفت ذلك فى عضد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون ، ففر أمامه ثم حضر معه بعد ذلك حركته الى تلمسان ، وقتل بحصن تامزردكت قبل مقتل السعيد بيوم واحد ، قتلته الخلط فى فتنة وقعت بينهم فى محلة السعيد ، وهى التى جرت عليها تلك الواقعة .

وقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون ، وقتل ابن أخيه محمد بن كانون ، وحضر مع عمر المرتضى الموحدى حركة امان ايملولين سنة تسع وأربعين وستمائة ، فرحل يعقوب عن السلطان ، واختل عسكره بسبب ذلك ؛ فرجع وأتبعه بنو مرين فكانت الهزيمة ، ثم عفا له المرتضى عنها ، ثم قتله مسعود وعلى ابنا أخيه كانون بثار أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة ، ولحقا بيعقوب بن عبد الحق المرينى ؛ وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره ، فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضا ، فقدم مسعود بن كانون فأقام شيخا على سفيان ، واستمرت حالهم مع الموحدين وبنى مرين على هذا النحو من اخلاص الطاعة والنصرة

تارة ، والتمريض فيهما أخرى .

قال ابن خلدون : « واتصلت الرياسة على سفيان فى بنى جرمون هؤلاء الى عهدنا » قال : « وأدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبى عنان يعقوب بن على بن منصور بن عيسى ابن يعقوب بن جرمون بن عيسى . »

وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلولا بأطراف تامسنا مما يلى آسفى ، وغلبتهم الخلط على بسائطها الفسيحة ، وبقى من أحيائهم الحارث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره . ويطلبون ضواحى بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس . ورياستهم فى أولاد مطاع من الحرث ، وطال عيثهم فى ضواحى مراكش وافسادهم ، فلما استبد بسلطان مراكش الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن المرينى سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم ، ثم استقدمهم فى بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة ؛ وشيخهم يومئذ منصور بن يعيش من أولاد مطاع ، فقبض عليهم أجمعين ، وقتل من قتل منهم ، وأودع الآخرين سجونه ؛ فذهبوا مثلا للآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء .

وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولى عدد وقوة ، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم ، ولما ولى العادل بن المنصور الموحدى خالفوا عليه وهزموا عساكره ، وبعث هلال بيعته الى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة ، وتبعه الموحدون على ذلك ، ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره ، وتحيزت أعداؤهم الى يحيى بن الناصر منازعه ، ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون الى أن هلك فى حركته سنته ، وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به الى مراكش ، وهزم سفيان واستباحهم ، ثم هلك هلال بن حميدان فولى مكانه أخوه مسعود بن حميدان ، ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله فى جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وولى أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه الى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا

بها ، وخرج الرشيد الى سجلماسة ، ثم عاد اليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها ، ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر الى بنى معقل عرب الصحراء ، فقبض الرشيد على وشاح وعلى ابنى هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ثم أطلقهم ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين . ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته الى بنى عبد الواد أصحاب تلمسان ، زجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذ ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم الى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم ، ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببنى مرين ، وقدم المرتضى عليهم على بن أبى على من بيت الرياسة فيهم ، ثم رجع عواد الى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاه على بن أبى على فقتل فى غزاته تلك .

ثم كانت واقعة أم الرجلين لبنى مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة ؛ فنزع على بن أبى على الى بنى مرين ، ثم صار الخلط كلهم الى بنى مرين ، وكانت الرياسة فيهم أول دولة بنى مرين لابى عطية مهلهل بن يحيى الخلطى ، وأصهر اليه السلطان يعقوب بن عبد الحق ، فأنكحه مهلهل ابنته عائشة التى كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب ، ولم يزل مهلهل كبيرا عليهم الى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة ، ثم قام بأمر الخلط ابنه عطية ، وكان لعهد السلطان أبى سعيد وابنه السلطان أبى الحسن ، وبعثه السلطان أبو الحسن سفيرا عنه الى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولما هلك عطية قام بأمر الخلط ابنه عيسى بن عطية ، ثم ابن أخيه رمام بن ابراهيم بن عطية ، وهو الذى بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان ، والقرب من مجلسه الى أن هلك ؛ فولى أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن ابراهيم ، ثم أخوهما سليمان بن ابراهيم ، ثم أخوهم مبارك

ابن ابراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبى عنان المرينى ومن بعده ، الى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبى سالم المرينى ، واستولى على المغرب أخوه السلطان عبد العزيز ، وأقطع ابنه ناحية مراكش ، فكان ابراهيم بن عطية هذا معه .

ولما تقبض على أبى الفضل تقبض على مبارك المذكور . وأودع السجن الى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهنتاتى وقتله ، فقتل معه مبارك بن ابراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته فى الفتن كما يذكر فى أخبار بنى مرين ، وولى ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط .

قال ابن خلدون : « الا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الافيح ، زيادة على العز والدعة ، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف ، والله غالب على أمره » اه .

ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدى انحاشت الخلط اليه ، وأظهروا الخدمة والنصيحة ، وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسى عنها ؛ فذهب أبو حسون المذكور الى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته ، وقدم معه منهم عسكر جرار الى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدى عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة ، فلما استقل بالامر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة ، ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده .

ولم يزل الامر كذلك الى دولة السلطان أبى العباس أحمد المنصور السعدى المعروف بالذهبى ، فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادى المخازن وابلاءهم الابلاء الحسن ؛ فاختار النصف منهم وردهم الى الجندية ، وأبقى

النصف الآخر فى غمار الرعية ، ونقلهم الى أزغار فاستوطنوه ؛ فعاثوا فى تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد ، ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بنى حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور السعدى ، فضرب عليهم مغرما سبعين ألفا ، فلم يزيدوا الا شدة ؛ فضرب عليهم بعثا الى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك ؛ فبعث اليهم القائد موسى بن أبى جمادة العمرى فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ، ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق ؛ ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم ، ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التى ملأت الافواه وأسالت من الجفون الامواه ؛ وهى قتلتهم ولى الله تعالى المجاهد فى سبيله أبا عبد الله سيدى محمد العياشى المالكى رحمه الله . فما زلنا نسمع أن قبيلة الخلط انما سلبوا العز منذ قتلهم للولى المذكور ؛ وكان ذلك فى المحرم سنة احدى وخمسين وألف ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن بنى معقل عرب الصحراء من ارض المغرب

وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم

قال ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى ، مجاورون لبنى عامر من زغبة الهلاليين فى مواطنهم بقبلة تلمسان ؛ وينتهون الى البحر المحيط من جهة الغرب ، وهم ثلاثة بطون . ذوى عبيد الله ؛ وذوى منصور ، وذوى حسان .

فذوى عبيد الله منهم هم المجاورون لبنى عامر ، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت فى التل وما يواجهها من القبلة ، ومواطن ذوى منصور من تاوريرت الى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها الى سجلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل ، مثل تازا وغسأسة ومكناسة وفأس وبلاد تادلا والمعدن

ومواطن ذوى حسان من درعة الى البحر المحيط ؛ وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس ، فيستولون على السوس الاقصى وما اليه وينتجعون كلهم في الرمال الى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة .

وكان دخولهم الى المغرب مع الهلاليين فى عدد قليل يقال انهم لم يبلغوا المائتين ، واعترضتهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا الى الهلاليين منذ عهد قديم ؛ ونزلوا باخر مواطنهم مما يلى ملوية ورمال تافيلالت ، وجاوروا زناتة فى القفار فعفوا وكثروا وأثروا فى صحارى المغرب الاقصى ؛ فعمروا رماله وتقلبوا فى فيافيه ، وكانوا هنالك أحلافا لزناتة سائر أيامهم ؛ وبقى منهم بأفريقية جمع قليل اندرجوا فى جملة بنى كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم فى الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب . فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا الى الامصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء فى القفار ، وتفردوا فى البيداء فنموا نموا لاكفاء له ؛ وملكوا قصور الصحراء التى اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا . ثم توات ؛ ثم بودة ، ثم تمنطيت ؛ ثم واركلان ؛ ثم تاسبيت ؛ ثم تيكرارين شرقا ، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها . فحازت عرب معقل هذه الاوطان فى مجالاتهم ، ووضعوا عليها الاتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا .

وكانوا فى تلك المدة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ، ويسمونها جمل الرحيل ، وكان لهم الخيار فى تعيينها ؛ ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى . ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه ، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم .

وكان لهم بازاء ذلك أقطاع من الدول يمدون الى أخذه اليد السفلى

وعددهم قليل كما قلنا ، وانما كثروا بمن اجتمع اليهم من القبائل من غير نسبهم ، فان فيهم من فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ، وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان احياء كبيرة ، يظعنون مع بنى معقل بجهات سجلماسة ووادى ملوية ، ولهم عدد وذكر ؛ وفيهم الصباح من الاخضر ؛ ويقولون انهم من ولد أخضر بن عامر وعامر هذا هو — والله أعلم — من ولد رياح الهلاليين ، وفيهم المهاية من عياض احدى بطون الاثبج الهلاليين ؛ وفيهم العمور من الاثبج أيضا ، وفيهم بطون أخر من بنى هلال وبنى سليم وغيرهم .

وأما انسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة ، والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح ؛ وهم — أعنى بنى معقل — يزعمون أن نسبهم فى أهل البيت الى جعفر بن أبى طالب ، وليس ذلك أيضا بصحيح ؛ لان الطالبين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة .

هكذا ذكر ابن خلدون ، لكنه لما تكلم على جهينة احدى بطون قضاعة ؛ وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملأوها . قال : « ونزل معهم فى تلك المواطن من اسوان الى قوص بنو جعفر بن أبى طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحى المدينة وأخرجوهم منها ؛ فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ، ويحترفون فى غالب أحوالهم بالتجارة » اه كلامه . فعلى هذا لايبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بنى هلال الى بلاد المغرب وأوطنوا صحراءه ، وهم بنو معقل المذكورون ؛ والناس مصدقون فى أنسابهم . والله تعالى أعلم بحقائق الامور .

ثم قال ابن خلدون : « والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن . فان فى اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل ؛ ذكرهما ابن الكلبى وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير ؛ وهو معقل بن كعب بن عليم بن جناب وينتهى نسبه الى قضاعة والآخر من بنى الحرث

بن كعب أصحاب نجران ؛ الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران فى الجاهلية والاسلام ، وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث بن كعب ؛ وينتهى نسبه الى كهلان » قال : « والانسب ان يكونوا من هذا البطن الآخر ؛ وقد عده الاخباريون فى بطون هلال الداخلين الى افريقية لمجاورتهم فى الوطن » قال : ومن املاء نسابهم أن معقلا جدهم له من الولد سجير ومحمد ؛ فولد سجير : عبيد الله ، وثعلب ؛ فمن عبيد الله ذوى عبيد الله البطن الكبير منهم ؛ ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحى الجزائر ، وولد محمد : مختارا ومنصورا وجلالا وسالما وعثمان ؛ فولد مختار بن محمد حسان وشبانة ، فمن حسان ذوى حسان البطن المذكور أهل السوس الاقصى ، ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك ، ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية فى ذوى حسان ينتجعون معهم ؛ وولد منصور بن محمد حسينا وأبا الحسين وهما شقيقان ، وعمران ومنبا وهما شقيقان أيضا وهما الاحلاف ، ويقال لعمران العمرانية ؛ ولمنبا المنبات ؛ ثم يقال لجميع البطون الاربعة ولد منصور بن محمد ذوى منصور ، وهم احدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه » .

فهذه أصول عرب المغرب الاقصى وكيفية دخولهم اليه واستيطانهم اياه ، وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ امام الفن أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون ؛ ومن جمهرة الانساب لابن حزم . وزدنا ما يحتاج منها الى البيان بيانا والله تعالى الموفق .

ولنرجع الى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله ، فانه لما رجع من افريقية الى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة رفع اليه أن أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد ، وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عندما بلغهما خبر الوقعة التى كانت على مقدمة المنصور بأفريقية حدثا أنفسهما بالتوثب على الخلافة ، فلما قدما عليه بالتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملأ أمرهما ثم قتلهما ،

وعقد للسيد أبى الحسن ابن السيد أبى حفص على بجاية . وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع المنصور فى ادخال ساقية الماء الى مراكش ثم تاقت نفسه الى الجهاد فكان منه ما نذكره .

الجواز الاول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الاندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبى زرع : وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور الى الاندلس برسم غزو بلاد غربها ؛ وهى أولى غزواته ، فعبر من قصر المجاز الى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الاول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين ، وشن الغارات على مدينة اشبونة وأنحائها ؛ فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران فى القرى وأبلغ فى النكاية ؛ وانصرف الى العدوة بثلاثة عشر ألفا من السبى ، فدخل فاسا فى آخر رجب من السنة المذكورة .

مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب

صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الاساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام فى آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله ؛ فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم ، وصار يفتتح حصونها واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها . وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهدم الكنيسة التى

بنواحيه ؟ وانقضت أمم النصرانية من كل جهة ، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس ، واعترضوا أسطول صلاح الدين فى البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريخة الى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١) يطلب اعانته بالأساطيل لمنازلة عكاء وصور وطرابلس الشام ، وأوفد عليه أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر من حصون الشام ، وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم فى دولته ، فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا الى يعقوب المنصور طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة الثغور التى ذكرنا .

وبعث معه الى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية ، وسروج عدة مثقلة ، فوصل الى المغرب فصادف المنصور بالاندلس فانتظره بفاس الى أن رجع فلقيه وأدى الرسالة وقدم الهدية .

وكان الكتاب الذى بعث به صلاح الدين من انشاء الاديب عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل ، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين الى أمير المسلمين وفى أوله الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب ، وبعده : الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنيفة من استعمر الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض ، وهو كتاب طويل .

ولما وقف عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك ، وأسرها فى نفسه ، وحمل الرسول على مناهج البر

---

(١) صوابه ست وثمانين [راجع كتاب الروضتين للمقدسى ج٢ ص ١٧٣]

والكرامة ؛ ورده الى مرسله ولم يجبه الى حاجته ، ويقال أنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا ، ومنع النصارى من سواحل الشام . والله تعالى أعلم .

قال ابن خلدون (٢) : وفى هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل الجهادية . وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها » وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته ... الى بحر جود ما لأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الندى ... الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل ... الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلى والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا ... تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتا ، فأعطاه بكل بيت ألفا ؛ وقال له : انما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، يعنى لا لاجل صلاح الدين .

عود المنصور الى افريقية والسبب فى ذلك

لما قدم المنصور من الاندلس الى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت اليه الاخبار بأن ابن غانية قد ظهر بأفريقية ، فنهض اليها من فاس فى ثامن شعبان من تلك السنة ، فدخل تونس فى أول ذى القعدة منها

(٢) هذا النقل غير موجود فى ابن خلدون سواء فى النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة ١٢٨٤ أو المطبوعة بالجزائر سنة ١٢٦٣ [١٨٤٧] ولعل المؤلف نقله عن نسخة أخرى خطية وربما تكون هي النسخة المخطوطة التى كان وقف عليها عند أحد عمال الغرب المعروف بولد الضاوية وهي التى استعملها عند جمعه لهذا التاريخ ا هـ .

فألقى بلاد افريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها الى الصحراء حين سمع بقدومه .

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الاندلس ، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر أفريقية ، فاغتنموا الفرصة فيها ؟ واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه ، وكتب الى قواد الاندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم فى أثر كتابه ، فاجتمع قواد الاندلس الى محمد بن يوسف والى قرطبة ، فخرج بهم فى جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الاندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبى دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع الى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفا من السبى وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه فى القطائن خمسون علجا فى كل قطينة ، وذلك فى شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفى هذا الشهر رجع المنصور من افريقية فانتهى الى تلمسان فأقام بها الى آخر السنة المذكورة ، وفى فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهى سنة آكرواو خرج المنصور من تلمسان الى فاس وهو مريض ، فكان يركب فى آكرواو ، فدخل فاسا وأقام بها مريضا سبعة أشهر حتى أبل من علته ، ثم نهض الى مراكش فأقام بها الى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ؟ ثم نهض منها الى الاندلس بقصد الجهاد ، وكان ما نذكره ان شاء الله .



الغزوة الكبرى بالارك من بلاد الاندلس

قال ابن خلكان . كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه الى خمس سنين ، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها الا القليل خرجت طائفة من الفرنج فى جيش كثيف الى بلاد المسلمين ، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا ؛ فانتهى الخبر الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم فى جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب ، واحتفل فى ذلك وعبر البحر الى الاندلس سنة احدى وتسعين وخمسمائة ؛ واتصل بالفرنج عبوره اليهم فجمعوا خلقا كثيرا من أقصى بلادهم وأدانيها واقبلوا نحوه .

قال ابن خلكان : وقد رأيت بدمشق جزء بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حموية السرخسى ، وكان قد سافر الى مراكش وأقام بها مدة ؛ وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغى ذكره ههنا .

قال : لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الاذفونش الفرنجى صاحب غرب جزيرة الاندلس ، وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ؛ وذلك فى أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم يعقوب المنصور - وهو يومئذ بمراكش - على التوجه الى جزيرة الاندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب الى ولاة الاطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج الى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها . فاتفق أنه مرض مرضا شديدا حتى يئس منه أطباؤه ، فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش . وحمل يعقوب المنصور الى مراكش وهو مريض ، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم فى البلاد وعاثوا فيها ، وأغاروا على النواحى والاطراف ؛ وكذلك فعل الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس . واقتضى الحال تفرقة الجيوش التى جمعها يعقوب المنصور شرقا وغربا ، واشتغلوا بالمدافعة

والممانعة ، فكثر طمع الاذفونش فى البلاد ؛ وبعث رسولا الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الاندلس ، وكتب اليه رسالة من انشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار ، وهى : « باسمك اللهم فاطر السموات والارض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد ، فانه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ؛ ولا ذى عقل لازب ، انك أمير الملة الحنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل ، واهمال أمر الرعية ، واخلادهم الى الراحة ؛ وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار ؛ وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم اذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ؛ وقد حكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ؛ فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لى انك لا تجد الى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل الى جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى والطرائد والمسطحات ؛ وأجوز بجملتى اليك فأقاتلك فى أعز الاماكن لديك ، فان كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت اليك ؛ وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وان كانت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحققت امارة الملتين والحكم على البرين ! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الارادة، لا رب غيره ولا خير الا خيره » .

فلما وصل كتابه الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه ، وكان المنصور يضرب به المثل فى حسن التوقيع كما يأتى فى بقية أخباره : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم

منها أذلة وهم صاغرون » ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع » فهو أول
من تكلم به فأرسله مثلا ، وأنشد متمثلا :

«ولا كتب الا المشرفية والقنى   ولا رسل الا الخميس العرمرم»

ثم أمر بالاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الامصار ؛ وضرب
السرادقات بظاهر البلد من يومه ، وجمع العساكر ، وسار الى البحر
المعروف بزقاق سبتة يريد الاندلس .

وقال ابن أبى زرع : خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة
مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين
وخمسمائة يولى السير ويطوى المناهل ولا يلوى على فارس ولا راجل ،
والجيوش تتابع فى أثره من سائر الاقطار ، فلما انتهى الى قصر المجاز أخذ
فى اجازة الجيوش الواردة عليه ، لا يفرغ من طائفة الا وقد لحقت بها أخرى
فأجاز أولا قبائل العرب ، ثم زناتة ، ثم المصامدة ؛ ثم غمارة ؛ ثم
المطوعه من قبائل المغرب ، ثم الاغزاز والرماة ، ثم الموحدون ؛ ثم
العبد ؛ ثم أجاز أمير المؤمنين فى أثرهم فى موكب عظيم من أشياخ
الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه ؛ واستقر
بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفى عشرين من رجب من السنة
المذكورة ، فأقام بها يوما واحدا .

ثم نهض الى العدو قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم ؛
فسار حتى بقى بينه وبين حصن الارك الذى كان العدو نازلا بازائه نحو
مرحلتين ، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة ؛ فجمع
الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم ، ثم اختص أهل الاندلس بمزيد
المشورة ، وقال لهم : « ان جميع من استشرته وان كانوا أولى بأس ومعرفة
بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم ، لتمرسكم بهم
وتمرسهم بكم » ، فأحالوه فى الرأى على القائد أبى عبد الله بن صناديد ،
فعول المنصور رحمه الله فى ذلك على رأيه .

وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل : ان أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه ، وأخذ فى تقريب القرب الى الله تعالى بين يدى جهاده ، فسرح السجون ؛ وأدر الارزاق ، وعين الصدقات ، ورحل فنزل الارك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع ، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال : « أيها الناس اغفروا لى فيما عسى أن يكون صدر منى » فبكى الناس وقالوا : « منكم يطلب الرضى والغفران » وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز الى اللقاء ، فكانت التعبئة تحت الغلس .

وحكى ابن أبى زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفا بمصلاة على الركوع والسجود ، وانه أغفى اغفاءة فرأى ملكا نزل من السماء فى صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح ؛ وأنشده فى ذلك أبياتا بقيت على ذكر المصور الى أن استيقض وقص رؤياه على وجوه الجند ، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة .

فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور فى قبته الحمراء المعدة للجهاد ، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبى يحيى بن أبى حفص وقدمه على ذلك الجيش ؛ وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات ، وقرعت بين يديه الطبول ؛ وسار فى قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد فى جيش الاندلس ؛ ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب ، ولمنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ؛ ولمحيوا ابن أبى بكر بن حمامة المرينى جد الملوك المرينيين على قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف العبد الوادى على قبائل بنى عبد الواد ، ولعباس بن عطية التوجينى على قبائل بنى توجين ، ولتلجين بن على على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة ، وعقد للفقيه الصالح أبى خزر بخلف بن خزر الاوربى على المتطوعة .

وقال ابن خلدون : ان الذى كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن ابى حفص ، والكل الى نظر الشيخ أبى يحيى بن ابى حفص ؛ وبقى المنصور رحمه الله فى جيش الموحدين والعبيد ، وأمر الشيخ ابا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه الى جهة العدو .

وكان المنصور قد ضفر مع أبن صناديد من الرأى أن يبقى هو متأخرا فى الموحدين والعبيد والحشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو ؛ ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول فى هيئة السلطان فيلقى العدو ؛ فان كانت للمسلمين فهو المطلوب ، وان كانت عليهم كان المنصور ردأ لهم ؛ ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفل حده ولانت شوكته .

فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه فى فرسان الاندلس وحماتها ، فكان الشيخ أبو يحيى اذا أقلع بجيشه عن موضع صباحا خلفه المنصور فيه بجيشه مساء ، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهى يومئذ الى جنب حصن الارك ويقال الاركو بزيادة الواو فى آخره ، قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهو وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر ، ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه فى البسيط ضحوة يوم الاربعاء التاسع من شعبان سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، وعند ابن خلكان أن ذلك كان يوم الخميس ؛ قال : واقتفى المنصور فى ذلك طريقة أبيه وجده فانهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم فى صفر ، فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب ؛ وعقد الرايات لامراء القبائل ؛ وأوقف كل قبيلة فى مركزها الذى عين لها ، وجعل عسكر الاندلس فى الميمنة ؛ وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة ؛ وجعل المتطوعة والاغزاز والرماة فى المقدمة وبقى هو فى القلب فى قبيلة هنتاتة .

ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشى فى صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر ؛ وبينما الناس على

ذلك اذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج فى الحديد ، وكانت هذه الكتيبة هى شوكة ذلك الجيش وحده ؛ كان الفنش لعنه الله قد انتخبهم وصلت أقسته عليهم صلاة النصر ورشوهم بماء المعمودية ؛ وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم ؛ فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادى الشيخ أبى يحيى : معشر المسلمين اثبتوا فى مصافكم ؛ واخلصوا لله تعالى نيتكم ، واذكروا الله عزوجل فى قلوبكم . وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب ، فحض الناس على الصبر وثبتهم ، وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين فى صدور خيلها أو كادت ، ثم تقهقرت قليلا ثم عاودت الحملة فكانت كالاولى ؛ ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين ، وخلص البعض منها الى الشيخ أبى يحيى يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالا شديدا واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم ، وسمى بنو الشيخ أبى يحيى بنى الشهيد وعرفوا به من يومئذ ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه ؛ وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التى دفعت الى الشيخ أبى يحيى ؛ وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة الى الربوة التى فيها الفنش وجموعه ؛ وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل ، فتوغل المسلمون فى تلك الاوعار اليهم وخالطوهم بها ؛ واشتد القتال واستحر القتل فى الكتيبة التى دفعت أولا وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحنا ، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم اذ كان اعتماده ومعوله عليهم .

وأسرعت خيل من العرب الى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالى قد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام ؛ فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت ، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود ؛ وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة ،

فلم يرع الفنش اللعين الا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والابواق واصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الارض فقال ما هذا فقيل : هذا المنصور قد أقبل في جيشه ، وما قاتلك سائر اليوم الا طلائعه ومقدماته فقذف الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزلت بهم الارض زلزالها فولوا الادبار لايلوون على شيء ، وأسعدهم يومئذ من وجد في فرسه بقية تنجيه ، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ؛ وأحاط بعضهم بحصن الارك يظنون أن الفنش قد تحصن به ، وكان عدو الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الاخرى ؛ واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الاموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر .

وقال ابن خلدون : « كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن اذفونش وابن الرند والبيبوج ، قال : واعتصم فلهم بحصن الارك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم ، فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى نودي بهم عددهم من المسلمين .

وفي القرطاس : أن عدد أسارى الارك كانوا أربعة وعشرين ألفا من عليهم المنصور وأطلقهم ، قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين ؛ وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك .

وقال ابن الاثير : « كانت الدائرة يوم الارك أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة ؛ وكان عدد من قتل من الفرنج أزيد من مائة ألف ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا ؛ فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ؛ ومن الخيل ستة وأربعون ألفا وقيل ثمانون ألفا ، ومن البغال مائة ألف ؛ ومن الحمير أربعمائة ألف »

قال في نفح الطيب : « جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لا ابل لهم » قال : « وأما الجواهر والاموال فلا تحصى ، وبيع الاسير بدرهم ؛ والسيف بنصف درهم ؛ والفرس بخمسة دراهم ؛ والحمار بدرهم ، وقسم المنصور

الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع » كذا فى نفح الطيب .

وفى كامل ابن الاثير : « أن يعقوب المنصور رحمه الله نادى فى عسكره من غنم شيئا فهو له سوى السلاح ؛ وأحصى ما حمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس ، واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفا » .

ثم تقدم المنصور بجيوشه الى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى، ويفتح الحصون والمعاقل ؛ ويقتل ويسبى ويأسر ، حتى وصل الى جبل سليمان ! ثم ثنى عنانه راجعا وقد امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم » ولم يعارضه من الفرنج معارض ، حتى وصل الى اشبيلية فاستقر بها .

وأما الفنش فانه لما انهزم وصل الى طليطلة فى أسوأ حال ؛ فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه وركب حمارا ؛ وأقسم أن لا يركب فرسا ولا بغلا ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية ، فجمع جموعا عظيمة ، وبلغ الخبر بذلك الى المنصور فبعث الى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه ، فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم ؛ ثم نهض الى الفنش فالتقوا فى ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة ؛ وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها .

ثم تقدم المنصور الى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارات على ما حولها من البلاد ، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادى الحجارة ومجريط وجبل سليمان واقليج وكثير من أحواز طليطلة .

ثم ارتحل عن طليطلة الى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة ، وسبا النساء والذرية ؛ وغنم أموالها ؛ وهدم أسوارها ، وأضرم النيران فى جوانبها ؛ وتركها قاعا صفصفا .

وثنى عنانه الى اشبيلية ، فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين

وخمسمائة ؛ فرفع اليه فى القاضى أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها الى المرض فى دينه ومعتقده ، وكان أحد فلاسفة الاسلام وربما الفى بعضها بخط يده فحبس ، ثم أطلق وأشخص الى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله .

ثم خرج المنصور من اشبيلية غازيا بلاد ابن اذفونش ، فسار حتى احتل بساحة طليطلة ، وبلغه أن صاحب برشلونة قد أمد ابن اذفونش بعساكره وانهم جميعا بحصن مجريط فنهض اليهم ، ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن اذفونش من قبل القتال ؛ ثم انكفأ المنصور راجعا الى اشبيلية .

ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح ، فأجابهم اليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا للازمة الجهاد الى أن يفرغ منهم ، فأتاه خبر على بن اسحق المسوفى المعروف بابن غانية وأنه دخل افريقية وأراد الاستيلاء عليها ؛ ففت ذلك فى عزمه وصالحهم على المدة التى ذكرنا .

وعقد على اشبيلية للسيد أبى زيد بن الخليفة ؛ وعلى مدينة بطليوس للسيد أبى الربيع ابن السيد أبى حفص ؛ وعلى المغرب للسيد أبى عبد الله ابن السيد أبى حفص ؛ ثم عبر البحر الى المغرب فوصل الى مراكش فى شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفى نفح الطيب : أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق الا فتحها خرجت اليه والدة الاذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه ابقاء البلد عليهن، فرق لهن ومن عليهن به، ووهب لهن من الاموال والجواهر ماجل ؛ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة . والله تعالى أعلم .

لطيفة : قال الشيخ محيى الدين بن عربى الحاتمى رحمه الله فى كتاب الفتوحات المكية ما نصه : « ولقد كنت بمدينة فاس سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت الى الاندلس لقتال العدو

حين استفحل امره على الاسلام ، فلقيت رجلا من رجـال الله ولا ازكـى على الله أحدا ؛ وكان من أخص أودائى ، فسألنى ما تقول فى هذا الجـيش هل يفتح له وينصر فى هذه السنـة ام لا؟ فقلت له : ما عنـدك فى ذلك ؟ فقال : « ان الله تعالى قد ذكره فى كتابه ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح فى هذه السنة ، وبشر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك فى كتابه الذى انزله عليه ؛ وهو قوله : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » فموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الالف فانها لاطلاق الوقوف فى تمام الآيـة ؛ فانظر اعدادها بحساب الجمل ؛ فنظرت فوجدت الفتح يكون فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، ثم جزت الى الاندلس وقد نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والاركو وكركرا وما انضاف الى هذه القلاع من الولايات . هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته ، فأخذت للفاء ثمانين والتاء أربعمائة ، وللحاء المهملة ثمانية ؛ وللالف واحد ؛ وللميم أربعين ؛ وللباء اثنين ؛ ولياء عشرة ؛ وللنون خمسين ، وأما الالف فقد أخذ عددها ؛ وكان المجموع احدى وتسعين وخمسمائة ؛ وهى سنو الهجرة الى هـذه السنة فهذا من الفتح الالهى لهذا الشخص » انتهى .

ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والاندلس

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير الى الاندلس بقصد الجهاد أوصى الى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مـراكش ، والاعتنـاء بتشييد قصورها . فمن آثاره الباقية بها الى الآن بابها المعروف بباب اكناور ، ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه ، وأمرهم ببناء الجامع الاعظم بها المنسوب اليه الى اليوم وتشيد مناره الماثل به ، ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل فى الارتفاع وعظم الهيكل . قال ابن سعيد : « طول صومعة الكتبيين بمراكش مائـة ذراع

وعشر أذرع » .

ولما اجتاز المنصور فى سفره هذا بأرض سلا أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح ؛ فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها ، وركبت أبوابها ؛ وأمر ببناء المسجد الاعظم بطالعة سلا ومدرسة الجوفية منه . قال صاحب الروض المعطار : « كان يعمل فى بنائه ونقل حجارته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج فى قيودها ؛ وأمر ببناء جامع حسان ومناره الاعظم المضروب به المثل فى الضخامة وحسن الصنعة ؛ قالوا ولم يتم بناؤه .

ولما فرغ المنصور من وقعة الارك ، واحتل بمدينة اشبيلية ؛ أخذ فى اتمام بناء جامعها الاعظم وتشييد مناره المشاكل للمنارين المتقدمين ؛ فهو ثالثة الاثافى بالنسبة لهما ، بل قيل انه ليس فى بلاد الاسلام منار أعظم منه ؛ وعمل لهذا المنار تفافيح من أملح ما يكون » . قال فى القرطاس : « بلغت من العظم الى مالا يعرف قدره الا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله . وزنة العمود الذى ركبت عليه أربعون ربعا من الحديد ؛ وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلى ، وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبا » .

ولما كمل جامع اشبيلية وصلى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادى اشبيلية ، وقد تقدم لنا فى أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس ؛ وأن حافده المنصور هذا شرع فى بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده .

ولما رجع المنصور من الاندلس الى مراكش وجد كل ما أمر به من البناآت قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع ، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم ؛ وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك ؛ لانه سعى اليه بأنهم احتجنوا الاموال ، وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم ؛ فلما دخله المنصور وتطوف به أعجبه ؛ فسأل عن عدد أبوابه فقيل انها سبعة أبواب

والثامن هو الذى يدخل منه أمير المؤمنين ، فقال المنصور عند ذلك :
« لابأس بالغالى اذا قيل حسن »

واتخذ المنصور (١) رحمه الله فى جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها ، وتختفى اذا انفصلوا عنها .

حكى الشريف الغرناطى شارح الحازمين عن الكاتب البارع أبى الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال : « كانت لابى بكر يحيى بن مجير (٢) الشاعر المشهور وفادة على المنصور فى كل سنة ، فصادف فى احدى وفاداته فراغه من احداث المقصورة التى كان أحدثها بجامعة المتصل بقصره فى حضرة مراكش ، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله ، وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوه اياها فى ذلك ، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ؛ ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التى أولها :

أعلمتنى ألقى عصا التسيار ... فى بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها :

طورا تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الاسوار
وتكون حينا عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالامام يزورها ... فى قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهلالات للاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها .

---

1) نسب صاحب الحلل الموشية بناء المسجد والمقصورة لعبد المؤمن

2) توفى بمراكش سنة 588.

قال أبو العباس المقرى فى نفح الطيب : وقد بطلت حركات هـذه المقصورة الآن ، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف ؛ والله وارث الارض ومن عليها .

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله :

له حلبة الخيل العتاق كأنها — نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى — فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه — وان جردوه فى ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف اهابه — وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا — فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفا أديمه — وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فضى الاديم مدنر — عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خط خط الراهى بمهرق كاتب — فجر عليه ذيله وهو ما جفا
تهب على الاعداء منها عواصف — ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمترى — أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان فى البيداء يألف سربه — فربته مهرا وهى تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لانه — اذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفنش الصلح فأجابه اليها :

أهل بان يسعى اليه ويرتجى — ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلدا — وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره — وتعطرت منه الرياح تأرجا

ودخل عليه الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الاسود الشاعر فأنشده .

أزال حجابه عنى وعينى — تراه من المهابة فى حجاب
وقربنى تفضله ولكن — بعدت مهابة عند اقترابى

وكانم بكسر النون جنس من السودان ؛ وهم بنو عم تكرور ؛ وليس اسمهما للانتساب لاب أو لام ، وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمى هذا الجنس بها ، وكذلك تكرور اسم للارض التى هم بها فسموا بها ؛ والله أعلم .

بقية اخبار المنصور وسيرته

قال ابن ابى زرع : كان المنصور رحمه الله ذا راى وحزم ودين وسياسة، قال : وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين : الحمد لله وحده فجرى عملهم على ذلك . وقد تقدم لنا أن ذلك كان فى دولة أبيه فالله أعلم.

وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذى ضخم الدولة وشرفها .
وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة ، صنع الله عزوجل فى أيامه الامن بالمشرق والمغرب والاندلس ، فكانت الظعينة تخرج من بلاد تول فتنتهى الى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ضبط الثغور ، وحصن البلاد ، وبنى المساجد والمدارس فى بلاد افريقية والمغرب والاندلس ؛ وبنى المرستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الانفاق فى جميع أعماله ، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم ؛ كل على قدر مرتبته ؛ وبنى الصوامع والقناطر ، وحفر الآبار للماء فى البرية واتخذ عليها المنازل من السوس الاقصى الى سويقة ابن مصكوك ، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفا للاسلام وأهله .

وقال ابن خلكان : كان يعقوب المنصور رحمه الله صافى السمرة جدا ، الى الطول ماهو ؛ جميل الوجه ؛ أفوه ؛ أعين . شديد الكحل . ضخم الاعضاء ، جوهرى الصوت ، جزيل الالفاظ . من اصدق الناس لهجة ؛ وأحسنهم حديثا ؛ وأكثرهم اصابة بالظن ، مجربا للامور ؛ ولى

وزارة أبيه فبحث عن الاحوال بحثا شافيا ، وطالع مقاصد العمال والـولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الامور ؛ فلما مات أبوه اجتمع رأى أشياخ الموحدين على تقديمه فقام بالامر أحسن قيام ؛ ورفع راية الجهاد ؛ ونصب ميزان العدل ؛ وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ؛ ونظر فى أمور الدين والورع ، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الاقربين ؛ كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ؛ فاستقامت الاحوال فى أيـامه ، وعظمت الفتوحات ؛ وكان قد أمر لاول دولته بقراءة البسملة فى أول الفاتحة فـى الصـلوات ؛ وأرسل بذلك الى سائر بلاد الاسلام التى فى ملكه ؛ فأجاب قوم وامتنع آخرون ، وكان ملكا جوادا عادلا ، متمسكـا بالشرع المطهر . يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغى من غير محاباة ؛ ويصلى بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ؛ ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحـق .

قال ابن خلكان : وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا ؛ وهى أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عاشرأبى حفص كان قـد تزوج أخت يعقوب المنصور ، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة ؛ فجـاءت الى بيت أخيها يعقوب المنصور ؛ فسير الشيخ عبد الواحد فى طلبها فامتنعت عليه ، فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك الى قاضى الجماعـة بمراكش ، وهـو أبو عبد الله محمد بن على بن مروان ؛ فاجتمع القاضى المذكور بأمير المؤمنين يعقوب المنصور ، وقال له : «ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله» فسكت عنه المنصور ، ومضت أيام ؛ ثم أن الشـيخ أبا محمد اجتمع بالقاضى المذكور فى قصر المنصور بمراكش وقال له : « أنت قاضى المسلمين وقد طلبت أهلى فما جاءونى » فاجتمع القاضى بالمنصور وقـال له : « ياأمـير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية » فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقى الشيخ عبد الواحد القاضى بالقصر المذكور فقـال له : « ياقاضى المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلى وقد

منعونى منهم » فاجتمع القاضى بالمنصور ، وقال له : « يامولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لاهله ؛ فاما أن تسير اليه أهله ، واما أن تعزلنى عن القضاء » فسكت المنصور وقيل انه قال له : « ياعبد الله ماهذا الا جد كبير » ثم استدعى خادما وأمره سرا بأن تحمل أهل الشيخ عبد الواحد اليه ، فحملت اليه فى ذلك اليوم ، ولم يتغير على القاضى ولا قال له شيئا يكرهه ؛ وتبع فى ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره ؛ وهذه حسنة تعد له وللقاضى أيضا فانه بالغ فى اقامة منار الشرع والعدل .

وكان المنصور يشدد فى الزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الاحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وأمر برفض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب وان الفقهاء لا يفتون الا من الكتاب والسنة النبوية ؛ ولا يقلدون أحدا من الائمة المجتهدين ، بل تكون احكامهم بما يؤدى اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

قال ابن خلكان : ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق ، مثل أبى الخطاب بن دحية وأخيه أبى عمرو ؛ ومحيى الدين بن عربى نزيل دمشق وغيرهم ؛ وكان يعاقب على ترك الصلوات ، ويأمر بالنداء فى الاسواق بالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته ، حتى انه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الا من هو فى طاعته وداخل فى ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس ، وكان محسنا ، محبا للعلماء مقربا للادباء ؛ مصغيا الى المدح ؛ مثيبا عليه ، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه صفوة الادب وديوان العرب فى مختار الشعر ، وهو مجموع مليح أحسن فى اختياره كل الاحسان .

وكان المنصور يضرب به المثل فى حسن التوقيع واجادته وقد تقدم لنا

ما وقع به على كتاب الفنش .

وحكى ابن الخطيب فى رقم الحلل : أن المنصور طلب يوما من تاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد ، وضبط أمر ؛ فعرفه برجلين ؛ قال فى أحدهما : وهو بحر فى علمه ؛ وقال فى الآخر : وهو بر فى دينه ، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه ؛ وأكذبا الدعوى ؛ فوقع المنصور على رقعة القاضى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد فى البر والبحر ، قال ابن الخطيب . وهذا من التوقيع العريق فى الاجادة والصنعة .

وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والادباء وأرباب المعارف والفنون . حكى أبو الفضل التيفاشى قال : جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ؛ والرئيس الوزير أبى بكر بن زهر بضم الزاى ، وكان الاول قرطبيا ، والثانى اشبيليا ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : « ما أدرى ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية »

وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، وزر للمنصور ولابيه من قبله .

قال ابن خلكان : كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء ، نالوا المراتب العلية ، وتقدموا عند الملوك ؛ ونفذت أوامرهم وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع الى الاندلس ، ومما قاله بمراكش يتشوق الى ولد له صغير تركه باشبيلية :

ولى واحد مثل فرخ القطا   صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فيا وحشتى   لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقنى وتشوقته   فيبكى على وأبكى عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه الى ومنى اليه

قال العلامة الاديب أبو العباس المقرى فى نفح الطيب : أخبرنى الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى الاندلسى الاصل ، الفاسى المولد والنشأة ، حكيم حضرة السلطان أبى العباس المنصور بالله السعدى ، أن ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها يعقوب المنصور أرسل المهندسين الى اشبيلية ـ يعنى من غير علم من ابن زهر ـ وامرهم ان يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش . ففعلوا ما أمرهم به فى أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وان ذلك أحلام ، فقيل له : ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله فاذا ولده الذى تشوق اليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور مالا مزيد عليه ولا يعبر عنه . « هكذا هكذا والا فلالا » .

ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل وادى آش ، كان حاذقا بصناعة الطب والجراحات . ومن أطبائه أيضا الحفيد بن رشد المتقدم الذكر . ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبى النشأة ، اليابورى الاصل . والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية ، ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ ابو بكر بن الجد ، والفقيه القاضى ابو عبد الله ابن الصقر ، وغيرهم رحم الله الجميع .



وفـــاة يعقوب المنصور رحمـــه الله

قال ابن ابى زرع : لما رجع المنصور من الاندلس الى مراكش اخـذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله . فبايعه كـــافة الموحدين وسائر أهل الامصار والاقطار ، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس فى محل الخلافة وجرت الاحكام والاوامر باسمه وعلى يديه فـى حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه .

وقال ابن خلكان : لما وصل المنصور الى مراكش – يعنى بعد قدومه من الاندلس – أمر باتخاذ الاحواض والروايا وآلات السفــر للتوجه الى بلاد افريقية ، فاجتمع اليه مشايخ الموحدين وقالوا له : ياسيدنا قد طالت غيبتنا بالاندلس؛ فمنا من له خمس سنين وغير ذلك . فتنعم علينا بالمهـلة هذا العام وتكون الحركة فى أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فأجابهم الى سؤالهم ؛ وانتقل الى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المتنزهات المعدة له .

وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمـة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندريـــة فى الاتساع وحسن التقسيم واتقان البـناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذى هناك ؛ وهى على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلى ، وطاف تلك البلاد وتنزه فيهـا ثم رجع الى مراكش .

قال ابن خلكان : وبعد هذا اختلفت الروايات فى أمره ؛ فمن الناس من يقول : أنه ترك ما كان فيه وتجـرد وساح فى الارض حتى انتهى الى بلاد الشرق ؛ وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ، ومنهم من يقول : انه لما رجع الى مراكش كما ذكرناه توفى فى غرة جمادى الاولى ، وقيل فى ربيع الآخرة فى سابع عشرة ؛ وقيل فى غرة صفر ؛ ولم ينقل شىء من أحواله بعد ذلك الى حين وفاته . وقيل توفى بمدينة سلا .

قال ابن خلكان : ثم حكى لى جمع كثير بدمشق ان بالقـرب مـن

المجدل ـ البليدة التى من أعمال البقاع العزيزى ـ قرية يقال لها حمارة ، والى جانبها مشهد يعرف بقبر الامير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحى متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف ، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب ، قال : وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به .

قال المقرى فى نفح الطيب : هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولع العامة به ، فكذبوا فى موته ؟ وقالوا : انه ترك الملك وحكوا ما شاع الى الآن وذاع مما ليس له أصل ، ثم نقل عن الشريف الغرناطى مثل ذلك فانظره .

قال مؤلفه عفا الله عنه : وعندى (١) أن انكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد ، وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعا به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على انه قبر يعقوب ملك المغرب من غير اصل ولا مستند ، هذا بعيد فى العادة ؟ بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته . نعم ، ما تزعمه عامة المغرب فى حمة أبى يعقوب التى بقرب مدينة فاس انها منسوبة ليعقوب المنصور هذا ، وانه رصد لها عفريتين يوقدان عليها الى الابد ؟ وان حرارة مائها بسبب ذلك الايقاد ؟ وان الشفاء الذى يحصل للمستحمين انما هو ببركة يعقوب المنصور ، وجعلوا له زوجة أو بنتا اسمها شافية اشتقاقا من

---

[١] قول المؤلف وعندى أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد الخ فيه نظر لا يخفى على من تتبع أحوال معتقدات العامة فى عظمائها بعد الموت كالشيعة فى أئمتها وغيرهم من الغلاة فى التعظيم لذوى الظهور فى السياسة والصلاح . فقد ذكر المؤلف نفسه أن اصحاب الروكي لا يصدقون بموته ولا زال البعض من أصحاب الكتاني يعتقد حياته وكم لهذا في التاريخ من نظير زد على ذلك أن كلام مؤرخي المغاربة أولى بالاعتبار فى هذا المقام والحق ما قاله الغرناطى فى شرح المقصورة بعد كلام طويل وكذب الكافة من العامة بوفاته ولهم فى ذلك حكايات يقولونها إلى الآن كلها تخرص وأباطيل اه .

نفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل ، وانما حرارة العين لخاصية أودعها الله فى أصلها ومنبعها ، وكذا الشفاء الحاصل بها انما هو بخاصية فى ذلك الماء ؛ ولعلها مافيه من الكبريتية ؛ فانا نرى أصحاب الجرب يتطخون بالكبريت المعالج فيشفون ؛ وكم من عين على وجه الارض فى المشرق والمغرب ؛ وبلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد .

وقال الجوهرى فى الصحاح الحمة العين الحارة يستشفى بها الاعلاء والمرضى وفى الحديث العالم كالحمة اه ومثله فى القاموس ؛ بل ذكر فيه أن مدينة تفليس — وهى قصبة كرجستان عليها سوران — قال وحماماتها تنبع ماء حارا بغير نار .

وقد ذكر ابن أبى زرع فى القرطاس حمة أبى يعقوب هذه ، وذكر معها حمتين أخريين فقال : « وبالقرب أيضا من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان ، ماؤها فى أشد ما يكون من السخونة ؛ وبالقرب أيضا منها حمة وشنانة وحمة أبى يعقوب وهى من الحمات المشهورة بالمغرب » اه كلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعا ، ولعله أبو يعقوب الاشقر الآتى ذكره فى احداث المائة السابعة .

ولنرجع الى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول : قال ابن الخطيب فى رقم الحلل : توفى يعقوب المنصور رحمه الله فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ودفن بمجلس سكناه من مراكش ؛ وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به ، فادعوا انه ساح فى الارض اه.

وقال ابن أبى زرع : لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شىء فعلته فى خلافتى الا على ثلاث وددت انى لم افعلها ، الاولى : ادخال العرب من افريقية الى المغرب مع انى أعلم انهم أهل فساد . والثانية : بناء

رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر . والثالثة : اطلاقي أسارى الارك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثارهم .

قلت ما ذكره رحمه الله في رباط الفتح من انه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه ، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفاق النقصان وطوارق الحدثان .

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث فنقول : في سنة أربعين وخمسمائة هدم على بن عيسى بن ميمون ـ وكان من رؤساء البحر في دولة اللمتونيين ـ صنم قادس ، وقادس هذه هي الجزيرة المسماة في لسان العامة اليوم بقالص ؟ وكان بها صنم عظيم على صورة رجل وبيده مفتاح يقال أن حكماء اليونان اتخذوه طلسما هناك ، كان من خاصيته أن يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط . فكانت السفن لا تجرى هناك على ما قيل ، فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيئا .

وفي السنة المذكورة توفي أبو على منصور بن ابراهيم المسطاسي دفين آزمور ، وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبي شعيب السارية .

وفي سنة اربع واربعين وخمسمائة توفي الامام الهمام الحافظ البارع ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي . قال ابن خلكان : توفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ، وقيل : في شهر رمضان من السنة المذكورة ، ودفن بباب آيلان داخل المدينة ، وذلك في دولة عبد المؤمن ابن علي .

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفي الشيخ أبو الحسن على ابن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ، ينتهي نسبه الى امير المومنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو من أهل مدينة فاس ؟ وبها توفي اخريات شعبان من السنة المذكورة ، وكان فقيها زاهدا صوفيا ، قال ابو

الحسن المذكور : « اعتكفت على قراءة الاحياء سنة ، فجردت المسائل التى تنقد عليه وعزمت على احراق الكتاب ، فنمت فرأيت قائلا يقول : جردوه واضربوه حد الفرية ؛ فضربت ثمانين سوطا ، فلما استيقظت جعلت أقلب ظهرى ووجدت الالم الشديد من ذلك فتبت الى الله ، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة » . وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان فى جنازة أبى الحكيم بن برجان .

وفى سنة احدى وستين وخمسمائة توفى الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور ، وبها توفى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى من السنة المذكورة ، وكان رضى الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى ، وكان اذا وقف فى صلاته يطيل القيام ، فلذلك لقب بالسارية ، ونقلت عنه فى الورع والخوف حكايات أنظر التشوف .

قال مؤلفه عفا الله عنه كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف ، ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الادباء من النسيب وغيره ؛ وأنشدتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله ؛ فأحببت أن أذكرها هنا وهى هذه :

لله ياربع ما هيجت من شجن	على الفؤاد ومن ضنى على البدن
وقفت فيك ركابا طالما وقفت	على القصور على الاطلال والدمن
أيام فيك حسان ما أشبهها	بالشمس حسنا ولافى اللين بالغصن
وفيك أسد من الملوك عادتها	بذل النضار وصون البيض والحصن
يحمون منك عراصا كنت أعهدها	مأوى السرور فعادت موقف الحزن
عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة	كأن بأسهم المحذور لم يكن
قوم عرفت نداهم قبل معرفتى	نفسى وفاجأنى فى المهد بالمتن
ومذ ترعرعت لم أعلق بغيرهم	حتى كأنى رضعت الحب فى اللبن
قضيت حق الشباب فى منازلهم	أيام عيش لنا أحلى من الوسن

من ظن بالدهر خيرا فهو منخدع   فوده هدنة تبنى على دخن

لا انتحى منهلا الا شرفت به   ولا احل مكانا ليس بالخشن

ولا اصاحب من هذا الورى بشرا   الا حصلت على رزق من الاحن

حتى توهمت اننى جنيت لهم   حرب البسوس واننى ابو الفتن

وما لذى الفضل من ذنب يلام به   سوى فضيلته فى دهره الزمن

فعد ياقلب عن شكوى اضيق بها   ذرعا فشكواك لى ضرب من الوهن

ولست احسب هذا الدهر مرعويا   ولو تعلقت منه بابن ذى يزن

حلا لقد علقت يدى بمن علقت   ايدى العفاة به فى الشام واليمن

باعظم الناس منزلا ومنزلة   واسمح الناس كفا بالندى الهتن

واشمخ الناس قدرافى الورى وعلا   واحكم الناس للفروض والسنن

ذاك الولى الذى كل الانام غدا   يتلو مناقبه فى السر والعلن

ابو شعيب الذى من بحره انشعبت   جداول اليمن فى الاحياء والمدن

بدر غدا فى سماء المجد مكتملا   به علا ذكر آزمور فى الوطن

ارض اذا الضرع المحروم يممها   الفى بها بدل الاهلين والسكن

اود من اجل ثاويها حجارتها   واجعل الترب لى مسكا بلا ثمن

وكيف لا تطبى قلبى منازل من   به اكون من الاحداث فى جنن

مجلى الغياهب مبذول المواهب مقـ   ـفو المذهب بالجنيد والقرنى

بحر الحقيقة والغوث الذى لهجت   به القبائل فى المقام والظعن

ما زال يرقى الذرى من كل صالحة   حتى اكتسى شهرةالنيران فىالقنن

ياخير من امه العافى ولاذ به   اهن الجرائم والاوزار والمحن

انى خدمتك فى شعر عنيت به   وليس لولا حلاك الزهر بالحسن

اشكو اليك سقاما انت مبرئه   ولست ارجو سواك منه ينعشنى

وشد ازرى فانى كنت معتقدا   اذا بلغتك قدت الدهر بالرسن

وانظر بفضلك من وافاك معتفيا   فان نظرت فكل الخير يشملنى

واعظم السؤل منك النفس تصلحها   وطهر القلب ما لأمراض والدرن

وامنحه نورا وتوفيقا ومعرفة   ارى بها علمى والبر فى قرن

فجد بما رمت من جدواك يا أملي ... فبحر جودك عذب ليس بالاجن
سقى ضريحك غيث ما يزال به ... بستان أنسك وهو مورق الفنن
بجاه أفضل خلق الله كلهم ... محمد ذى المزايا الغر والمنن
عليه أزكى صلاة الله ما تليت ... صحف وما نسج القريض ذو لسن
والال والصحب والازواج قاطبة ... ومن قفا نهجهم فى كل ما زمن

واعلم أن التعلق بأولياء الله رضى الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار أن الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة ، والفاعل للاشياء كلها ؛ لا معبود غيره ؛ ولا مرجو سواه ، وانما التمسك بأهل الله لاجل التبرك بهم والاستشفاع بهم الى الله تعالى ، لانهم ابواب الله والدالون عليه ، نعفنا الله بهم وأفاض علينا من مددهم آمين .

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة توفى الشيخ الفقيه العالم أبو اسحق ابراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول ـ صاحب كتاب مطالع الانوار ، الذى وضعه على مثال كتاب مشارق الانوار للقاضى عياض ـ كان من الافاضل ، وصحب جماعة من علماء الاندلس ؛ وتوفى بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة ؛ وكان قد صلى الجمعة فى الجامع ذلك اليوم ، فلما حضرته الوفاة تلى سورة الاخلاص وجعل يكررها بسرعة ، ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجدا فوقع ميتا رحمه الله .

وفى سنة سبعين بعدها توفى الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد الانصارى المعروف بالمتيطى ، ومتيطة قرية بأحواز الجزيرة الخضراء ، وهو الموثق المشهور ؛ لازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطى وبين يديه تعلم عقد الشروط ، وله كتاب كبير فى الوثائق سماه النهاية والتمام فى معرفة الوثائق والاحكام ؛ ثم انتقل الى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه ، ومهر فى كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن فى وقته أقدر منه عليها ؛ وكان له فى السجلات اليد الطولى ،

وطبع عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه فى سواها بل كان طبعه فى ذلك أكثر من فقهه ، ثم ولى القضاء بشريش ، وأصابه خضر لازمه نحو السنتين ؛ ثم توفى مستهل شعبان من السنة المذكورة .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة توفى وحيد عصره ، وأعجوبة دهره ؛ الولى العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون ، قال قوم : انه من هزميرة ايرجان ؛ وقيل من بنى صبيح من هسكورة ؛ مات وقد نيف على المائة بنحو الثلاثين سنة ، ودفن بجبل ايرجان فى أوائل شوال من السنة المذكورة . كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه يقول : « رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى » قال : « ونظرت فى كتب التصوف فما رأيت مثل الاحياء للغزالى » وكان لباس الشيخ أبى يعزى برنسا أسود مرقوعا الى أسفل من ركبتيه ، وجبة من تليس مطرف ، وشاشية من عزف ؛ وكان يتعيش من نبات الارض ، ولا يشارك الناس فى معايشهم ؛ وكان طويلا رقيقا أسود اللون ، وكان اذا جنه الليل دخل غيضة كثيرة السباع يتعبد فيها ، فاذا قرب الفجر أعلم أصحابه به ؛ وأحواله رضى الله عنه وكراماته كثيرة .

وفى سنة ثلاث وسبعين بعدها توفى الشيخ العارف أبو الحسن على بن خلف بن غالب القرشى دفين قصر كتامة ، نشأ بشلب من بلاد الاندلس وقرأ بقرطبة ؛ واستقر آخرا بقصر كتامة وبه توفى فى السنة المذكورة ، وقيل ان وفاته كانت سنة ثمان وستين قبل هذا التاريخ والله أعلم . وكان رضى الله عنه متمكنا فى علوم القوم ؛ وكان الاولياء يحضرون مجلسه ، وهو من تلامذة أبى العباس بن العريف المتقدم الذكر .

وفى سنة ثمانين وخمسمائة توفى الشيخ أبو عبد الله التاودى المعلم من أهل مدينة فاس ، ومن أصحاب الشيخ أبى يعزى ؛ وكان يعلم الصبيان فيأخذ الاجر من أولاد الاغنياء فيرده على أولاد الفقراء ، ومات بفاس فى السنة المذكورة . وهذه النسبة التى بنى تاودى وهى قبيلة بقرب فاس .

وفى سنة احدى وثمانين بعدها توفى الامام المشهور أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبى محمد عبد الله بن أحمد السهيلى الخثعمى صاحب كتاب الروض الانف وغيره من التآليف الحسان ، وصاحب الابيات المشهورة فى الدعاء وهى :

يامن يرى ما فى الضمير ويسمع — أنت المعد لكل ما يتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها — يامن اليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه فى قول كن — أمنن فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة — فبالافتقار اليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة — فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه — ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن تقنط عاصيا — الفضل أجزل والمواهب أوسع

كان ببلدته سهيل وهى قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف ، ويتبلغ بالكفاف ، حتى نمى خبره الى السلطان بمراكش فطلبه اليها وأحسن اليه ؛ واقبل بوجهه غاية الاقبال عليه ، فأقام بها نحو ثلاث سنين ؛ ثم توفى بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش ؛ وكان رحمه الله ضريرا نفعنا الله تعالى به .

وفى سنة تسعين وخمسمائة توفى ولى الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسى المعروف بالغماد من صلحاء سلا ، كان رحمه الله عبدا صالحا ؛ يدور على المكاتب ؛ ويستوهب الدعاء من الصبيان ، ويبكى على نفسه ؛ وله كرامات ، وتوفى ببلده المذكور ؛ وقبره معروف ملاصق للمسجد الاعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة .

وفى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفى الشيخ أبو يعقوب يوسف بن على المبتلى . المعدود فى سبعة رجال من صلحاء مراكش ؛ كان رضى الله عنه كبير الشأن ، فاضلا صابرا راضيا على ربه فيما ابتلاه به من داء

الجذم ؛ سقط بعض جسده ذات يوم ، فصنع طعاما كثيرا للفقراء شكرا لله تعالى على ذلك ؛ وكان يسكن بحارة الجذمى العتيقة قبلى مراكش ، وبها مات فى شهر رجب من السنة المذكورة ، ودفن خارج باب أغمات عند رابطة الغار ؛ واحتفل الناس لجنازته رضى الله عنه .

وفى سنة أربع وتسعين بعدها توفى الشيخ العارف بالله تعالى ، أبو مدين شعيب بن الحسن الانصارى ؛ الولى الكبير المشهور ، أصله من حصن قطنيانة من عمل اشبيلية ، ثم انتقل الى العدوة فأخذ عن الشيخ أبى الحسن بن حرزهم ؛ وعن الشيخ أبى يعزى وبه انتفع وعليه تخرج ، وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه من العارفين الراسخين ، قد خاض من الاحوال بحارا ؛ ومن المعارف أسرارا ؛ وجال فى حداثة سنه فى بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس ، ولازم بفاس الشيخ ابن حرزهم كما قلنا ؛ ثم سمع بخبر الشيخ أبى يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته .

قال الشيخ أبو مدين : « لما قدمت فاسا لقيت بها الاشياخ ، فسمعت رعاية المحاسبى على أبى الحسن بن حرزهم ، وكتاب السنن للترمذى على أبى الحسن بن غالب ؛ وأخذت طريقة التصوف على أبى عبد الله الدقاق وأبى الحسن السلاوى » قال : « وكنت أزور الشيخ أبى يعزى مرارا فقال لى جماعة من الفقهاء المجاورين لابى يعزى قد ثبتت عندنا ولاية ابى يعزى ؛ ولكنا نشاهده يلمس بطون النساء وصدورهن ويتفل عليهن فيبرأن ونحن نرى أن لمسهن حرام ؛ فان تكلمنا فى هذا هلكنا ، وان سكتنا حرنا » ؛ فقلت لهم : « أرأيتم لو أن ابنة أحدكم أو أخته اصابها داء لا يطلع عليه الا الزوج ، ولم يوجد من يعانيه الا طبيب يهودى أو نصرانى ؛ ألستم تجيزون ذلك مع أن دواءه مظنون ؛ ودواء أبى يعزى أنتم على يقين منه ؟ فبلغ كلامى أبى يعزى فاستحسنه .

قال محمد بن ابراهيم الانصارى : « خرج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ ؛ وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس فى الحلقة فقال له أبو مدين :

« لم جئت ؟ » قال : «لاقتبس من نورك» فقال له : «ما الذى فى كمك؟ »
فقال له : «مصحف» فقال له : «افتحه واقرأ أول سطر يخرج لك»
ففعل ، فخرج له قوله تعالى « الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين »
فقال له أبو مدين : «أما يكفيك هذا ؟ » فاعترف الرجل وتاب . وكراماته
رضى الله عنه كثيرة .

وكان استوطن فى آخر عمره بجاية ؛ وكثر عليه الناس ، وظهرت
على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور ؛ وقال
له : « انا نخاف منه على دولتكم ، فان له شبها بالامام المهدى ؛ واتباعه
كثيرون بكل بلد » فوقع منه ذلك ، فكتب لصاحب بجاية يبعثه اليه وأوصاه
بالاعتناء به ، وأن يحمله اليه خير محمل ففعل

ولما كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه بالطريق مرض مرض
موته ، فلما وصل وادى يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به
هنالك فكان آخر كلامه : الله الحق ؛ فتوفى ودفن برابطة العباد قرب
تلمسان . وسمع اهل تلمسان بجنازته فحضروها ، وكانت من المشاهد
العظيمة .

وفى سنة خمس وتسعين وخمسمائة : توفى الشيخ الفقيه الصالح
أبو عبد الله محمد بن ابراهيم المهدوى صاحب كتاب الهداية ، أقام نحو
أربعين سنة لم تفته صلاة فى جماعة الا يوما واحدا لعذر عاقه عن ذلك ؛
دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفا من المال ، فما زال ينفقها فى
سبيل الخير حتى لم يبق له الا دار سكناه فباعها من بعض أهل فاس
واعمره المشترى لها ، فلما خرجت منها جنازته حازها المشترى المذكور ؛
وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة
المذكورة .

واعلم انا قد قدمنا أن الشيخ أبا مدين كان تلميذا للشيخ أبى يعزى ،
وكان الشيخ أبو يعزى تلميذا للشيخ أبى شعيب السارية ؛ وكان الشيخ

أبو شعيب تلميذا للشيخ أبى ينور الدكالى نفعنا الله بجميعهم وأفاض علينا من مددهم آمين .

ولنرجع الى أخبار الدولة الموحدية فنقول :

الخبر عن دولة امير المؤمنين ابى عبد الله

محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لابى عبد الله محمد الناصر لدين الله فى حياة والده يعقوب المنصور ، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة . وهو اليوم الذى توفى فيه أبوه ، فأقام بمراكش بقية ربيع الاول وربيع الثانى ؛ ثم نهض فى فاتح جمادى الاولى الى فاس ؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة .

ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغمارى الثائر بها ففتحها ، ثم رجع الى فاس فأتم بناء سورها الذى كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها ، وأقام بها الى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ؛ فعاد الى مراكش واقام بها الى ان كان ما نذكره.

غزو الناصر بلاد افريقية

وولاية الشيخ أبى محمد بن أبى حفص عليها والسبب في ذلك

لما هلك المنصور رحمه الله قوى أمر يحيى بن اسحق ـ المعروف بابن غانية بأفريقية ـ واستولى على أعمال قراقوش الغزى صاحب طرابلس وعلى المهدية ، وتغلب على بلاد الجريد ؛ ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين

وخمسمائة وافتتحها عنوة لاربعة أشهر من حصارهـا فى ختـام المـائة السادسة ، وقبض على السيد أبى زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين ؛ وطالب أهل تونس بالنفقة التى أنفق . وبسط عليهم العذاب حتى هلـك فى الامتحان كثير من بيوتاتهم . ثم دخل فى دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد ، وانتظمت له أعمال افريقية ؛ وفرق العمال ؛ وخطب للخليفة العبـاسى .

واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلـك ، وشاور الموحدين فى أمر افريقية ؛ فأشاروا عليه بمسالمة ابن غنية ، وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بالنهوض اليها والمدافعة عنها ، فعمل على رأيه ؛ ونهض اليها سنة ستمائة وبعث الاسطول فى البحر لنظر يحيى بن أبى زكريا الهزرجى .

واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه الى المهدية مع على بن الغانى من قرابته وولاه عليها .

ولما قرب الناصر من افريقية خرج ابن غانيـة من تونس الى القيروان ثم الى قفصة ، واجتمع اليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع؛ وسار الى حامة مطماطة ؛ ثم الى جبل بنى دمر فتحصن به .

ووصل الناصر الى تونس ، ثم سار فى اتباع ابن غانية الى قفصـة ثم الى قابس ، ثم عاد الى المهدية فعسكر عليها ، واتخذ الآلة لحصارها ؛ وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية فى أربعة آلاف مـن الموحدين سنة اثنتين وستمائة ، فلقيه بجبل تاجورة من نواحى قابس وأوقع به ؛ وقتل أخاه جبارة بن اسحق ؛ واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله

وأما الناصر فانه استمر محاصرا للمهدية وبها يومئذ على بن الغانى ، وكان يدعى بالحاج ، وكان شهما محاربا فامتنع على الناصر وابدى من مكايد الحرب وخداعه ما يقصر عنه الوصف ، وأشجى الموحديـن وبالـغ فى نكايتهم ؛ فكانوا يسمونه الحاج الكافر . ثم نزل على الامان واحسن اليـه

الناصر احسانا تاما ، وسماه بالحاج الكافى بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاة لصاحبه وحسن عهده معه . واستشهد الحاج الكافى هذا فى وقعة العقاب الآتية :

وكان فتح المهدية فى السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة اثنتين وستمائة ، وولى الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغى ؛ وارتحل عنها فى عشرين من جمادى الثانية ؛ فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر الذى بعدها .

ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة أشاع الناصر الحركة الى المغرب ، واستخلف على افريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع .

قال ابن خلدون : امتنع الشيخ أبو محمد الى أن بعث اليه الناصر فى ذلك بابنه يوسف فأكبر مجيئه وأذعن ، ويقال ان الناصر قال له : «يا ابا محمد انت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر فى استنقاذ هذا القطر ، ولا آمن عليه من عدو متوثب ، ولا يقوم بحمايته الا انا او انت . فامض الى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا ، أو قم أنت وأرجع أنا » . فقنعه الحياء حينئذ وأذعن للاقامة ، واشترط شروطه المعروفة ؛ وهى أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال ثم يعود الى وطنه ، وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره فى ولاية ولا عزل ؛ فقبل الناصر شروطه .

ولما عزم الناصر على النهوض الى المغرب خرج اليه أهل تونس رافعى أصواتهم بين يديه اشفاقا من عود ابن غانية اليهم ، فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه ؛ وقال : انا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على شدة حاجتنا اليه وهو فلان ، فتباشر الناس بولايته . وشيع الناصر الى باجة ورجع واليا على جميع بلاد افريقية ، واستقل بامرها ونهيها.

فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وافريقية ، وقفل

الناصر الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع سنة أربع وستمائة . ولما استقر بالحضرة وفدت عليه الوفود ، وهنأته الشعراء بالفتح . فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله :

ولما توالى الفتح من كل وجهة ... ولم تبلغ الاوهام فى الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره ... بما أودع السر الالهى عنده
فلا نعمة الا تؤدى حقوقها ... علامته بالحمد لله وحده

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع ، وأشار بذلك الى العلامة السلطانية عند الموحدين ؛ فانها كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ فى رأس المنشور : الحمد لله وحده ، وقد تقدم ذلك والله أعلم

فتح جزيرة ميورقة

كانت جزيرة ميورقة لبنى غانية المسوفيين من عهد على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وكان يعقوب المنصور قد بعث اليها أسطوله مرارا فامتنعت عليه ، ولما ولى ابنه الناصر وغزا افريقية وجه اليها من ثغر الجزائر أسطولا مع عمه السيد أبى العلاء ، والشيخ أبى سعيد بن أبى حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة ، وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحق المسوفى

وانصرف السيد الى مراكش بعد أن ولى عليها عبد الله بن طاع الله الكومى ، ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم . وولى القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبا محمد عبد الله بن سليمان الانصارى المعروف بابن حوط الله ، ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة فقال : «كان مشهورا بالعقل والفضل ، معظما عند الملوك معلوم القدر لديهم ، يخطب فى مجالس الامراء والمحافل الجمهورية مقدما فى ذلك ، ذا بلاغة وفصاحة الى أبعد مضمار ، ولى قضاء اشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة تتظاهر

بالعدل ، وعرف بما ابطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين . مجانبا لاهل البدع والاهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد الى غير ذلك .

ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد ابا زيد ؛ وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد ابى زيد وليها السيد ابو عبد الله بن ابى حفص بن عبد المومن ، ثم أبو يحيى بن على بن أبى عمران التينمللى ؛ ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيماً .

ثورة ابن الفرس وما كان من امره

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالاندلس ، ويعرف بالمهر ، وحضر مجلس يعقوب المنصور فى بعض الايام وتكلم بما خشى عاقبته فى عقده ، فخرج من المجلس واختفى مدة ؛ ثم القحطانى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا الحديث . وكان مما نسب اليه من الشعر قوله :

قولا لابناء المؤمن بن على ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها ... ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم ... بالأمر والنهى بحر العلم والعمل
وبادروا أمره فالله ناصره ... والله خادع أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه ، وقتل وسيق راسه الى مراكش فنصب بها وسكنت الفتنة.

وقد ثار ايضا فى سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد ـ وهذا العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر ـ فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من احواز

فاس ؛ فظفر به وقتل وعلق راسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس ، وأحرق جسده فى وسط الباب المذكور ، وركبت مصارعه فسمى الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة .

ثم فى سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى أنه الفاطمى ؛ وتبعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية ، فبعث اليه الناصر جيشا فظفر به وقتل .

وفى سنة احدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر ـ واسمه يعيش ـ سور بادس ولمديه ومليلية حياطة وتحصينا من فجأة العدو .

وفى سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة واصلاحها ، فشرع فى ذلك فى فاتح رجب من السنة المذكورة .

وفيها أيضا أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بأزاء جامع الاندلس بفاس ، فبنيت وجلب اليها الماء من العين التى خارج باب الحديد ؛ وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذى بحصن الجامع المذكور وأنفق فى ذلك كله من بيت المال .

وفيها أيضا أمر ببناء مصلى القرويين ، وأمر أن لا يصلى بمصلى الاندلس ؛ فأقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالاندلس والقرويين معا ، كما كانوا أولا بعد أن شهد أنها قديمة .

وفى شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس الى مراكش فأقام بها الى أن كان ما نذكره .

غزوة العقاب التي محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الاخبار بالناصر وهو بمراكش ان الفنش لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالاندلس ، وأنه يغير على قراها وينهب الاموال ويسبى النساء والذرية ؛ فأهمه ذلك وأقلقه وكتب الى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صاحب افريقية يستشيره فى الغزو ؛ فأبى عليه فخالفه وأخذ فى الحركة للجهاد .

وكان الناصر معجبا برأيه ، مستبدا بأموره ؛ ففرق الاموال على القواد والاجناد ؛ وكتب الى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد ، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الاقطار ، وتسارع الناس اليه خفافا وثقالا من البوادى والامصار .

فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش فى تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة ؛ فانتهى الى قصر المجاز فأقام به وشرع فى اجازة الجيوش من أوائل شوال الى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة ، فتلقاه هنالك قواد الاندلس وفقهاؤها ورؤساؤها ؛ واقام بطريف ثلاثا ، ثم نهض الى اشبيلية فى امم لا تحصى – وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر.

حكى بعض الثقات من مؤرخى المغرب أنه اجتمع مع الناصر فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس ستمائة ألف مقاتل ، وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده ؛ وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق ، فجعل العرب فرقة ؛ وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة ؛ وجعل المتطوعة فرقة ، وجعل جند الاندلس فرقة ؛ والموحدين فرقة ؛ وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية ، واهتزت جميع بلاد الفرنج لجوازه ، وتمكن رعبه فى قلوبهم ، فأخذوا فى

تحصين بلادهم واخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح ؛ فيقال انه قدم بين يديه كتاب النبى النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل ملك الروم يستشفع بـه ؛ وقد كان هذا الكتاب وقع اليه وراثة من بعض سلفه ، فاحتفل الناصر بقدومه ؛ وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة الى باب اشبيلية أربعين ميلا ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ؛ وصرفه الى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه .

وعند ابن خلدون ان الذى وفد على الناصر فى هذه الغـزوة هـو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الارك ؛ قال : وهو الـذى مكر بالناصر يوم العقاب ، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل لـه أموالا ؛ ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم .

ثم خرج الناصر من اشبيلية غازيا بلاد قشتالة فى أوائل صفر سنـة ثمان وستمائة ، فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قمة جبل، وقد تعلق بأكناف السحاب ليس له مسلك الا من طريق واحـد فى مضائق وأوعار ؛ فنزل عليه الناصر وأدار به الجيوش ، ونصب عليـه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه ؛ ولم يقدر منه على شىء .

قالوا : وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر ، فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الحنكة والرأى منهم عن بساطه ، وانفرد هو به فكان يشير على الناصر فى غزوته هـذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن ، وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعيـاه أمـر الحصن عزم على النهوض عنه الى غيره ؛ فأشار عليه ابـن جامـع بأن لا يتجاوزه حتى يفتحه ، فيقال انه أقام على ذلك الحصن ثمانيـة أشهر فنيت فيها أزواد الناس ؛ وقلت علوفاتهم ؛ وكلت عزائمهم ، وفسدت نياتهم ؛

وانقطعت الامداد عن المحلة فغلت بها الاسعار ، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر ، ويقال انه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش الخطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله.

واتصل بالفنش لعنه الله ما آل اليه امر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأى ، فاغتنم الفرصة وبعث الحاشرين فى مدائنه ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته ، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له .

ثم خالف الناصر الى قلعة رباح فنازلها ، وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الاندلس وزعمائها ، كان قد ترتب فى ذلك الحصن فى جماعة من الخيل لحمايته وضبطه ، فحاصره الفنش وبالغ فى التضييق عليه ؛ فكان ابن قادس يكتب لامير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه ، وهو على حصن سلبطرة ؛ فكان الوزير ابن جامع اذا وصلت اليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه ، فلما طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الاقوات والسلاح ويئس من امداد الناصر اياه وخشى على من فى الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم ، ففعل ؛ واستولى الفنش على قلعة رباح

وسار ابن قادس الى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالامر على وجهه ؛ وسار معه صهر له بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع فابى ، وقال : ان قتلت قتلت معك ! ولما وصل الى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه ؛ ثم دخل على الناصر فقال له : ان ابن قاذس قد دفع الحصن الى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك .

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الاندلس ، واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش ؛ فلما قدم ابن قادس فى هذه المرة وقال له

ابن جامع ما قال امر بقتله فقتل هو وصهره قطعا بالرماح رحمهما الله.

فحقدت جيوش الاندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر ، واحس ابن جامع بذلك فامر باحضار قوادهم فحضروا بين يديه ، فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا . وسننظر بعد هذا فى أمر كل فاجر .

ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التى هى أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه ؛ وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد ، ثم شدد فى قتال سلبطرة وبذل الاموال الجليلة حتى فتحها صلحا وذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة ثمان وستمائة ، ثم زحف الفنش الى الناصر ونهض الناصر اليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان ، فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة ، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بازائه ؛ ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ؛ وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فتقدمت اليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفا ، فغابوا فى صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالا شديدا فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب والاندلس ينظرون اليهم لم يحرك اليهم منهم أحد .

ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة . فلما انتشب القتال بين الفريقين فرت قواد الاندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع فى قتل ابن قادس أولا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة الا بالله ؛ وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا الى الدائرة التى دارت عليه من

العبيد والحشم ، فألقوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شيء ؛ ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهى مشرعة اليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول « صدق الرحمن وكذب الشيطان» حتى كانت الفرنج تصل اليه، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف ؛ ثم أقبل اليه بعض فرسان العرب على فرس له انثى فقال له : الى متى قعودك ياأمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون ؟ فعند ذلك قام الناصر الى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربى عن فرسه وقال له : اركب هذه الحرة فانها لا ترضى بعار ، فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله . فركبها الناصر ، وركب العربى جواده ، وتقدم أمامه فى كوكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم ، والفرنج فى أعقابهم تقتلهم ونادى منادى الفنش يومئذ : ألا لا أسر الا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره ؟ فحكمت سيوف الفرنج فى المسلمين الى الليل .

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة . فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والاندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج الى أن تدارك الله رمق الاندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول اليه ان شاء الله .

قال ابن الخطيب : لما لحق الناصر باشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت اليهم الظنة . وقال ابن خلدون : ثم رجعت الفرنج الى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين ، فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبى حفص بن عبد المومن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك



وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن أبى زرع : لما قدم الناصرالى مراكش منصرفا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر ، فبايعه كافة الموحدين ؛ وخطب له على جميع منابر المغرب والاندلس فى العشر الاواخر من ذى الحجة سنة تسع وستمائة

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن النس وانغمس فى لذاته مصطبحا ومغتبقا الى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموما بتدبير وزرائه عليه فى ذلك ، قال : وكانت وفاته يوم الاربعاء الحادى عشر من شعبان المذكور .

وقال ابن خلكان : تقول المغاربة ان الناصر رحمه الله كان قد أوصى الى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ، ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلا فعندما رأوه جعلوه غرضا لرماحهم ، فجعل يقول : أنا الخليفة أنا الخليفة ؟ فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : الصحيح فى وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب فى رقم الحلل قال : « ثم صرف الناصر وجهه الى غزو الاندلس فى عزم لم يبلغ اليه ملك قبله ، ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفى ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع (١) والبقاء لله وحده .

(I) وذكر صاحب كتاب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب وهو ابو محمد عبد الواحد المراكشى انه اختلف فى سبب وفاته واصلح ما بلغه فى ذلك انه اصابته سكتة من ورم فى دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت واحد والاثنين واشار عليه الاطباء بالفصد فابى ذلك وتوفى يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة 610 ودفن يوم الخميس، صلى عليه خاصة الحشم اه.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله
ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة ، ولقب بالمنتصر بالله ؛ وغلب عليه الوزير أبو سعيد ابن جامع ومشيخة الموحدين ، فقاموا بأمره ؛ واستبدوا عليه ؛ وتأخرت بيعة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص من افريقية لصغر سن المنتصر ، ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الاشغال عبد العزيز بن أبى زيد فوصلت بيعته حينئذ ، واشتغل المنتصر عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب .

وعقد للسادات على عمالات ملكه ؛ فعقد للسيد أبى ابراهيم اسحق بن يوسف بن عبد المومن — ويلقب بالظاهر — على فاس وأعمالها ، وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتى ذكره . وعقد لعمه السيد أبى اسحق بن المنصور على اشبيلية وما أضيف اليها ، ولعمه ابى عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالها ؛ ولعمه أبى محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالهما . وبعث معه الشيخ أبا زيد بن يرجان وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم .

وفى دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم ، وأشرفت دولتهم على الهرم ؛ واستولى الفنش على المعاقل التى أخذها المسلمون ؛ وهزم حامية الاندلس فى كل جهة ؛ واستبدت السادة بالاطراف ، والتاثت الامور بالاندلس والمغرب أجمع . أما الاندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حماتها ؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب .

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة ؛ وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها ، فاقتحموا المغرب فى هذه السنين لخلائه من الحامية ، واكتسحوا بسائطه بالغارات ؛ وانحازت رعاياه الى

المعاقل والحصون ؛ وكثرت الشكايات بهم الى المنتصر ؛ وهو مقيم بمراكش فكتب الى السيد ابى ابراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم ، فخرج اليهم وهو ببلاد الريف ؛ فأوقعوا به وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم ، وعاد السيد مفلولا الى فاس ؛ وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة ؛ فسميت السنة سنة المشعلة ، وكانوا قد أسروا السيد أبا ابراهيم ثم عرفوه فاطلقوه . ثم صمدت بنو مرين بعدها الى تازا فغلوا حاميتها ؛ وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد ان شاء الله .

وفي سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الاندلس ، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب ؛ لان العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره ، فخرج اليه جيش اشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الاندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس ؛ وكان ذلك بأمر المنتصر ، فساروا يؤمون العدو ؛ فلم تقع عينهم على عينه الاوقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الادبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب ، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم ، وخشعت نفوسهم له . ولما فروا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم ، ورجع الفنش الى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين .

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة توفي صاحب افريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن أبي حفص ؛ فبايع الموحدون بافريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمن ، فقام بالامر وأطفأ النائرة ؛ وأفاض العطاء ومهد النواحي ورتب الامور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الاكبر مكانه ، وهو ادريس بن يوسف بن عبد المومن . فقدم افريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة ، ووالى الهزائم على ابن غانية الثائر بافريقية حتى شرد الى الصحراء ، وأبو العلاء

هذا هو الذى بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنها ، وهـو الذى بنى برج الذهب باشبيلية ايام ولايته عليها فى دولة ابيه ، واقام ابو العـلاء بافريقية الى ان توفى بتونس منها فى شعبان سنة عشرين وستمائة.

واستولى على افريقية بعده ابنه أبو زيد بن ادريس ؛ وساءت سيرته فى الناس ، وأقام على ذلك الى دولة العادل عبد الله بن المنصـــور صاحب مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص .

ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ، وتداول ملك افريقية بنوه من بعده ؛ واستبدوا بها واقتطعوها عن نظر بنى عبد المومن أصحاب مراكش ، فلم تعد اليهم بعد .

وأما يوسف المنتصر فانه استمر مقيما بمراكش على لذاتـــه الى أن توفى ، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعا باتخاذ الحيـوان واستنتـاجه ؛ فكان يوتى اليه بأصناف البقر من الاندلس فيرسلها فى بستانه الكبير مـن حضرة مراكش ، ويحمل بعضها على بعض للتناسل ؛ فخـرج ذات يـــوم للتطوف على تلك البقر والنظر اليها ، فتوسط قطيعا منها وقـد ركب نشيا فأنكرته بقرة شرود كانت فى ذلك القطيع فطعنته فى صدره طعنـــة أتت عليه من حينه ، وذلك فى عشى يوم السبت الثانى عشرة من ذى الحجـــة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف الا حملا من جارية له .

قال ابن خلكان : لم يكن فى بنى عبد المومن أحسن وجها من المنتصر ولا أبلغ فى المخاطبة ، الا أنه كان مشغوفا براحته ؛ فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة فى أيامه والله تعالى أعلم .



الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف ابن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنتصر فى التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبى محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور .

قال ابن أبى زرع : بايعوه على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ فى سن الشيخوخة ، وكان عالما فاضلا متورعا ؛ فاستقام له الامر نحو شهرين ، وخطب له فى جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية ؛ فان ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان واليا عليها ، وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن يرجان المعروف بالاصفر ؛ وكان من دهاة الموحدين ، وكان المنصور رحمه الله اذا رآه يستعيذ بالله من شره ؛ ويقول ما ذا يجرى على يديك من الفتن يا أصفر ؛ وكان من خبره أنه لما بويع المخلوع أمر باطلاق ابن يرجان لانه كان محبوسا على ما عند ابن خلدون ، فاطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك ، وانفذ أخاه أبا اسحق فى الاسطول ليغربه الى ميورقة ، فلاذ ابن يرجان حينئذ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية ، ونزل منه منزلة الوزير واغراه بالتوثب على الامر ، وشهد له انه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر . وقال له فيما قال : انك احق بالخلافة من عبد الواحد ، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر ؛ ولك الرأى وحسن السياسة والحزم . ولو دعوت الموحدين الى بيعتك لم يختلف عليك اثنان .

وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الاندلس يومئذ كلهم بنو المنصور ، فأصغى اليه عبد الله هذا ؛ وكان مترددا فى بيعة عمه ؛ فبرز الى مجلس حكمه ؛ واستدعى من بمرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والاشياخ فدعاهم الى بيعته ؛ فبايعوه وتسمى بالعادل ؛ وكان اخوته ابو

العلاء الاصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرا ، وكان أبو محمد بن أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المومن المعروف بالبياسى صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه ابى الربيع بن ابى حفص فانتقض وبايع للعادل ، وزحف مع ابى العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل الى اشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع ، فدخل فى دعوتهم ؛ وامتنع السيد أبو زيد بن أبى عبد الله أخو البياسى عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع ، وخرج العادل من مرسية الى اشبيلية فدخلها مع أبى زيد بن يرجان ، وبلغ الخبر الى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع ؛ وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه الى هسكورة لكراهيتهم له ، وجرت خطوب أفضت الى خلع عبد الواحد وقتله .

وفى القرطاس : أن عبد الواحد العادل كتب الى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم الى بيعته وخلع عبد الواحد ، ووعدهم على ذلك الاموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة ، فسارعوا الى ذلك، ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل الا ان يخلع نفسه ويبايع للعادل ؛ فأجابهم الى ذلك ؛ فخرجوا عنه ؛ ووكلوا بالقصر من يحفظه ، وكان ذلك يوم السبت الحادى والعشرين من شعبان سنة احدى وعشرين وستمائة .

فلما كان يوم الاحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضى والفقهاء والاشياخ فأشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل ؛ ثم دخلوا عليه بعد مضى ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات ؛ وانتهبوا قصره واستولوا على امواله وحريمه، فكان عبد الواحد هذا اول من خلع وقتل من بنى عبد المومن، وصار اشياخ الموحدين لخلفائهم كالاتراك لبنى العباس ؛ فكان فعلهم ذلك سببا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم . والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة احدى وعشرين وستمائة .

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله

بويع له البيعة الاولى بمرسية من بلاد الاندلس منتصف صفر سنة احدى وعشرين وستمائة . وتلقب بالعادل فى أحكام الله ؛ ثم خلص له الامر وبايعه كافة الموحدين ؛ وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة .

وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبى عبد الله أخو البياسى كما ذكرناه آنفا ، وكان واليا على بلنسية وشاطبة ودانية ؛ ولما رأى السيد أبو محمد البياسى أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف اليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الاوسط وتلقب بالظافر ؛ وانما دعى البياسى لقيامه من بياسة ؛ فوصلت بيعة الموحدين من مراكش الى العادل ومعها كتاب أبى زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هنتانة بقصة المخلوع وما كان من امره ، فصادف وصولها هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش ، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الاصغر وهو ادريس ابن المنصور فى جيش كثيف الى البياسى فحاصره ببياسة . ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل حتى اذا أفرج عنه أبو العلاء عاد الى النكث ؛ وبعث الى الفنش يستنصره على العادل ؛ وضمن له أن ينزل له عن بياسة وقيجاطة ؛ فكان أول من سن اعطاء الحصون والبلاد للفرنج . فوجه اليه الفنش بجيش من عشرين ألفا . ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد اشبيلية حتى اذا دنا منها خرج اليه السيد أبو العلاء الاصغر - وهو الذى دعى بعد بالمأمون - فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ؛ فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسى والفرنج على محلته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك .

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشى أن يتفاقم داء البياسى

ويمتد عباب فتنته الى مراكش ؛ فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر الى العدوة . ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك ؟ فأنشده :

حال متى علم ابن المنصور بها جاء الزمان الى منها تائبا

فاستحسن ذلك منه وولاه افريقية . وهذا البيت لابى الطيب المتنبى وانما تمثل به عبو لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به .

وانتهى العادل فى سيره الى سلا فاقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا ، وكان لابن يرجان عناية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط . فتثاقل جرمون بن عيسى أمير سفيان عن الوصول الى العادل ، ثم بادر العادل الى مراكش وقاسى فى طريقه اليها من العرب شدائد ، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبى حفص وتغير لابن يرجان ، ففسد باطنه وسعى فى افساد الدولة ، وغلب أبو زكريا بن الشهيد شيخ هنتاتة ؛ ويوسف بن على شيخ تينملل على أمر العادل . ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة ، وعاثوا فى نواحى مراكش ؛ وخربوا بلاد دكالة فخرج اليهم ابن برجان فلم يغن شيئا ، فانفذ اليهم العادل عسكرا من الموحدين لنظر ابراهيم بن اسمعيل ابن الشيخ ابى حفص فانهزم وقتل ، واضطربت الاحوال على العادل ؛ وخرج ابن الشهيد ويوسف بن على الى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة والعرب ؛ فاتفقا أيضا على خلع العادل واضطربت الامور .

ولما انتهى الى أبى العلاء صاحب الاندلس خبر اخيه العادل وما هو فيه بمراكش من الاضطراب دعا لنفسه باشبيلية فبويع بها ، وأجابه أكثر اهل الاندلس ؛ وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسى ، وكان ذلك فى أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة .

ولما تمت بيعته كتب الى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم الى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الاندلس والموحدين الذين بها عليه ؛ ووعدهم في ذلك ومناهم ، فكان منهم بعض توقف ؛ ثم اجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل ؛ فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع ؛ فوثبوا عليه ودسوا رأسه فى خصة ماء كانت هناك وقالوا له : لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع . فقال : اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت الا امير المؤمنين . فوضعوا عمامته فى عنقه وخنقوه ورأسه فى الخصة حتى فاظ ؛ وكان خيرا فاضلا رحمه الله ؛ وكانت وفاته فى الحادى والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة . وكتبوا بيعتهم الى أبى العلاء المأمون ؛ وبعثوا بها اليه مع البريد ؛ ثم بدا لهم فى بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الاحوال بالمغرب والاندلس ؛ وطما عباب الفتن بهما وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو ابو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشى أمره دعا لنفسه باشبيلية وبايعه اهل الاندلس والموحدون بالحضرة كما قلنا، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلموه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف ، وتخوفوا ان يأخذهم بدم عمه عبد المخلوع ؛ ثم أخيه عبد الله العادل ، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر ابن المنصور وهو شاب غر كما يقل عذاره ، وانما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم ، فان سنه يومئذ كانت ستة عشرة سنة ؛ فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن

والعشرين من شوال سنة اربع وعشرين وستمائة، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا : قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته ؛ وتأخر قدوم المأمون الى مراكش وبقى بالاندلس لاسباب يأتى شرحها ؛ وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء ، وجهز جيشا من الموحدين والجند الى قتال الخلط وهسكورة ؛ وهم يومئذ فى طاعة المأمون ، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولا الى مراكش ، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبى زيد بن يرجان للعرب وهسكورة فى الغارة على مراكش واطلع على ذلك أيضا أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله ، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة ؛ ثم اضطربت الاحوال على يحيى وانتقضت البلاد ، وغلت الاسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب ؛ واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين فى كثير من أمصاره ، واقتضوا جبايته ونبغت الثوار فى الاقطار على ما نذكره

ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامى بجبال غمارة

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبى الطواجين الكتامى المتنبى ، وكان أبوه من قصر كتامة منقبضا عن الناس ؛ وكان ينتحل صناعة الكيمياء ، فكان يلقب بأبى الطواجين لكثرة الظروف التى كان يستعملها فى ذلك بزعمه . وتلقن ذلك عنه ابنه هذا ، ثم ارتحل الى سبتة ونزل على بنى سعيد بأحوازها ، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع واظهر أنواعا من الشعبذة فكثر تابعوه ، ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا اليه عهده ؛ وزحفت اليه عساكر سبتة ففر عنهم ؛ ثم قتله بعض البرابرة غيلة بوادى لاو بين بلاد بنى سعيد

وبلاد بنى زيات ؛ وابن أبى الطواجين هذا هو الذى تسبب فى قتل الشيخ أبى محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه على مـا نذكره بعد ان شاء الله .

أخبار الثوار بالاندلس وما آل إليه أمر الموحدين بها

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن فى أقطاره ونواحيه ،وانتزى السادات منهم بنواحى الاندلس كل فى عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الاندلس عليهم ، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة ، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدين لذلك مرات ، فخرج فى نفر من الاجناد سنة خمس وعشرين وستمائة ؛ وجهز اليه والى مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبى عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكرا فهزمهم ، وزحف الى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها ؛ وخطب للخليفة المستنصر العباسى صاحب بغداد ،وفى ذلك يقول ابن الخطيب فى رقم الحلل عند ذكره لبنى هود هولاء :

وكان من أعقابه الأمير   محمد بن يوسف الاخير
وكان باسلا شديد البأس   وبايع المستنصر العباسى

ثم زحف اليه السيد ابو زيد بن محمد بن ابى حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسى المتقدم ذكره من شاطبة وكان واليا بها كما مر ، فهزمه ابن هود ورجع الى شاطبة واستجاش بالمأمون ، وهو يومئذ باشبيلية ؛فخرج فى العساكر ولقيه ابن هود فانهزم، واتبعه المأمون الى مرسية فحاصره مدة . وامتنعت عليه فاقلع عنه ورجع الى اشبيلية . ثم انتقض على السيد أبى زيد ببلنسية زيان ابن ابى الحملات مدافع بن ابى الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش، وخرج

عنه الى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة ؛ وكان بنى مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولى بأس وقوة ؛ فتوقع أبو زيد اختلال امره ، وبعث اليه ولاطفه فى الرجوع فأبى، فخرج ابو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة، ودخل فى دين النصرانية والعياذ بالله ؛ وبايع أهل شاطبة لابن هود ؛ ثم تابعت بلاد الاندلس على بيعته ، ودخل فى طاعته أهل قرطبة واشبيلية بعد رحيل المأمون عنهم الى مراكش ؛ ولم يبق للموحدين بالاندلس سلطان .

ثم فى سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر بحصن ارجونة من أعمال قرطبة ؛ ودعا لابى زكرياء الحفصى صاحب افريقية . ثم دخل فى طاعته أهل قرطبة ؛ وتنازع ابن الاحمر وابن هود رئاسة الاندلس ، وتجاذبا حبل الملك بها ؛ وكانت خطوب استولى لطاغية فيها على كثير من حصون الاندلس ، ثم استقر قدم ابن الاحمر فى الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره .

قدوم أبى العلاء المأمون بن المنصور من الاندلس إلى مراكش
وما اتفق له في ذلك

قد تقدم لنا ان الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون ، وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر ؛ فوصلت بيعة الموحدين الى المأمون ، وهو يومئذ باشبيلية ، فسر بها وأمر باقرائها على منابر الاندلس ، ثم أخذ فى التجهيز والحركة الى مراكش دار ملكهم ؛ فسار حتى اذا وصل الى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته ، وبايعوا ابن اخيه يحيى. فوجم لذلك واطرق مليا ثم انشد متمثلا بقول حسان رضى الله عنه :

لتسمعن وشيكا فى ديارهم ‏ ‏ ‏ ‏ الله أكبر ياثرات عثمانا

ثم كتب من حينه الى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسألـه (١) أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكش اذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بهـا دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهـم الى غير ذلك ؛ فأسعفه المـأمون في جميع ما طلبه منه .

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلال أحواله بها كما قدنا ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فارا بنفسه الى تينملل ؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة ؛ ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها واليا يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم . وجددوا له البيعة ؛ وكتبوا اليه يخبرونه بفرار يحيى الى الجبل ؛ ويرغبون اليه في القدوم عليهم ، وكتب اليه أيضا هلال ابن حميدان اميـر الخلط ؛ واستمر يحيـى معتصما بالجبل أربعة أشهر ، ثم بداله فعاد الى مراكش وقتل عامل المأمن الذى قدمه الموحدين بها ؛ واستمر بها نحو سبعة أيام ، ثم خرج الى جبـل جليز وعسكر به ؛ وأقام منتظرا لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش . ثم بعث صاحب قشتالة الى المأمون جيشا من اثنى عشر الفا برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة ، وكان وصولهم اليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمائة؛ ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء الى سبتة في ذى القعدة من السنة المذكورة، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها . فأراح بسبتة أياما ثم نهض الى مراكش حتى اذا دنى منها لقيه يحيـى بجيوش الموحديـن وذلك عشى يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الاول من السنة الداخلة ؛ فانهزم يحيى وفر الى الجبل وقتل كثير من جيشه .

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتاب كشف العرين عن ليوث بني مرين أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبي الحسن المريني .

ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون ، وصعد المنبر بجامع المنصور – وكان علامة اديبا بليغا – فخطب الناس ولعن المهدى على المنبر وقال: لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم ؛ ألا لا مهدى الا عيسى ، وانا قد نبذنا امره النحس. ولما انتهى الى آخر خطبة قال: معشر الموحدين لا تظنوا أنى انا ادريس الذى تندرس دولتكم على يده ، كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله.

ثم نزل وأمر بالكتب الى جميع البلاد بمحو اسم المهدى من السكة والخطبة وتغيير سننه التى ابتدعها للموحدين وجرى عليها سلفهم ؛ ونعى عليها النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته فى أذان الصبح : ولله الحمد ، وغير ذلك من السنن التى اختص بها المهدى، وامر بتدوير الدراهم التى ضربها المهدى مربعة وقال كل ما فعله المهدى وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل الى ابقائه ، وأبدأ فى ذلك وأعاد .

ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثا ؛ ثم خرج فى اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه ؛ فقال لهم يا معشر الموحدين انكم قد أظهرتم علينا العناد . وأكثرتم فى الارض الفساد ؛ ونقضتم العهود وبذلتم فى حربنا المجهود . وقتلتم الاخوان والاعمام ؛ ولم ترقبوا فيهم الا ولاذمام . ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به اليه ؛ واحتج عليهم بنكثهم الذى نكثوا بعده ؛ فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط فى ايديهم والتفت الى قضية المكيدى – وكان بازائه قد قدم معه من اشبيلية – فقال له: ما ترى ايها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول : « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » الآية . فقال المأمون : صدق الله العظيم فانا نحكم فيهم بحكم الله « ومن لم يحكم بما نزل الله فاولئك هم الظالمون » ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا الى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى أنه أتى بابن أخت له صغير يقال ان سنه كان ثلاث عشرة سنة وكان قد حفظ القرآن ، فلما قدم للقتل

قال له : « يا أمير المؤمنين اعف عنى لثلاث » قال ما هن ؟ قال : « صغر سنى ؛ وقرب رحمى، وحفظى لكتاب الله العزيز» فيقال ان المأمون نظر الى القاضى كالمستشير له وقال له : « كيف ترى قوة جأش هذا الغلام واقدامه على الكلام فى هذا المقام ؟ » فقال القاضى : « يا أمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا» فأمر به فقتل رحمه الله، ثم امر بالرؤوس فعلقت بدائر سور المدينة.

ذكر ابن أبى زرع انها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمن قيظ فتنتت بها المدينة وتأذى الناس بريحها ، فرفع اليه ذلك فقال : « ان ههنا مجانين وأن تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم الا بها . وانها لعطرة عند المحبين وتنتنة عند المبغظين ! ثم أنشد :

أهل الحرابة والفساد من الورى	بالقطع والتعليق فى الاشجار
ففساده فيه الصلاح لغيره	يعزون فى التشبيه للذكار
فرؤوسهم ذكرى اذا ما أبصرت	فوق الجذوع وفى ذرى الاسوار
وكذا القصاص حياة أرباب النهى	والعدل مألوف بكل جوار
لو عم حلم الله سائر خلقه	ما كان أكثرهم من أهل النار

وهذه الفتكة التى ارتكبها المأمون من الموحدين انست فتكة الحارث بن ظالم ؛ والبراض الكنانى والحجاف بن حكيم ، وهى التى استأصلت جمهورهم؛ وأماتت نخوتهم، وأذن المأمون للنصارى القادمين معه فى بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضربوا بها نواقيسهم. وكانت الكنيسة فى الموضع المعروف بالسجينة .

وقبض على قاضى الجماعة بمراكش وهو ابو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه الى هلال بن حميدان الحلطى فحبسه حتى افتدى منه بستة آلاف دينار .

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر ؛ ثم نهض الى الجبل لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين ، وذلك فى رمضان سنة سبع وعشرين

وستمائة . فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة ، فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم الى مراكش أربعة آلاف رأس .

وفى هذه السنة استبد الامير أبو زكريا ابن الشيخ أبى محمد بن أبى حفص الهنتاتى بافريقية وخلع طاعة الموحدين .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون الى سائر البلاد بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفيها خرجت بلاد الاندلس كلها من ملك الموحدين . ونفاهم عنها ابن هود لثائر بها وقتلتهم العامة فى كل وجه .

وفى سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد ؛ فاتصل الخبر بالمأمون فخرج اليه ، وبلغه فى طريقه ان قبائل بنى فازاز ومكلاته قد حاصروا مكناسة وعاثوا فى نواحيها ؛ فسار اليهم وحسم مادة فسادهم ؛ وعاد الى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شىء ، وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب ؛ ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى ؛ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة ، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التى بنيت بها وقتلوا كثيرا من يهودها وسبوا أموالهم ، ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به الى الجبل .

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة ، فارتحل عنها مسرعا الى مراكش وذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ولما ابعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها الى الاندلس فبايعه ابن هود وأعطاه سبتة ؛ فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها الى ان مات .

وانتهى الخبر الى المأمون وهو فى طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة ، فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفا ومات بوادى العبيد وهو قافل من حصار سبتة ،وكانت وفاته فى آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة ، افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين ؛ فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر

وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده ؛ قالوا ولو لا ان الامور قد استحالت الى ما ذكر لكان المأمون موافقا لابيه المنصور في كثير من الخلل ؛ ومتبعا سننه في الاحوال.

وكان المأمون فصيح اللسان ؛ فقيها ،حافظا للحديث ضابطا للرواية، عارفا بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، مقدما في علم اللغة والعربية والادب وأيام الناس ؛ كاتبا بليغا حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ ، وسنن ابي داود ؛ وكان مع ذلك شهما حازما مقداما على عظائم الامور ؛ ولي الخلافة والبلاد تضطرم نارا .والممالك قد توزعتها الثوار ؛ فكان المأمون اذا فكر في حال الثوار وما آل اليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلا :

تكاثرت الظبا على خداش فما يدري خداش ما يصيد

يشير الى حاله معهم ؛ وانه لم يدري ما يتلافى من ذلك والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون

ابن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد .

قال ابن ابي زرع: بويع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة ابيه وهو الاحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة ، وسنه يومئذ اربع عشرة سنة؛ وكان الذين اخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفياني ؛ وشعيب بن اوقاايط الهسكوري، وفرنسيل قائد جيش الفرنج، فانه لما مات المأمون كتمت جاريته بعد موته واسمها حباب ، وكانت فرنجية الاصل ؛ ومن دهاة النساء وعقلائهن وهي

أم الرشيد ؛ فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم فى ازيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه ؛ ولان أهل الحل والعقد من الموحدين قد اتت عليهم فتكت المأمون ، فجاؤا اليها فأعلمتهم بموت الخليفة ، ورغبت اليهم فى بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالا جمة ، ووعدتهم مع ذلك انهم اذا فتحوا الحضرة ـ وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا ـ تجعلها لهم فيئا ؛ فبايعوه، واخذوا البيعة له على سواهم . فبايع الناس طوعا وكرها خوفا من سيوفهم .

ولما تم أمره جعل أباه فى تابوت وقدمه أمامه وسار الى مراكش ؛ وسمع يحيى واهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئا، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم.

واستخلف يحيى على مراكش ابا سعيد بن وانودين ، والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل اكثر من معه، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج واصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها ؛ وكان قد وصل فى صحبة عمه السيد ابو محمد سعد بن المنصور ؛ فحل من تلك الدولة بمكان ، وكان اليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن اوقاريط الهسكورى صحبة اولاد المأمون الذين كانوا باشبيلية ، ونفاهم ابن هود عنها وكان ابن اوقاريط هذا منحرفا عن المأمون ايام حياته فتذمم بصحبة هؤلاء الاولاد وقدم على الرشيد فتقبله ؛ واتصل بالسيد ابى محمد وحسنت منزلته لديه

ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن اوقاريط بقومه ومعتصمه ؛ وكشف وجه الخلاف، واخذ بدعوة يحيى بن الناصر ؛ واستنفر له قبائل الموحدين ؛ ونهض اليهم الرشيد سنة احدى وثلاثين وستمائة ؛ واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء ادريس ، وصعد اليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم ؛ ولحق يحيى ببلاد سجلماسة ، وانكفأ الرشيد راجعا الى حضرته ، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع

يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته ؛ وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوى ؛ وجاء الباقون على اثره بعد ان شرطوا عليه اعادة ما كان ازالة المأمون من رسوم المهدى وسننه فأعيدت .واطمأنوا لاعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الاحوال فى هذه الايام ؛ الى أن كان ما نذكره .

فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش

كان مسعود بن حميدان كبير الخلط قد أغراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلا ببأسه وكثرة جموعه، يقال ان الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثنى عشرة الف فارس سوى الرجل والاتباع والحشود ؛ فمرض مسعود فى الطاعة وتثاقل عن الوفادة الى الحضرة .

ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ فى السعى للفرقة والشتات بينهم ، فاعمل الرشيد الحيلة فى استدعائه ؛ وصرف عساكره الى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب ؛ واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضرة ؛ وقدم معه معاوية عم عمر بن اوقاريط ، فقبض على معاوية وقتل لحينه ، واستدعا الرشيد ابن حميدان الى المجلس الخلافى المحديث فتقبض عليه وعلى خمسة وعشرين من اصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة فى نفسه منهم

ولما بلغ خبر مقتلهم الى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان ؛ وأجلبوا على سائر النواحى ؛ وأعلنوا بدعوة يحيى بن الناصر ، واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء ، وداخلهم فى ذلك عمر بن اوقاريط ؛ وزحفوا لحصار مراكش ، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان ؛ فدافع ابن اقاريط بجموعه فى تلك العساكر فانهزموا ؛ وأحيط بجند النصارى فقتلوا ، وتفاقم الامر بالحضرة وعدمت الاقوات ، واعتزم الرشيد على الخروج

الى جبل الموحدين ؛ فخرج اليها وسار منها الى سجلماسة فملكهـا ، واشتد الحصار على مراكش ؛واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فنهبوها وساء أثرهم فيها ؛ واضطربت أحوال الخلافة بها ؛ وتغلب على السلطان السيد أبو ابراهيم بن أبى حفص الملقب بأبى حافة ؛ وهـذه الفتن كانت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها

وفى هذه السنة اعنى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنويـون سبتة بأجفان لا تحصى ؛ ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصـار ، واستمروا على ذلك الى ان دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها ؛ فلم يقدروا منها على شىء ؛ ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج فى الافراج عنهـم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا ؛ وأقلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم

عود الرشيد إلى مراكش وفرار يحيى عنها
إلى بني معقل ومقتله بهم

وفى هذه السنة أعنى سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش ؛ وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه ؛ وعبروا وادى أم الربيع ؛ وبرز اليه يحيى فى جموعه . والتقى الفريقـان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ؛ ودخل الرشيد الى الحضرة ظافرا ؛ وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الاندلس والاخـذ بدعوته ؛ فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم الى ابن هود صحبة ابن أوقـاريط ؛

فاستقر هناك ولم يرجع اليهم قولا، فعلم الخلط انها حيلة من ابن أوقاريط وانه تخلص من الورطة .

وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه، وسار الى فاس وأقام بها أياما، وفرق فى فقهائها وصلحائها أموالا ورباعا مغلة. وسرح الوزير السيد أبا محمد الى غمارة وفازاز لجباية أموالهما .

وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصرة واشتطو عليه فى المطالب فاسف بعضهم بالمنع فاغتاله فى جهة تازا ؛وسيق رأسه الى الرشيد بفاس ؛ فبعثه الى مراكش وأوعز الى نائبه بها أبى على بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا فى اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم، وقائد ابنا عامر شيخا بنى جابر فقتلهم، وانكفأ الرشيد راجعا الى حضرته سنة اربع وثلاثين وستمائة.

وكان ابن أوقاريط لما فصل ابن هود صاحب الاندلس أقام عنده الى هذه السنة نركب البحر فى اسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا ـ وبها يومئذ السيد أبو العلاء صهر الرشيد ـ فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل

وفى سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل أسبيلية للرشيد ، ونقضوا طاعة ابن هود ؛ وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد ؛ ووصل وفدهم الى الحضرة ومروا فى طريقهم بسبتة ، فاقتدى اهلها بهم فى بيعة الرشيد ، وقدموا على الحضرة ؛ وولى عليهم الرشيد أبا على بن خلاص منهم ، وانصرف وفد أسبيلية وسبتة راضين .

واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى تقدموا عليه وتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم واحيائهم، ثم امر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن اوقاريط ، وكان أهل اشبيلية قد بعثوا به اليه فقطع دابرهم .

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وكان قد بايع اولا أبا زكريا الحفصى صاحب افريقية ثم بدا له فرد البيعة الى الرشيد .

استيلاء العدو على قرطبة

وفى هده السنة كان استيلاء العدو - دمره الله - على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس ودار مملكتها. وذلك يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وفى سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به، وزحف اليهم الرشيد فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه. واقام فى محاربتهم سنتين ورجع عنهم الى الحضرة ، فاشتد عدوانهم بالمغرب ؟ وألحوا على مكناسة حتى اعطوا الاتاوة لبنى حمامة منهم ، واتصل غلبهم فى نواحيها .

وفى سنة تسع وثلاثين وستمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف، ووقف الرشيد على كتبه بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت الى الرشيد فقتله .

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد رحمه الله غريقا فى بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستماية ، ويقال انه أخرج من الماء حيا فحم لوقته ومات .

وذكر أبو عبد الله أكنسوس ان غرق الرشيد كان فى البركة الكبرى التى بدار الهناء من أجدال اليوم ، قال : وكان يقال لها البحر الاصغر لان ملوك بنى عبد المؤمن الذين أنشأوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة. والله تعالى اعلم.



الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد على بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هالك الرشيد بويع أخوه لابيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبى محمد بن وانودين ، وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا اسحق ابن السيد أبى ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن . ويحيى بن عطوش ، وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم ، واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم ؛ واستظهر بجموعهم على أمره ، وكان شيخ سفيان كانون بن جرموز كبير مجلسه ؛ وكان ضرر بنى مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل ، فخرج السعيد سنة اثنتين واربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب، فانتهى الى سجلماسة ، وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجى قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل القرمدة من أرض فاس .

وعقد المهادنة مع بنى مرين وقفل الى مراكش ، فكانت هدنة على دخن فلم يلبث الا يسيرا حتى عاود النهوض اليهم سنة ثلاثة واربعين بعدها، واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبى ابراهيم أخا الوزير المذكور آنفا على مراكش ، واستعمل أخاهما السيد أبا حفص وهو المرتضى على سلا ، وسار نحو بنى مرين ؛ فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى اذا تراآ الجمعان وتهيأ القوم للقاء خالف كانون بن جرمون الى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها ، فرجع السعيد ادراجه فى اتباعه ، نفر كانون عنها فاعترضه السعيد فاوقع به ؛ واستلحم كثير من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية ، ولحق كانون ببنى مرين ؛ ورجع السعيد الى الحضرة .

ثم تقدم الامير أبو بكر بن عبد الحق المرينى الى مكناسة فضايقها ؛ وخلب طاعة أهلها ، فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه .

وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة الى الامير أبى زكريا الحفصى صاحب افريقية ، وكان استبد على بنى عبد المؤمن ورام التغلب حتى

على كرسيهم بمراكش ؛ فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الامير أبى بكر بن عبد الحق . فانه كان يدعوا اليه فى أول أمره ، وكذا أخوه السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بأمره عند ما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد ان شاء الله .

وفى هذه السنة بعث أهل اشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للامير أبى زكريا الحفصى أيضا ، وبعث أبو على بن خلاص صاحب سبتة اليه بهدية مع ابنه فى اسطول أنشأه لذلك فغرق عند اقلاعه من المرسى ، وقبل هذه المدة بيسير كان الامير أبو زكريا الحفصى قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادى ؛ وهو جد ملوك بنى زيان أصحاب تلمسان والمغرب الاوسط ؛ فعظم قدر أبى زكريا بسبب هذه البيعات التى انثالت عليه من سائر الجهات ؛ وحدثته نفسه بالتوثب على كرسى الخلافة بمراكش ، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه ؛ وعظم عليهم استبداده ثم طمعه فى كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان الا جدولا من بحرهم وفرعا من دوحتهم ؛ والامر كله لله .

نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغربين
ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آل إليه الامر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الامير أبى زكريا بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى بافريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره فى الحركة الى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الاقطار .

وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة، فنظر فى اعطاف دولته وفاوض الملا من الموحدين فى تثقيف أطرافها وتقويم أودها ؛ وحرك هممهم ؛ واثار حفائظهم ، وأراهم كيف اقتطع عنهم الامر شيئا نشيئا ؛ فابن أبى حفص اقتطع افريقية ؛ ويغمراسن ابن زيان اقتطع المغرب الاوسط ثم أقام فيه الدعوة

الحفصية ، وابن هود اقتطع الاندلس وأقام فيها دعوة بنى العباس ؛ وابن الاحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضا ، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحى المغرب ثم سموا الى تملك امصاره ، وان سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الامر ؛ وتنقرض الدولة ، فتذامروا وتداعوا الى النهوض اليهم فحشد السعيد الجنود. وجهز العساكر وازاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وما يليه ، واحتشد كافة المصامدة .

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبنى مرين أولا ، ثم تلمسان ويغمراسن ثانيا ؛ ثم افريقية وابن أبى حفص ثالثا .

ولما نزل بوادى بهت أخذ فى عرض عساكره وتمييزها، فخرج الامير أبو بكر ابن عبد الحق من مكناسة ليلا وحده يتجسس الاخبار فأشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به ؛ فعاد الى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد ، وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التى كا نالامير أبو بكر أنزلهم بها ؛ واجتمعوا عليه بحصن تازا ، وطامن بلاد الريف .

وتقدم السعيد الى مكناسة فخرج اليه أهلها يطلبون منه العفو ، وقدموا بين ايديهم الشيخ الصالح أبا على منصور بن حرزوز ، وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤوسهم الالواح وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم .

ثم ارتحل الى تازا فى اتباع بنى مرين ، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق الى بنى يزناسن ثم راجع نظره فى مسالمة الموحدين والدخول فى أمرهم ؛ فبعث ببيعته الى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوه بنى مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف ؛ فسأله وفدهم أن يستكفى بالامير أبى بكر فى أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان ، وقد كتب اليه الامير أبو بكر أيضا بذلك يقول : « يا أمير المؤمنين ارجع الى حضرتك وقونى بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان » ؛ فاستشار السعيد وزراءه فقالوا : « لا تفعل فأن الزناتى أخو الزناتى لا يخذله ولا يسلمه » ؛ فكتب اليه السعيد بأن يبعث اليه جماعة

من قومه يعسكرون معه، فأمده الامير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بنى مرين وعقد عليهم لابن عمه أبى عياد بن أبى يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان .

وعند ابن ابى زرع أن السعيد لما فرغ من امر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهنالك أتته بيعة بنى مرين ؛ قال : ثم أرتحل السعيد عن فاس فى الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة ؛ وخسف القمر تلك الليلة خسوفا كليا ؛ وأصبح السعيد غاديا يريد تلمسان ؛ فلما ركب فرسه أنكسرت لواؤه المنصورى فتطير ونزل ؛ ولم يرتحل الا فى اليوم السادس عشر من الشهر المذكور .

ولما سمع يغمراسن باقبال السعيد اليه خرج من تلمسان فى عشيرته وقومه من سائر بنى عبد الواد ، وتحملوا بأهليهم وأولادهم الى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها ؛ ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغراسن مؤديا للطاعة وساعيا فى مذاهب الخدمة ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه اليه ويصرفه فى سبيله ، ومعتذرا تخلف يغمراسن عن الوصول الى حضرة السعيد ؛ فلج السعيد فى شأنه ولم يعذره ، وأبى الا مباشرة طاعته بنفسه ؛ وساعده فى ذلك كانون بن جرمون السفيانى صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ، وردوا الفقيه عبدون الى يغمراسن ليستقدمه فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه .

واعتمد السعيد الجبل فى عساكره حتى أناخ بها فى ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع ركب مهجرا فى وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليتطوف بالقلعة ، ويتقرى مكامنها ؛ فبصر به فارس من بنى عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة ، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه ؛ فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان، وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه ، وعمد يعقوب بن جابر الى وزيره يحيى بن عطلوش

فقتله ؛ ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحا من العلوج ، وعنبرا من الخصيان ؛ وقائد جند النصارى، وهو أخو القمط. ووليدا يافعا من ولد السعيد ، ويقال ؛ انما كان ذلك يوم عبى السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس ، فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة فى طريقه ؛ فتواثب عليه هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه. وذلك منسلخ صفر سنة ست واربعين وستمائة

وانتهى الخبر الى المحلة فارتجت وماجت ، وأخذ أهلها فى الفرار ؛ وبادر يغمراسن الى السعيد فنزل اليه وهو صريع على الارض ، فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه ! والسعيد رحمه الله واجم بمصرعه يجود بنفسه الى ان فاظ ، وانتهب المعسكر بجملته .

واستولى بنو عبد الواد على ما كان به من الاخبية الحسنة والفازات الرفيعة ، واختص يغمراسن بفسطاط السلطان ، فكان له خالصة دون قومه ؛ واستولى على الدخيرة التى كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، يزعمون أنه أحد المصاحف التى انتسخت لعهد خلافته ؛ وانه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ، ثم صار فى ذخائر لمتونة فيما صار اليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالاندلس ، ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة .

قال ابن خلدون : وهو لهذا العهد فى خزائن بنى مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان ، وذلك عند غلب السلطان أبى الحسن المرينى على تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اه .

وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثمانى وفيه مخالفة لبعض ما هنا ، وسيأتى لنا فى دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الامر .

ومن الذخائر التى صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصبائه . وكان يسمى بالثعبان .

ثم صار الى بنى مرين أيضا الى أن تلف فى البحر عند غرق الاسطول بالسلطان أبى الحسن بمرسى بجاية مرجعة من تونس حسبما نذكره بعد الى دخائر من امثاله وطرف من اشباهه مما يستخلصه الملوك لانفسهم ويعتدونه من ذخائرهم .

ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن فى شأن مواراة الخليفة فجهزه ووفعه على أعواده ، فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبى مدين رضى الله عنه . ثم نظر فى شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد ان جاءها واعتذر اليها مما وقع ، وأصحبهن جملة من مشيخة بنى عبد الواد الى مأمنهن ، فألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل فى الابقاء على الحرم ورعى حقوق الملك . وأما أهل محلة السعيد فانهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا الى عبد الله بن السعيد ، وقفلوا قاصدين مراكش .

واتصل الخبر بالامير أبى بكر بن عبد الحق وهو يومئذ ببنى يزنسن، وقدمت عليه الحصة التى كان وجهها مع السعيد ، فتحقق الخبر ؟ وانتهز الفرصة فى الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا ، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقى من أثاثهم ، ثم جد السير الى مكناسة فدخلها وملكها ؟ ولحق فل الموحدين بمراكش ، فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما توفى أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى واليا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا ، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش وعقدوا له البيعة وبعثوا بها اليه ، ونهض هو متوجها الى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا ، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضاً واستقام أمره

وتلقب بالمرتضى ، وعقد ليعقوب بن كانون على بنى جابر ؟ ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد ان كان قومه قدموه عليهم ، ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته. وقبض على حاشية السعيد. ثم وصل أخوه السيد أبو اسحق الذى كان وزيرا للسعيد من قبل ناجيا من وقعة تامزردكت آخذا على طريق سجلماسة فاستوزره أيضا وأسند اليه أمره. واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بنى مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة ، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها ؛ فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له الا بلاد الحوز من سلا الى السوس .

ولاول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على اشبيلية احدى قواعد الاندلس فان طاغية قشتالة وهو الاصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة . وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحا بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر ، وانتقل كرسى المملكة الاسلامية بالاندلس الى غرناطة وذلك فى دولة بنى الاحمر.

وفى سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الامير أبو بكر المرينى سلا ورباط الفتح ، ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسى وأخوه على بن زيان من قبيل بنى مرين ، وأغروه بقتال بنى عبد الحق فاسعفهم . ولما انتهى الى أمان ايملولين أشاع يعقوب بن جرمون السفيانى قضية الصلح بينهما، واصبح راحلا وقد استولى الجزع على قلوب الجيش، فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال ، ووصل المرتضى الى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه .

وفى سنة خمسين وستائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بنى مرين.

وفى سنة احدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى على بن يدر من بنى باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت

قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها ، واستخدم الشبانات وذوى حسان من عرب معقل ، وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره، واستولى على بسائط السوس فوجه اليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض، ثم جاء ابو دبوس من بعد المرتضى فنهض اليه ، وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت .

ولما اشتد عليه الحصار رغب فى الاقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد الى الحضرة . ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بنى يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله ، وأرهف حده للعرب وسامهم الهضيمة ، فزحفوا اليه وقتلوه فى السنة المذكورة . ثم توارث قطر السوس من بعده جماعةمن عشيرته ، واستمر ملكهم عليه الى زمان السلطان ابى الحسن المرينى فغلبهم عليه وانقرض امرهم .

رجع الى اخبار عمر المرتضى

وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة خرج ابو الحسن بن يعلو قائد المرتضى فى جيش من الموحدين الى تامسنا ليكشف احوال العرب ومعه يعقوب بن شيخ بنى جابر فقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما الى الحضرةمعتقلين

وفى سنة ثلاث وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس واعمالها من يد بنى مرين المتغلبين عليها، واحتفل فى الاحتشاد ، وبالغ فى الاستعداد ، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والاغزاز وأهل الاندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بنى بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بنى مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى ، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون الا غرارا ، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض الجنديين وجرى بين الاخبية ، وجرى الناس خلفه ليأخذوه ؛ فظن أهل المحلة

ان بنى مرين قد أغاروا عليهم ؛ فركبوا خيولهم ، وماج بعضهم فى بعض ؛ وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء .

واتصل الخبر بأبى بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما فى محلة الموحدين من الاخبية والاثاث والسلاح والمال ، ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش فى جمع قليل من الاشياخ والافرنج واقام بها واعرض عن بنى مرين وتسلى عنهم سائر ايامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفا .

واستبد أبو القاسم العزفى بسبتة واستتب أمره بها ، وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زمانا الى ان غلبهم عليها بنو مرين .

وفى سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلماسة ، وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكوا بمداخلة خديم له يعرف بمحمد القطرانى ، وشرط على الامير أبى بكر أن يكون هو الوالى عليها فأمضى له شرطه ، وأنزل معه بها جماعة من رجالات بنى مرين حتى اذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطرانى واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى ، واعتذر اليه ؛ واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه الا فى أحكام الشريعة ، وبعث أبا عمر بن حجاج قاضيا من الحضرة وبعض السادة للنظر فى القضية ؛ وقائدا من النصارى بعسكر للحماية ، فاعمل القاضى ابن حجاج الحيلة فى قتل القطرانى ، وتولى الفتك به قائد النصارى ؛ واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى .

واستفحل أمر بنى مرين اثناء ذلك . ونزل الامير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا، فسرح اليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين ؛ فأجفلوا الى وادى أم الربيع ، واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادى فانهزمت عساكر الموحدين، وغدر بهم بنو جابر ؛ وكان فى مسيل الوادى كدى يحسر عنها الماء فتبدو كأنها ارجل ، فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم الرجلين وذلك فى سنة

ستين وستمائة . وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن يدر الثـائر بالسوس الى سنة اثنتين وستين وستمائة . فأقبل الامير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش ، واتصل الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أياما ؛ هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ، فبعث المرتضى الى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه ؛ وضرب اتاوة يبعث بها اليه في كـل سنة ، فرضي يعقوب وارتحل عنها ؛ وقيل ان مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبـل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم .

انتقاض أبي دبوس على المرتضي واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحل بني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقـوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء أدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى ؛ وانه يطلب الامر لنفسـه ؛ فأحس أبو دبوس بالشر ولحـق بيعقوب بن عبد الحق فأدركـه عند مقدمه الى فاس قافلا من منازله مراكش، فأقبل عليه الامير يعقوب وبالغ في اكرامه، فطلب منه أبو دبوس الاعانة على حرب المرتضى ، وكان بطلا محربا وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطـان وما يستفيده من الذخيرة والمال . فأمده الامير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين ، وبالكفاية من المال ؛ وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك ، وكتب لـه مع ذلك الى عرب جشم ـ وأميرهم يومئذ علي بن أبي علي الخلطي ـ أن يكونوا معه يدا واحدة ، فسار أبو دبوس حتى وصل الى سلا فكتب منهـا الى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضي يدعوهـم الى بيعتـه ،

ويعدهم ويمنيهم ؟ فتلقته وفود العرب والهساكرة وسنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه ؟ وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة . ثم كتب الى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه أن اسرع السير وأقبل ولا تخشن شيئا ، فانا قد فرقنا الجند فى أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة . فزحف أبو دبوس الى مراكش حتى اذا أنتهى الى أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيت فى جيش من حاميتها ، فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه .

وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه سفيان وبنى جابر وكبيرهم يومئذ علوش بن كانون السفيانى ، فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس فى صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب . ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبى دبوس ، والاسوار خالية من الحامية والحراس . تقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وصمد الى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها .

وقال ابن أبى زرع : ان دخول أبى دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة ، والصالحة التى أضيف اليها هذا الباب هى بستان كبير من جملة بساتين اجدال دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهور بهذا الاسم الى الآن ، وهو من انشاء عبد المؤمن بن على رحمه الله ؟ فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله ابن محمد عذارى الاندلسى فى كتاب «البيان المعرب عن أخبار المغرب»: ان بستان المسرة الذى بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن على كبير الموحدين. قال: وهو بستان طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى ، وجلب اليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة .

قال ابن اليسع : وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه

ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش . اه

قلت: ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون : « يا جردة مالحة ، أين بت سارحة ؟ فى جنان الصالحة » فى أسجاع غير هذه تجرى على ألسنة الصبيان. والله اعلم.

رجع الى خبر ابى دبوس

قال ابن أبى زرع : ١١ اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الابواب دونه ، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه .

ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومى، وأبو موسى ابن عزوز الهنتاتى ، ثم انتقل منها الى كدميوة ؟ ثم الى شفشاوة ثم لحق آخرا بآزمور ونزل على صهر له من بنى عطوش كان واليا عليها من قبله. وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه آزمور . فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب اليه مستجيرا به ومطمئنا اليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده ، وكتب الى أبى دبوس يعلمه بشأنه ؟ فكتب أبو دبوس اليه يستكشفه فى شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد اذخر شيئا وحلف على ذلك ومت اليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه ؛ ثم أغراه خاصته به فوجه اليه من قتله فى الطريق وأتى اليه برأسه ، وسار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان

وكان مقتل المرتضى فى العشر الاواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة . وكان رحمه الله ينتمى الى التصوف والزهد والورع ، وتسمى بثالث العمرين ، وكان مولعا بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلا ولا نهارا وكان فى أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله .

وقال ابن الخطيب : كان المرتضى فاضلا خيرا عفيفا ، مغمد السيف ؛ مائلا الى الهدنة رحمه الله .

الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس

لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والاشياخ ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الاحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة ، واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش واعمالها، وتلقب بالواثق بالله، والمعتمد على الله. وبذل العطاء ونظر فى الولايات ، ورفع المكوس عن الرعية .

ولما اتصل بالامير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبى دبوس واستيلائه على المملكة كتب اليه يهنئه بالفتح ، ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذى شرط له ؟ فلما وصل اليه الكتاب أدركته النخوة ، وغلب عليه الكبر ؟ وقال للرسول : قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته ، ويبعث الى ببيعته حتى أقره على ما بيده والا غزوته بجنود لا قبل له بها ، فعاد الرسول الى الامير يعقوب ؟ وأبلغه الخبر ودفع اليه كتاب أبى دبوس فاذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الامير يعقوب نكثه وغدره، فنهض اليه فى جموع بنى مرين وعساكر المغرب

فلما اشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجأ الى أسواره، فتقدم الامير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها اياما وعاث فى نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما راى أبو دبوس ما نزل به منه كتب الى قريعة يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الامير يعقوب بما وراءه من اعمال فاس والمغرب

وأسنى له الهدية فى ذلك، وأكد العهد فى الموالاة والمناصرة، فأجابه يغمراسن الى ذلك. نهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب، واضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالامير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده على بدئه وسار الى يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه على ما ينبغى وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعا الى مراكش فى شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادى أم الربيع شن الغارات على النواحى، وبث السرايا فى الجهات، وطال عيثه فى البلاد، وأبدأ فى ذلك وأعاد؛ حتى ضاقت صدور بنى عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم. فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم، وأغروهم باستنهاض أبى دبوس لمدافعة عدوه، ووعدوهم النصر من أنفسهم؛ فتحرك أبو دبوس لذلك؛ واشرأبت نفسه الى القتال، فحشد وأبلغ، وبرز من الحضرة فى جيوش ضخمة وجموع وافرة.

ولما علم الامير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه، وكر راجعا الى جهة بلاده، يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها. وتمادى أبو دبوس فى اتباعه حتى انتهى الى وادى ودغفو، فكر عليه الامير يعقوب والتحم القتال، وقامت الحرب على ساق؛ فلم تمض الا ساعة حتى انهزم الموحدين، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش؛ فأدركته خيل بنى مرين؛ وتناولته رماحهم، وخر صريعا لليدين وللفم؛ واحتز رأسه وجيء به الى الامير يعقوب فسجد شكرا لله تعالى. ثم بعث به الى فاس، وتقدم هو الى مراكش فاستولى عليها فى أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش الى جبل تينملل، فبايعوا اسحق ابن أبى ابراهيم أخا المرتضى، فبقى ذبالة هنالك الى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه؛ وجيء به الى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد ابن أبى الربيع ووزيره القبائلى وأولاده فقتلوا جميعا، وانقرضت دولة بنى عبد المومن من الارض، وذهبت محاسن مراكش يومئذ بذهاب دولتهم والبقاء

لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث :

ففى سنة احدى وستمائة توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجى المعروف بالسبتى دفين مراكش ، وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ودفن خارج باب تاغزوت : وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضى أبى الفضل عياض .

وكان الشيخ أبو العباس رضىالله عنه جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان، قادرا على الكلام؛ لا يناظره أحد الا أفحمه . حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه ، وكان مع ذلك حليما صبورا عطوفا ، يحسن الى من يؤذيه ؛ ويحلم عمن يسفه عليه برا باليتامى والمساكين ، رحيما بهم ؛ يجلس حيث أمكنه الجلوس من الاسواق والطرقات ويحض الناس على الصدقة ، ويأتى بما جاء فى فضلها من الآيات والاثار فتنثال عليه من كل جانب ، فيفرقها على المساكين وينصرف . وكان له مع الله تعالى فى التوكل عليه عقد أكيد ، ومقام حميد ؛ قد ظهر اثره على روضته المباركة بعد وفاته .

حدث أبو القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجى قال : بعثنى أبو الوليد بن رشد من قرطبة ، وقال لى : اذا رأيت أبا العباس السبتى بمراكش . فانظر مذهبه واعلمنى به. قال : فجلست مع السبتى كثيرا الى ان حصلت على مذهبه : فاعلمته بذلك، فقال لى أبو الوليد هذا رجل مذهبه ان الوجود ينفعل بالجود

وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدى أبو العباس السبتى رضى الله عنه مقصودا فى حياته، مستغاثا به فى الازمات، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة، ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود، وكونه حكمة فى تأثرالوجود. له فى ذلك أخبار ذائعة وامثال باهرة.

ولما توفى ظهر هذا الاثر على تربته، وانسحبت على مكانـه عادة حياته ، ووقع الاجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة الى بعثها له من اماكنهم على بعد المدى، وانقطـاع الاماكن القصى، تحملهـم اجنحة نياتهم ؛ فتهوى اليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة ، والكرامة المشهورة .

وفى سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس.

وفى سنة ست عشرة وستمائة توفى الشيخ الفقيه الصالح أبو اسحـــق ابراهيم بن محمد السلمى البلفيقى، ينتهى نسبه الى العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول لله صلى الله عليه وسلم . كان أبو اسحق رحمه الله من كبار العلماء العاملين، والزهاد المحققين، مثابرا على الاجتهاد والانقطـاع الى الله تعالى ؛ وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الاندلس كرامات واجتمـع عليه خلق كثير ، وشـــاع ذكره هنالك ؛ فوشوا به الى الخليفة صـاحب مراكش وهو يوسف المنتصر الموحدى ، فكتب الى عامله عـــلى المرية يأمره بتوجيهه الشيخ أبى اسحق مكرما غير مروع .

ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والاتباع دون الشيـــخ وأرادوا ان يحولوا بينه وبين العامل ، فقال لهم الشيخ : « طاعة السلطان واجبة » ولمـــا انتهى الى مراكش ودخل على المنتصر هابه وجله وندم على ما كان منه اليه، ثم بالغ فى اكرامه، وبعـد ذلك مرض الشيخ ابو اسحق وتوفـى فى السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وحضرها الامراء والكبراء ، وكسر العـامة نعشه واقتسموا أعواده تبركا به، وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها وبقرب ضريحه مسجد جامع ينسب اليه والعامة تقول جامـــع سيدى اسحق بدون لفظ الكنية وليس كذلك.

وفى سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها الف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المـراكشى الدار عرف بابن الزيات كتابه المسمى «بالتشوف الى رجال التصوف»، وذكر فيه انه لم

يتعرض لذكر أحد من اولياء زمانه الاحياء غير انه ذكر ان من جملة اولياء زمانه الذين كانوا قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفى أبا محمد صالح بن ينضارن بن عفيان الدكالى ثم الماجرى نزيل ربط أسفى. قال: وهو الآن يفتر من الجهاد، والمحافظة على المواصلة والاوراد، ومن كلامه الفقير ليس له نهاية الا الموت ، قال : وحدثنى عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر ؟ وهو على سنن المشائخ الاول رضى الله عنه .

وفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفى الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، وقيل فيما بعد ذلك الى سنة خمس وعشرين ؛ وتوفى رضى الله عنه شهيدا بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هناك مشهور من أعظم مزارات المغرب.

وكان سبب شهادته أن محمدا بن أبى الطواجين الكتامى كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء ، ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعه على ضلالته طغاة غمارة والبربر. فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ رضى الله عنه ، لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم ؟ فسول له الشيطان انه لا يتم أمر مخرقته فى تلك الناحية الا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته فى سحر من الاسحار الى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعا الى محل عبادته وارتقاب فجره فعدوا عليه وقتلوه ؟ ومن الشائع انه القى عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا الى شواهق ترددوا منها فى مهاوى سحيقة تمزقت فيها اشلاؤهم ولم يرجع منهم خبر.

والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبى بكر بن على بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيرا ابن حيدرة واسمه على بن محمد بن ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وفى هذه السنة أيضا استأسد العدو الكافر على المسلين بالاندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والاسواق .

وفى سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والاندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشرة دينارا ، وعم الجراد بلاد المغرب .

وفى سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلى نحو مسافتين وهدم من جامع الاندلس ثلاثة بلاطات وهدم دورا كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الاندلس .

وفى سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القمح ثمانين دينارا وخلت الامصار من اهلها.

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضا وكان يدفن فى الحفير الواحد المائة من الناس .

وفى سنة ست واربعين وستمائة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها الى حمام الرحبة وبالله تعالى العصمة والتوفيق.

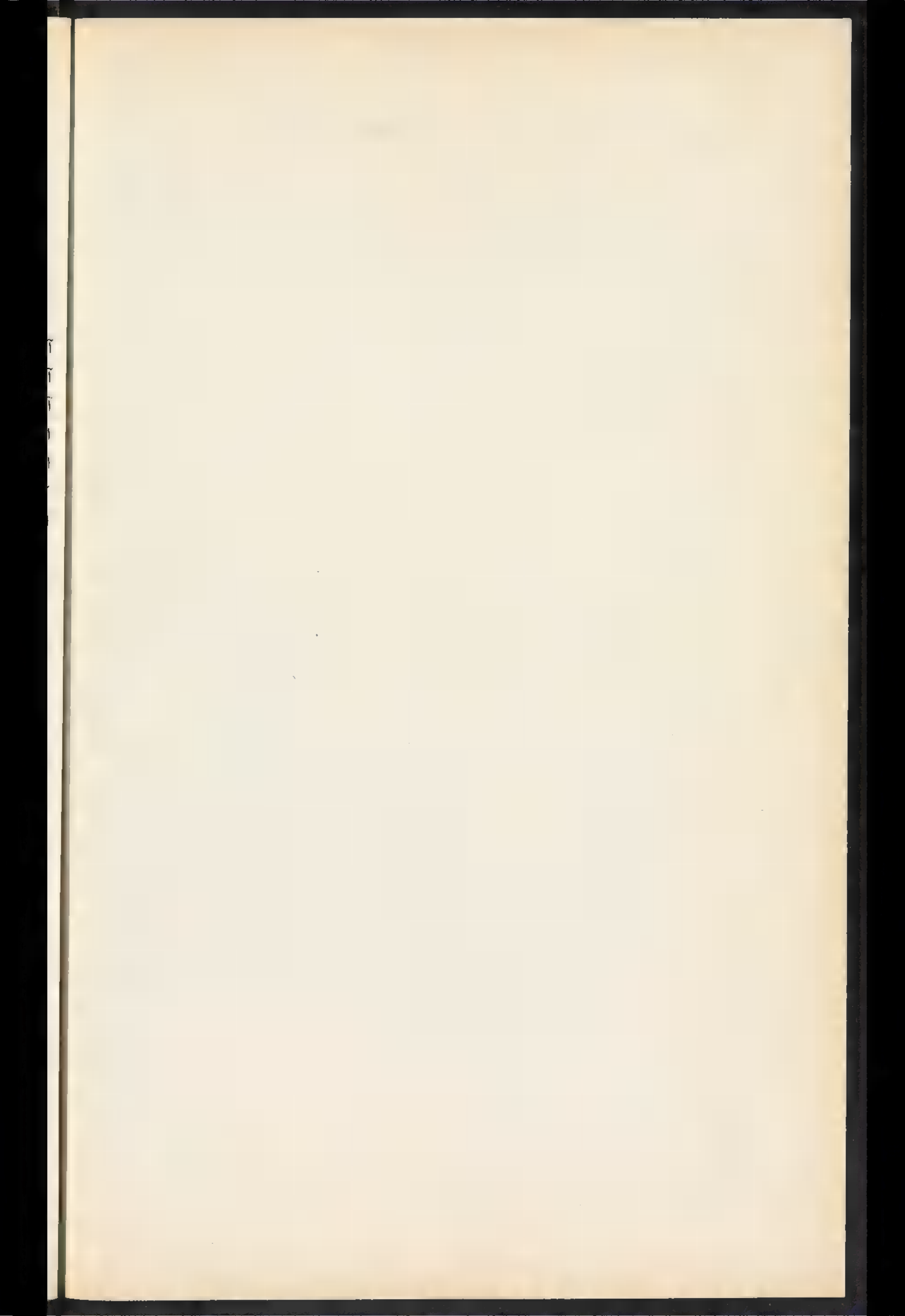


تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة بنى مرين

فهرس الموضوعات

الدولة الموحدية



فهرس الاعلام والقبائل

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)

فهرس الاماكن

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)

